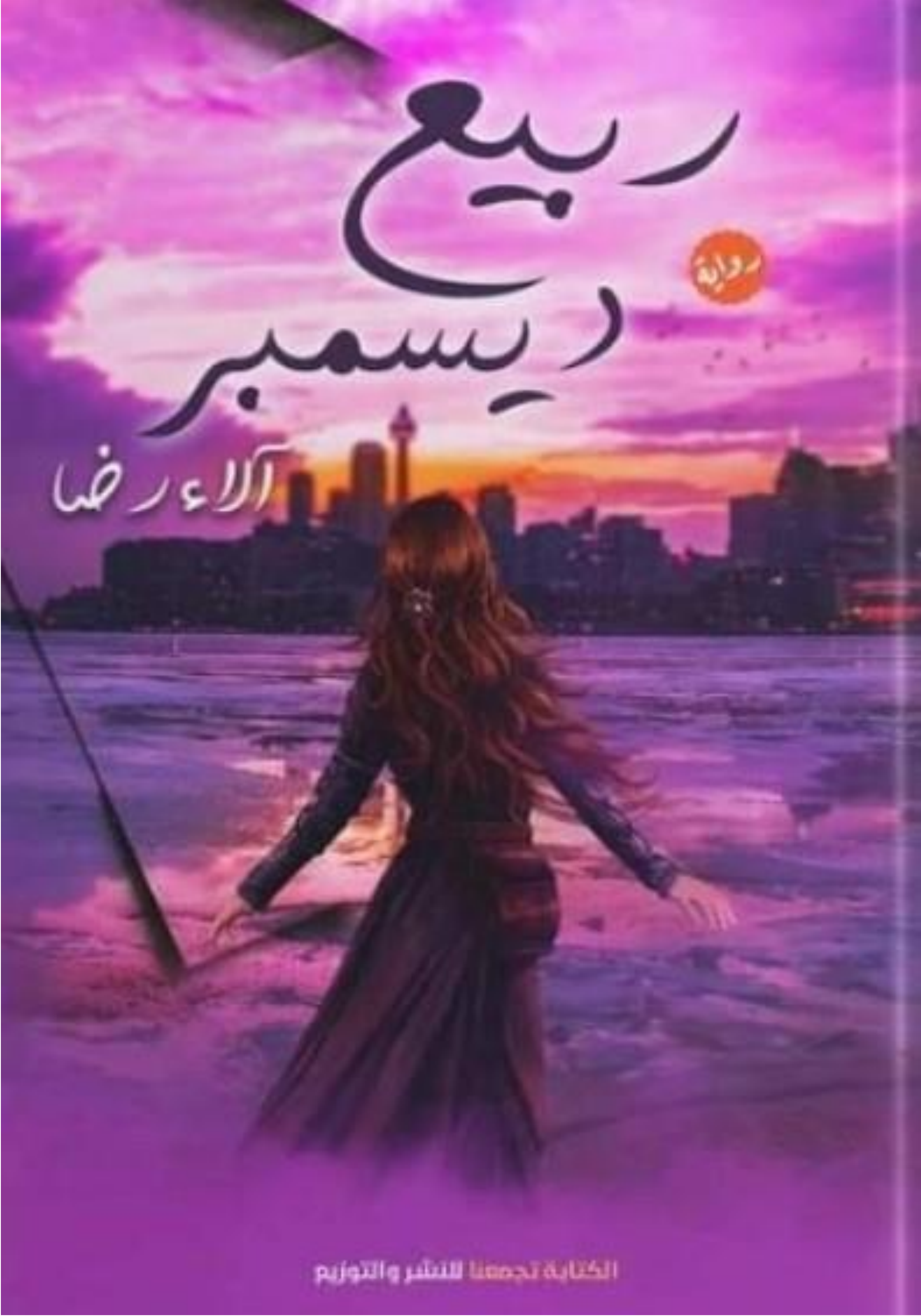
ربيع ديسمبر
رواية
آلاء رضا
الكتابة تجمعنا للنشر والتوزيع

ربيع ديسمبر

رواية

الكاتبة: آلاء رضا

"أفضل ما يمكن أن تقدمه لابنك ألا تضطره للذهاب لطبيب نفسي عندما يكبر"

-لقائلها-

إهداء

" إلى كل من ألهمني لكتابة هذه الكلمات، ولكل من قرأ هذه العبارة وابتسم."

مقدمة

إن إشراقة شمس كل يوم جديد هي بداية لحياة جديدة، وفرصة استثنائية للتغيير لا يلاحظها الكثيرون، فخذوا بهذه الفرصة، ولا تفقدوا الأمل بقدرتكم على تغيير حياتكم وحياة الكثيرين، فما التغيير إلا قرار حتمي يجب تنفيذه، والصبر على مشاقه، أي أنها فرصة استثنائية وجب اقتناصها.

وإن قررت اقتناء هذه الفرص، والإقدام على ثورة التصحيح بشجاعة، فهنيئًا لك، أنت في مكانك.

لا أحب تلخيص الروايات –كما هو معروف في مقدماتها- وأرى من المستحيل للرواية أن تتلخص؛ يعطي انطباعًا عن الرواية لا يميل لحقيقتها، فدائمًا ما كانت الحقيقة موجودة في ذات الشيء وليس في وصفه، أو وجهات النظر عنه

إنها كالملوخية، لن تنتهي من التهامها إلا وقد علق بعض منها بين أسنانك أو في الواجهة.

الفصل الأول

"لم تكن انتقاءً يا صديقي... كنت نعمة"

في ليلة ممطرة، السماء مكفهرة، ظلام مطبق يغطي المكان، الهدوء يغطي الأرجاء إلا من صوت ارتطام قطرات المطر متلاحقة على الأرضية، أو تطرق نوافذ البيوت، تجلس سيلينا في منزلها الصغير الذي يقطن في نهاية أحد الشوارع المزدحمة بسكانها، الفارغة طرقاتها في هذه الساعة إلا من قليل من المارة، الذين تصل وقع خطوات أقدامهم بين الفينة والأخرى إلى مسامع سيلينا، الجالسة تحتسي قهوتها مع الشوكولا الداكنة، وتقرأ كتابها الذي اقتنته من المكتبة المجاورة استجابة لنصيحة صديقتها لها بقراءته.

وأخيرًا ها هي تغلق الكتاب، ويكسو ملامحها الرضا بإنهاء قراءته أخيرًا، بعدما قسمته إلى فصول تنجز كل يوم قراءة فصل واحد منها، تلك كانت عادتها.

ثم نظرت حولها في شرود، المكان مرتب، طقسها المفضل، صوت الهدوء صاخب يطربها، والمطر كأنه يداعبها، قُطعت تلك اللحظات بصوت الهاتف الذي أضاء فجأة مستحوذًا على انتباهها، نظرت فإذا به تنبيه بتاريخ اليوم ٢٩، مما يعني أن هناك طرد بريدي من شخص مجهول سوف يصل إليها بعد قليل يحمل بداخله النقود، راتب شهري يصل في ميعاده بدقة بلا عمل.

تنتظر في هذه الساعة وصول الطرد كي تسأل حامله عن هوية المرسل، ولكنها على مدار الكثير من السنوات وتوالي الشهور وهي تكرر الفعلة ذاتها؛ تندفع ناحيته تهاجمه بسيل من الأسئلة أو سؤال واحد على استحياء، دون أن تحصل على إجابة شافية في كل مرة، وكان التجاهل والصمت هو الجواب الوحيد.

عادت مرة أخرى لشرودها وبهتت ملامحها؛ فلم يكن هذا فقط ما يحيرها، فقد أرهقتها الكثير من الأسئلة الأخرى، كأنها تعيش فقط من أجل الهرب منها، أو مواجهتها في معركة محسومة الناتج سلفًا، منها مثلًا: لمَ هي في هذا البيت بالتحديد؟ ولماذا ليست محاطة بأمها أو أبيها؟ أين هم؟ أليس لها أخوات في مكان ما؟

لم تجد من يشفي حيرتها، وحينًا تفلح فقط في تسكين آلام هذه الأفكار، وعَيش أكبر قدر من الساعات هاربة من سطوتها، وحينًا آخر تقرر المواجهة؛ فتفتش بنهم بداخلها، ولكن تبًا لتلك الذاكرة، إنها لا تقول شيئًا، فتعود للنتيجة المحسومة سلفا في نهاية هذه المباراة التي تُعرض بعنف أمامها لتطفئ أي وميض أمل بداخلها ويكون الاستسلام هو الحل الوحيد.

صوت محرك عربة يقترب من باب منزلها الموصد بإحكام، وصل السائق ووضع الطرد عند الباب، ورحل في صمته المعتاد تحت نظرات سيلينا الصامتة المستسلمة، التي تحاول ملاحظة أي شيء مختلف عن الشهر الماضي؛ ربما تمسك عن طريقه طرف خيط ما، ولا جديد، توقفت عن أية محاولة لسؤاله عن أي شيء، والاحتمالات تدنت حتى انعدمت بأنه سيجيب.

ضحكت سيلينا حين تذكرت أنها لا تعرف لقبها، هي سيلينا فقط، ولأن هذا غير ممكن في الواقع؛ اخترعت اسمًا ثانيًا لها، وكان أمير، إذًا سيلينا أمير، اسم مناسب لا بأس به، خصوصًا أنه يثير مشاعر مريبة لا يمكنها فك ألغازها عند رؤيتها أو سماعها أو تذكرها لهذا الاسم تحديدًا، أخذت سيلينا الطرد تقلّبه بين يديها وتتفحصه بعناية، ولكن لا شيء يلفت الاهتمام به، ألقته على مكتبها باستسلام.

صوت هاتفها يعلو من جديد إشعارًا بوصول رسالة من حسن.

حسن حبيبها، وهو أشبه بصديق، تقابلا عندما كانت في طريق عودتها من الجامعة، كانت تمشي وحيدة والملل بادٍ على محياها، فاستغل حسن هذه الفرصة وعرض عليها أن يوصلها للمنزل، فوافقت على مضض وسارا معًا، وفي هذه الأثناء اعترف لها بإعجابه بها طيلة تلك السنوات، وبالرغم من رفض سيلينا له إلا أنه استمر طويلًا يحاول أن ينال استحسانها، ويقنعها بأنه جدير بالثقة، حتى أخيرًا وافقت على الارتباط به في علاقة

أشبه بلغز، لا هي فتاة حالمة، ولا هو رجل يمكن التنبؤ بمشاعره مما يفعل، كانت معقدة، وتضيء أيضًا نهاية المعركة لتطفئ وميض كل شيء بالكلمة الذهبية (الاستسلام).

فتحت سيلينا الرسالة:

- أحاول الوصول إليك منذ ساعة، أين أنت؟

نقرت على الحروف لتكتب:

- آسفة، كنت مشغولة بعض الشيء.

تحولت الإشارة إلى زرقاء، ثم اتصل بها:

- كيف حالك اليوم؟
- بخير الحمد لله، كيف حالك أنت؟
- بخير، أخبريني كيف كان يومك؟
- كان جيدًا لا بأس به، ولكنني متعبة الآن، سأنام.
- حسنًا، لدي مفاجأة لك غدًا سوف تعجبك.
- ما هي؟
- ألم تخبريني من قبل أنك تحبين رمي السهام وتسديدها وتودين تجربة ذلك؟ لقد سمح لي أبي أخيرًا بأن أتجول في حديقته والتي تبعد عن منزلنا بضع كيلومترات، نستطيع هناك لعبها كما نشاء، سأصحبك لنقضي يومًا ممتعًا معًا، ما قولك؟

شعرت بالحماس وهتفت:

- يا لها من فكرة جيدة! أسعدني ذلك كثيرًا، أوافق بالتأكيد، لنلتقي غدًا.
- حسنًا يسعدني ذلك، تصبحين على خير يا عزيزتي.

أغلقت سيلينا الهاتف وقد ملأها الحماس قليلًا، وبالأخص لتسديد السهام، ثم وضعت رأسها على الوسادة استعدادًا للنوم، فسبحت بأفكارها التي تؤرقها غير ليلة.
إنني لا أشعر بأية حماسة لأني سأرافق حسن بذاته في الحقيقة، بل من أجل تجربة تسديد السهام التي لطالما حلمت بها، وأشعر بالندم لموافقتي على الأمر منذ البداية،

ولكن كيف كنت سأتصرف أمام إلحاحه، يجب أن أرى صديقتي أميرة غدًا، سأحدثها عن الأمر، سئمت التفكير وحدي في كل شيء، نحتاج أحيانًا إلى أحد ما يحمل ثقل أفكارنا عنا؛ حتى نستطيع مواصلة العيش معها بشجاعة كافية.
أميرة، إنها فتاة استثنائية بحق، دائمًا ما تأتي بأفكار لم تخطر على بالي أبدًا، ودائمًا ما تروق لعقلي، ويحبها قلبي، دامت لي صديقتي الوحيدة في هذه الحياة الموحشة.

وكأن هذه الافكار ربتت على قلبها بحنو، فاستسلمت لنوم هانئ.
استيقظت سيلينا على شعاع الشمس النافذ لها عبر النافذة استعدادًا ليوم جديد، كتبت بذهن مرهق وأصابع مرتعشة إلى أميرة على الواتس آب:

- أريدك في الكثير من الأمور، هل أنت متفرغة اليوم؟
- دائمًا يا جميلتي، ماذا حدث؟
- حسنًا لم يحدث الكثير، لقد دعاني حسن اليوم إلى نزهة معه في حديقة والده، لست متحمسة كثيرًا لذلك كنت سأرفض، ولكن هناك جانب من عرضه أغراني، سأمارس رمي السهام للمرة الأولى، تعلمين أني أود تجربة ذلك، فوافقت بالطبع.
- هل يمكنني إخبارك بأمر ما؟
- بالطبع؟
- أنت لم تحبي حسن مطلقًا.
- استنتاجك منطقي، أريد رؤيتك اليوم للحديث باستفاضة.
- حسنًا نذهب بعد ساعة إلى المقهى، وسنتناول الفطور معًا، هيا... سأذهب لأرتدي ملابسي وأستعد للخروج، وعند انتهائي سأتصل بك، كي أمر وآخذك معي.
- أخذتِ سيارة أخيك من جديد؟
- نعم، إنه متسامح فلا بأس.
- حسنًا أسرعي، إلى اللقاء.

هبت سيلينا من مجلسها وكأن الكون أزهر دفعة واحدة، إنها أميرة، هي الشخص الوحيد الذي بإمكانه إعطاؤها حبًا لا حدود له لنفسها وللعالم، كم يقر عين المرء حين يبيت وقد علم أن هناك من يحمل همه في زمن قل فيه المحبين وشاعت فيه المصالح.
نظرت للمرآة وأخذت ترتدي ملابسها، لم تكن سيلينا على قدرٍ عالٍ من الجمال، ولا تحب وضع المساحيق الصاخبة من المكياج، لقد كان وجهها صارخًا بشيءٍ آخر، كان حسن دائمًا ما يقول لها ذلك، وهو محق، ارتدت ثيابها ثم جلست على كرسي مكتبها تنتظر اتصال أميرة، وشردت...
منذ عرفتها حتى الآن، أميرة ما زالت كما هي، بوجهها المرح الذي أحببته، وحده صوتها قادر على أن يخفف عني الكثير، وكأن الحياة اختصرت سعادتي فيها، إنها علاج قلبي الوحيد بلا منازع، آمنت بفضلها أن الشفاء ربما يكون شخصًا فقط، وحيدة جدًا في هذا العالم دونها.

لقد تلخصت كل معاني الصداقة الجميلة في قلبها، وكل معاني الحب في قلبي لها، لم أكن كافية أبدًا في محاولات التعبير عن مشاعري لها، لا أستطيع قول أحبك ببساطة، كانت بالفعل أميرة قصتي، وبطلة كل حكاياتي، إنه صباح جديد أسمع فيه صوتها الذي يغمرني حنانًا، لأجد وكأن ما حولي كله يصرخ بالسعادة.

ابتسمت سيلينا وهي تتذكر عندما قررت الاعتراف لأميرة بحقيقتها، تضاربت مشاعر كثيرة بداخلها حينها، قلقًا من ردة فعلها ومن خسارتها في آن واحد، ولكنها تحلت بالشجاعة أخيرًا، وقررت إخبارها في ذلك اليوم بعد ترتيب كثير للأحاديث في رأسها.

ذهبت برفقة أميرة على الشاطئ، أخبرتها بحقيقتها، وأنها ليست سيلينا أمير، إنها سيلينا... ولا تعرف غير ذلك، ورغم صخب المشاعر التي تعترينا عندما نتحدث مع شخص ما عن حقيقة مشاعرنا وما نخفيه وكأننا نتعرى أمامه، هدأت هذه المشاعر في قلب سيلينا، التي كانت طوال حديثها تصور لها مخيلتها أسوأ ردود الأفعال من صديقتها.

ولكن لم تغير أميرة موقفها منها أبدًا منذ ذلك الوقت، كأنها تخبرها عن طقس اليوم، لم تنفعل أميرة أو تكذّبها البتة، صدقتها فورًا، وعوضًا عن ذلك أدلت برأيها بعد دقائق من

التفكير، واستقرت أخيرًا لأن تبحث عن أمير لأنه الجزء الوحيد من ماضيها المفقود الذي تذكره، وربما هو طرف الخيط الصحيح الذي يجب التمسك به.

ولكن أين من المفترض أن تعثر عليه؟ هل هو قريب منها بالفعل؟ هل في جامعتها مثلًا؟ أم هو اسم وهمي وحسب لا وجود له في الحقيقة؟

قاطع أفكارها رنين الهاتف، وكانت أميرة هي المتصلة:

- انتهيت من ارتداء ملابسي، وها أنا ذا أقود السيارة، اقتربت من منزلك، استعدي.
- حسنًا أنتظرك.

وبعد دقيقتين سمعت صوت سيارة صديقتها، فنزلت فوجدتها واقفة تنتظرها، اتجهت إليها واحتضنتها بشوقٍ جلي، وقالت بمرح:

- اشتقت إليك، إنها من مصائب الحياة ألا ترين سيلينا كل يوم.

ضحكت سيلينا وقبلتها بحب، واتجهت الفتاتان إلى العربة، لم تتعلم سيلينا القيادة قط، تعلمت القليل من صديقتها أميرة، ولكنها لم تجد فائدة من تعلمها الآن حتى تنهي دراستها، فهي تعتمد على وسائل النقل العام، وجامعتها لا تبعد الكثير عنها، وتنتظر حتى تبدأ في العمل بمقابل جيد تستطيع حفظ القليل منه كل شهر؛ كي تشتري سيارة بنفسجية اللون صغيرة تخصها.

قاطعت أميرة الصمت:

- إذا ماذا ستفعلين اليوم؟ هل ستذهبين مع حسن؟
- أخبرته بموافقتي له البارحة، ولكني لا أود الذهاب، وسيحزن إن عدلت عن قراري الآن.
- حسنًا لمَ لا تخبريه بالحقيقة؟
- أية حقيقة؟
- إنه لا يعرف شيئًا عنك، كما أنه طلب منك أن يرى والدك كثيرًا، ولكنك ترفضين معللة ذلك بأنه يعمل خارج البلاد، ألا تنوين مصارحته؟

- الأمر معقد، لن يستمر معي يومًا واحدًا إذا علم أني بلا نسب حقيقي، ولن يصدق أنني بالفعل قد نسيت كل ذكرياتي الماضية، أو أنه سيهرع إلى مستشفيات أمراض (الزهايمر) ليأخذني إلى هناك باعتباري مريضة.

ولكني سبقته في الاعتقاد بذلك، فقد قرأت الكثير عن أعراض هذا المرض، ولكني لم ألاحظها في نفسي، تواصلت مع معالجين على الانترنت، وحرصت أن أنقل لهم كل شيء بصدق وعدم تخطي أي تفصيلة مهما بدت غير مهمة، فأكدوا لي أنها حادثة في الماضي تسببت في ذلك، وأنني لست مصابة بأية أمراض.

ذهبت أيضًا لطبيب المخ الذي أكد لي أن خلايا دماغي لا عطب واضح له فيها، ركنت بعدها إلى استبصاري الذاتي، فمثلًا أنا أتذكر ما حدث اليوم في الصباح عندما استيقظت وتحدثت معك، وأيضًا أتذكر تفاصيل محادثتي مع حسن أمس، بينما المريض به لا يستطيع تذكر ذلك.

كما أن الحالات المتقدمة منه تعطل باقي الأجهزة، ويؤدي لهلاك الإنسان على المدى البعيد، وإن كان له نسبة ضئيلة، مثلًا في خلايا مخي لماذا أتذكر أول لقاء لي بك؟ حرى بي أن أصدقهم بعد ذلك، هناك ما حدث قبل ٣ سنوات عند دخولي لهاته الجامعة هو السبب في ذلك، منذ تخرجي من الثانوية أو قبل ذلك، الأمر معقد، لا أستطيع حتى تحديد زمن الحادثة.

- حسنًا أنت على حق، ولكن إن أخبرتِه بما أخبرتني الآن ألن يصدقك؟
- لا أظن ذلك.
- إذا ببساطة أنت لم تحبيه يومًا يا سيلينا، ولم يحبك هو أيضًا بدوره.
- وما علاقة ذلك بما أقوله؟
- الحب مقترن بالتصديق، حتى لو اضطر لسماع قصة من ألف ليلة وليلة منك، عليه أن يحترم أنك تصدقيها، وإن لم تكن مستحيلة (مخالفة لمسلمات العقل) فهي قابلة للتصديق في نظر المحب.
- حسنًا هذا لا يحدث في الواقع، بل في قصص ألف ليلة وليلة بالفعل، ولو أنا كنت مكانه وأخبرني بذلك سأطعن في مصداقيته بلا شك.

- بل يحدث في الواقع، إن وراء علاقتكم مغزى مختلف غير العلاقة ذاتها، لا أعلم مغزاه هو وراء ذلك، ولكني أرى أن مغزاك هو محاولة استعادة شعورك الذي كنت تشعرين به مع أمير ربما، وتعتقدين أنه سيكون هذا هو طرف الخيط للوصول إليه؛ أن تحاولي أن تصلي لمشاعرك حينها.
- أشعر أنه بالفعل كذلك، أشعر أنني كنت أحب أمير.
- ورغم ذلك فشلتِ.

أجابتها بيأس:

- نعم فشلت.
- وهل كنت تظنين أنك ستنجحين أصلًا؟ مشاعرك تجاه أمير أيًا كان نوعها هي موجودة بداخلك، ولا داعي لمحاولة إحيائها لأنك ستفشلين مهما فعلت؛ لأن كل إنسان يحتل في حياتنا جزءًا خاصًا به، كبيرًا أو صغيرًا، مهمًا أو غير مهم، ولأن الأشخاص لا يتشابهون في تأثيرهم علينا؛ فلكل شخص ما يميزه عن غيره بالتأكيد، فمن الصعب أن نشعر بالمشاعر ذاتها تجاه شخصين أو أكثر، كل شخص يترك في قلوبنا أو عقولنا بصمة فريدة خاصة به لا ترحل عنا أبدًا، ولا يستطيع أحد التحكم بها سوانا نحن فقط، والآن نحن نريد أمير بذاته، تلك المشاعر لن تجديها إلا عنده.

قالت سيلينا بحزن:

- وكيف نفعل ذلك؟

هتفت أميرة بعد أن أدركت أنها ضلت الطريق:

- عندما نصل لوجهتنا سنكمل حديثنا.

أومأت سيلينا برأسها موافقة، ثم شردت بعيدًا وهي تنظر عبر زجاج النافذة وابتسمت بسخرية، أيبحث أناس عن ذكرياتهم كي يجدوا أنفسهم المفقودة، بينما يحاول التخلص منها أناس آخرون هاربون من آلامها؟! أهذه هي لعبة التناقض في الحياة أم أنها اختلاف وجهات نظر فحسب؟

ولكني على استعداد لمواجهة الآلام التي تحملها، فعلى أية حال لا يوجد ما يدل على أنها كانت جميلة سوى أمير، أو ربما هو الشيء الوحيد الذي كان جميلًا، ربما لذلك هو المتبقي من ذكرياتي، يهرب الانسان بفطرته من الألم، ويحاول المخ العمل في اتجاه تقليله دومًا كرد فعلٍ على هجوم الألم له، ويبدو أن الأمر قد تطور حتى حذف عقلي الذكريات المريرة كليةً، لا يبدو أن هناك مجال حتى للتفاؤل بالخير، ضحكت سيلينا فجأة من أفكارها تحت نظرات أميرة المتفحصة والغاضبة، ثم صرخت أميرة بنفاذ صبر:

- أوقفت السيارة منذ ساعة وأناديك ولم تستجيبي، أين ذهب عقلك؟

نظرت سيلينا وكأنها تراها للمرة الأولى:

- ولكني لم أسمعك.
- وما الذي يشغلك؟

نظرت سيلينا بشرود وقالت:

- لا شيء.

حملقت أميرة بها قليلًا وآثرت الصمت.

دخلا إلى المقهى، اعتاد النادل على رؤيتهم، فتعرف عليهم بسهولة ورحب بهم قائلًا:

- تفضلا أنرتما المكان.

ابتسما له ثم جلسا على طاولتهم المعتادة المطلة على البحر، لقد كان هذا مكان سيلينا المفضل، وبالطبع أميرة أيضًا.

بادرهم النادل قائلًا:

- تفضلا، ماذا تشربان؟
- أريد عصير فراولة بارد.
- كوبًا من عصير التوت.

كتب النادل ما سمعه وذهب، ثم وجهت سيلينا نظراتها لأميرة مباشرة وقالت:

- منذ زمن أود سؤالك عن شيء يحيرني.

نظرت أميرة باستغراب:

- تفضلي يا سيلينا، ما الأمر؟

قاطع الحديث صوت رنين هاتف سيلينا.

- إنه حسن، يا إلهي ليس وقته.

نظرت أميرة للبحر ثم أشارت للهاتف قائلة:

- تحدثي معه.

استجابت سيلينا لرأيها ورفعت الهاتف:

- ما بالك يا سيلينا؟ لم تحدثيني منذ الصباح، أحدث شيء ما؟ ولم ترسلي رسالة أيضًا عند استيقاظك.
- لا يوجد شيء، لقد حدثتني أميرة في الصباح وقالت إنها تود أن تحدثني عن أمر مهم، فأسرعت إليها ونسيت إخبارك بذلك، والآن أجلس معها وقطعت حديثها من أجلك.
- حسنًا إذًا لا تتأخري؛ لأنه في حلول ساعتين سآتي لأصطحابك إلى النزهة يا عزيزتي، إلى اللقاء.
- إلى اللقاء.

نظرت أميرة لها وقالت وشبح ابتسامة سخرية يلوح على وجهها:

- ولكن ما شأني أنا، من الذي طلب القدوم إلى هنا؟

قالت سيلينا بنفاذ صبر:

- أميرة، لا عقل لدي لينشغل بك أيضًا.

قالت أميرة ضاحكة:

- حسنًا هيا أخبريني ما تودين سؤالي عنه.

نظرت سيلينا وكان على وجهها علامات حيرة ظاهرة:

- أميرة كيف تعرفين كل هذا وتفكرين بتلك الطريقة؟ هل تستطيعين مساعدتي على الوصول لطريقة تفكير سليمة؟

ابتسمت أميرة وهتفت بحماس:

- الأمر بسيط، عليك دائمًا الانفصال عن المواقف الصعبة التي توضعين فيها، وتبدئين بالنظر للأمور من أعلى وكأنك لست صاحبة المشكلة، وتبدئين بتحليلها واستنتاج أفضل الحلول.

قالت سيلينا:

- أتقصدين النظر للمرآة وهي تتحدث باسمي وكأنها شخص آخر، ومحاولة حل مشكلته؟
- بالضبط، ولأنني لا أواجه مشاكلك؛ أستطيع التفكير بها بطريقة سليمة، إن المشاعر تفسد صحة تفكيرنا، ولكن ليس عليك تجاهلها أيضًا، عليك أخذ نفس عميق بدلًا من الانفعال والبكاء، واعتبار أنك على بُعد أمتار من الحدث، والتفكير في حل جذري للمشكلة.

تنهدت سيلينا ثم نظرت باتجاه البحر:

- إذا فلنتخيل أنني أقابل فتاة تصارع الحياة بحثًا عن نفسها.

ردت أميرة بسرعة:

- ما الفائدة من محاولتك استعادة ذكرياتك يا سيلينا؟ أليس من الممكن بالنسبة لك أن يكون الأمر غير مهم أصلًا وعليك التفكير في اللحظة الراهنة فقط؟ ربما هناك الكثير من الألغاز حولك عليك حلها بدلًا من حل ألغاز الماضي.

نظرت لها سيلينا بحيرة:

- مثل ماذا؟
- مثل علاقتك بحسن، ألم تفكري أن تأخذي قرارًا جادًا في إنهاء هذه المهزلة، لم أرَ في حياتي علاقة حب كهذه.

تنهدت سيلينا بعمق:

- كم أتمنى فعل ذلك حقًا.

- سأساعدك على فعلها، ولكن عليك أن تجعلي لقائك معه هذه المرة يمر دون مشكلات، تظاهري بأنك تحبينه وحسب، ولكن لم يجلس معك حسن قط من قبل على انفراد لوقت طويل، فأخشى أن يشك في أمر ماضيك وحياتك، فكوني على حذر، فكما يقول المثل: "تحدث حتى أراك".
- أتقصدين أن ألتزم الصمت؟
- أتمنى ذلك حتى تنتهي من هذا، هيا الآن، سنخرج لتستعدي للذهاب، سأشتري لك بعض مساحيق التجميل، ما رأيك في تجربتها؟

بهت وجه سيلينا وقالت:

- لا أود ذلك، لقد اعتدت على التصرف بطبيعتي وليس بوجه وُضع عليه بعض الألوان!
- ماذا تنوين أن تفعلي إذًا يا ملكتي.
- لا شيء، سأخرج من هنا معه!

تنهدت أميرة بعمق ثم قالت:

- حسنًا، متى سيأتي فارس الأحلام ليأخذك؟
- ليأتي حين يأتي لنستمتع بالوقت.

ثم جاء النادل يحمل الطلب، فنظرت له سيلينا قائلة:

- اووه... كدنا ننسى الطلب، لمَ كل هذا التأخير؟
- نعتذر يا آنسة، فتح المقهى منذ وقت قصير ولم نجد الوقت الكافي لشراء الأغراض من السوق، فبدأنا بشرائها الآن، وها هي ورقة الحساب، أتمنى لكما يومًا سعيدًا.

ابتسمت سيلينا بلطف:

- شكرًا لك.

فابتسم لها ثم ذهب.

نظرت سيلينا لأميرة وقالت:

- إن الحياة المعقدة هي من صنعنا، بينما الحياة البسيطة فهي صناعة إلهية، لا أجد مشاكل صحية تصيب نادل مطعم بسيط مثل ما تصيب المشاكل الصحية والنفسية الرجل الغني في قصره.

ابتسمت أميرة وأومأت برأسها موافقة، ثم شردت وهي تشرب عصيرها، وساد الصمت للحظات.

وبعد دقائق قطع الصمت اتصال حسن، نظرت سيلينا للهاتف ثم لأميرة وهتفت:

- لقد حان الوقت.

أجابتها بلا مبالاة:

- حسنًا أتمنى لك التوفيق، كوني مهذبة ولا تحدثي مشكلات.

ردت سيلينا على اتصاله:

- أهلًا حسن، أنا جاهزة، تستطيع أن تأتي عند العنوان الذي سأرسله إليك.
- بكل سرور يا جميلة.

ابتسمت سيلينا في لطف، وأغلقت الهاتف ونظرت لأميرة وقالت:

- حسنًا ما هي خطتك اليوم؟؟
- لا شيء، سأقرأ بعض الكتب وأجلس هنا قليلًا، اذهبي أنت واستمتعي بوقتك.

ابتسمت سيلينا:

- حسنًا سأتواصل معك، وسننهي هذا سريعًا كما وعدتني.
- لا تقلقي سنفعلها سويًا.

ثم جاءت سيارة حسن فنهضت سيلينا فورًا، واحتضنتها أميرة قائلة:

- أتمنى لك يومًا موفقًا، تواصلي معي وأخبريني بأهم الأحداث.

فنظرت سيلينا لها بأسى وقالت:

- هل يجب عليّ الذهاب؟

كادت أميرة تتحدث، ولكن ترجل حسن من السيارة واقترب منهم، ثم مد يده لها:

- هيا تفضلي يا عزيزتي، وأهلًا بك يا أميرة.

ابتسمت أميرة وقالت:

- أهلًا بك.

اعتذرت سيلينا عن مسك يده ونزلت بمفردها، واتجهت ناحية السيارة بصمت وسار هو خلفها.

قال حسن:

- هل ستبدئين الرحلة هكذا؟

نظرت سيلينا له بعدم فهم:

- ماذا تقصد؟

- أشعر أنك منزعجة، هل هناك ما يشغلك؟

ابتسمت له سيلينا بلطف وقالت:

- لا، لا شيء.

ثم همست في نفسها:

- يجب أن يمر هذا اليوم على خير، سأحاول التصرف كما لو أنني أحبه.

ثم قالت:

- كيف كان عملك اليوم؟

- استأذنت المدير لآخذ إجازة من أجلك.

أومأت سيلينا برأسها وابتسمت في لطف:

- ممتنة لذلك.

ابتسم ولم يعلق.

ثم ساد الصمت للحظات عندما توقفت السيارة أمام سور كبير يغطيه الأشجار الكثيفة خلفه، والورود الجميلة التي تغطي المكان، والظاهرة عيانًا للرائي بألوانها المبهجة مع انعكاس أشعة الشمس عليها.

أعجبت سيلينا بما رأته كثيرًا، فتح لها حسن الباب ونزلت من السيارة، مد يده لها من جديد واعتذرت مرة أخرى، ثم قبض على يده بغضب، ولكنه كبت مشاعره، وهي لم تكترث، وهو لم يعلق.

دخلا معًا الحديقة، كانت مقسومة لنصفين وسطهما طريق ضيق يفصلهما عن بعضهما، نصف منها كان يحتوي على بحيرة صغيرة، والجزء الآخر يكسوه الورود من كل الجهات، كما أن الحديقة كلها محاطة بشجر من الموز والعنب والتفاح والبرتقال، فلمعت عينا سيلينا من جمال ما رأت، ثم سألت حسن فورًا:

- من يهتم بزراعة هذه الحديقة؟ تبدو جميلة جدًا.

رد حسن وكأنه يتوقع السؤال:

- لقد استأجر أبي فلاحًا يعمل فيها.

ابتسمت سيلينا وقالت في نفسها:

- يبدو أن أباه لطيف، ولكن لسوء الحظ لم يكن لابنه حظ في أن يصبح مثله.

استطرد حسن:

- أبي يعشق الطبيعة، فاهتم في الأيام الأخيرة بزراعة هذه الحديقة وجعلها بهذا الجمال؛ كي يأتي لها في كل وقت يشعر فيه بالضيق، أو يقضي وقت فراغه فيها ليرتاح قليلًا من أعباء العمل والمرض الذي أثقله، وفي رأيي اختار المكان المناسب.

كان يخبرها بذلك وهما يمشيان في هدوء، ونسيم لطيف يملأ الأفق، شعرت سيلينا وكأنها تتنفس الهواء لأول مرة في حياتها، ثم أشار حسن إلى كرسيين متقابلين وضعا في طرف النصف الأيسر من الحديقة، بينهما طاولة وُضع عليها باقة من الزهور الجميلة، وُضعت على العشب الأخضر الذي يغطي الأرض بوسعها، وابتسم لها بلطف قائلًا:

- ما رأيك في الجلوس؟ لقد اخترت هذا اليوم لأحدثك في أمر ما أظن أنه يهمك، وقد جهزت السهام للرمي الذي وعدتك به، ولدي مفاجأة أخرى لك.

أومأت سيلينا برأسها موافقة، وبادلته بنفس الابتسامة، فجلس كلاهما متقابلين في هدوء، ثم مد حسن يده لتقترب من يدها:

- ألن تسمحي لي بمسك يدك هذه المرة؟

ردت سيلينا بحزم:

- آسفة، لا هذه المرة ولا غيرها من المرات، هل تستطيع أن تخبرني ما تود قوله، فليس لدي الكثير من الوقت، فقد طلبت مني أمي العودة مبكرًا كي أساعدها في بعض أعمال المنزل.

بهت وجه حسن من ردها الجاف، ونظر باستخفاف وقال:

- هل تعلم أمك أنك معي؟

ارتبكت سيلينا قليلًا ثم قالت في هدوء:

- نعم بالطبع، أخبرتها عن الأمر.

نظر حسن لها باستغراب ثم قال:

- ولكن يبدو أنك من عائلة محافظة، كيف سمحت لك بذلك؟

بهت وجه سيلينا، كيف لاحظ أني من عائلة محافظة؟ من أين له أن يعرف؟ هل عائلتي حقًا محافظة؟ من هي أمي التي أتحدث عنها أصلًا في هذه الجلسة الغريبة؟ وحديثي عنها بكل ثقة هو الأكثر غرابة، حسنًا اهدئي يا سيلينا يجب أن تكوني أكثر ثباتًا من ذلك، ماذا لو شك في أمرك بسبب تصرفاتك التافهة هاته، ثم نظرت له وقالت في حزم:

- أشكال الناس لا تعبر عن عائلتهم، عليك أن تحفظ هذا، إنها تعبر عنهم هم فقط.

بدا الاستغراب على وجهه، وابتسم بسمة ذات مغزى وقال:

- حسنًا سأعجل أمر ما أود إخبارك به، هو أنني في نهاية العام الدراسي القادم سوف آتي لخطبتك -ثم غمز بعينه- ربما تقبلينني حينها أكثر وتسمحين لي بأن أمسك يدك، ولكن قبل ذلك أود أن أطلب منك طلبًا يا سيلينا وأتمنى ألا ترفضيه.

عضت سيلينا على شفتها بحركة لا واعية منها وقالت في نفسها:

- هل يخطط أن يتزوجني وأنا أخطط في مصارحته برغبتي في الرحيل؟ كانت غلطتك منذ البداية يا سيلينا أن قبلتي الارتباط به.

احمرت وجنتاها وترددت كلمات حسن في أذنها مرة أخرى، فابتسمت على استحياء وطردت تلك الأفكار من رأسها، وقررت التركيز على لحظتها الراهنة فقط.

نظر حسن لها باهتمام:

- ما بك؟
- لا، لا شيء بالتأكيد، تفضل... طلباتك أوامر.

نظر لها نظرة ذات مغزى لم تفهمه ثم قال:

- أريد أن أتواصل مع أبيك عبر الهاتف،أخبرتني أنه يعمل خارج البلاد فلا بأس إن تواصل معي عبر الهاتف، ولأن أمك لا تمانع أن تكوني على علاقة معي فأظن أن أباك أيضًا كذلك، هيا ما قولك؟

سرت قشعريرة في جسد سيلينا، قُضي عليك يا سيلينا! ماذا أفعل؟ ماذا أقول هذه المرة؟ أين أنت يا أميرة لتخليصي من ذلك؟! ولكني اتفقت معها على عدم البوح بشيء، أهذا ما كانت تخشى عليّ منه؟ يجب أن أكون أكثر ثباتًا، ثم نظرت سيلينا إلى عينه مباشرة وقالت:

- حسنًا، ولكني لا أضمن رد أبي، يجب أن أخبره أولًا عنك ثم أبلغك عن رده.

تأفف حسن في صمت ثم قال:

- حسنًا ولكن لا تتأخري، وعديني أنك ستخبرينه فور عودتك للمنزل.

قررت سيلينا أن تخرج من هذا الموقف برمته في أسرع وقت فقالت:

- حسنًا أعدك.

ثم نهضت من مقعدها بحركة مفاجئة وقالت:

- إذًا هيا يا حسن لنذهب، أشعر بالحماس لرمي السهام.

نظر حسن وقد فاجأه ذلك، ثم قال:

- هيا بنا.

وسارا حتى وصلا إلى أرض واسعة من العشب الأخضر القصير، وفوقها طاولة وضع عليها القوس والسهم بجانبه، وخشبة أمام الطاولة مباشرة بمسافة ليست طويلة ولا قصيرة، رُسم عليها دوائر متداخلة، ثم هتف حسن:

- هيا هذا دورك، أتحداك أن تقذفيه في المنتصف تمامًا داخل هذه الدوائر.

فنظرت سيلينا له بحزم ورفعت رأسها قائلة:

- وأنا أستطيع فعلها.

ثم مدت يدها لتلتقط السهم.

- ولكن ليس بهذا.

نظرت له مستفسرة:

- إذًا بماذا؟

ثم أخرج من جيب بنطاله مسدس صغير وقال:

- بل بهذا!

سرت رجفة من الخوف في جسد سيلينا، ثم قالت وهي تشعر أن شيئًا ما يخرج عن السيطرة:

- لكن ما الفرق؟ المهم هو التصويب.

اقترب حسن منها بحركة سريعة غير متوقعة ثم قال:

- بل هذا أصعب في التصويب، أريدك أن تبهريني الآن، هيا اخترقي منتصف الدوائر بطلقة نارية بدلًا من السهم.

شعرت سيلينا بالخوف وقررت الانسحاب، ولكن ماذا ستقول له؟ حسنًا يجب عليها أن تواجه الأمر.

ضحك حسن فجأة باستخفاف كأنه قرأ أفكارها وقال:

- أيخيفك السلاح؟ حسنًا من يستطيع رمي السهام يستطيع فعلها أيضًا، كل شيء متاح هنا.

شعرت سيلينا بالخوف يسري في جسدها؛ فنبرة صوته مقلقة كأنه سفاح قديم، أو متحرٍ أمسك بالمجرم متلبسًا في موقع الجريمة تمامًا، ولكنها عزمت أن تصبح أكثر قوة أمامه كما اعتادت أن تكون، فالتقطت المسدس منه بحركة سريعة، وصوبته ناحية الهدف مباشرة وهي تنظر بثقة.

- إذًا تثبتين أنك جريئة.

- لا أحاول إثبات شيء لك، أنا أستمتع بوقتي فحسب.

ضحك بسخرية وقال:

- ولكن ارتجاف يدك يقول شيء آخر.
- حسنًا إنها المرة الأولى دعني أركز.

فالتزم الصمت وراقب حركاتها، وشرد قائلًا في نفسه:

- تستطيعين فعلها بسهولة، لقد كنت تصرخين بذكائك في كل شيء، حتى أنني أخشى منك أحيانًا، وجهك يصرخ بالذكاء والتفرد، لا أعلم كيف يستطيع النساء الجمع بين العاطفة وقدر هائل من الذكاء، إنني أرفع القبعة تلقائيًا لخلق كهذا، حتى إنني لا أريد رؤية والدك بدافع طلب يدك فقط، لدي فضول غريزي لأعرف الأصل الذي جئت منه، ولكن رغم ذلك لا يأتي قدرنا متناسبًا مع ذكاءنا دومًا لنتعامل معه بحرفية، إننا في معركة حقيقية سلاحها المفاجآت، ومهما امتلكنا من عتاد وقوة نبقى ضعفاء.

وأثناء شروده صوبت سيلينا الطلقة في المنتصف تمامًا، فانتبه لها وصفق بيده مباشرة تصفيقًا حارًا وهو يتقدم نحوها وقال:

- أحسنتِ، إنه دوري.

فأخذه منها بخفة، وبدأ بالتركيز والنظر بدقة، وسددها ولكن ليست بنفس دقتها، فالتفت لها:

- يبدو أنك ستدربينني بعد أن كنت أظن أنه سيحدث العكس.

نظرت له سيلينا نظرة باهتة ولم تعلّق، لقد شعرت بشعور لا تفهمه بعد سماعها لصوت الطلقة، ولكنه سيء في كل الأحوال.

لاحظ حسن شرودها وقال:

- سيلينا، أين ذهبت؟
- ليس إلى أي مكان، أستمع لك فقط، وشكرًا على إطراءك، ما هي باقي خططك؟

بدا وكأنها تريد إنهاء الأمر سريعًا.

- تستطيعين الآن رمي السهم بدلًا من الطلق الناري.
- لا أريد.

نظر لها حسن بحزم وقال:

- لماذا تعاملينني بتلك الطريقة؟! هل أنا ثقيل على قلبك لهذه الدرجة؟ ما بك يا سيلينا؟ هل هناك مشكلة بي؟

نظرت له سيلينا بجمود ثم قالت:

- أشعر بالدوار فقط.

مثلت سيلينا الدور باحترافية هذه المرة، فوضعت يدها على رأسها كما لو أنها ستسقط، لقد اعتادت تمثيله عندما تملّ من محاضرة الرياضيات كي تخرج منها بلا عودة بحجة الدوار الذي تشعر به.

فهرع إليها حسن واقترب منها، فوضعت يدها أمامه وأوقفته.

- لا داعي لاقترابك أنا بخير.

قال بقلق:

- حسنًا دعينا نجلس ربما تتحسنين.

وسار تجاه الطاولة، فمشت خلفه في هدوء حتى وصلا، لا تعلم بالضبط ما الذي أصابها، شيء ما غير طبيعي يحدث هنا، الأمر لا يبدو كلقاء محبين بأي شكل من الأشكال، إنه أبعد ما يكون حتى عن لقاء لطيف لشخصين تعرفا للتو.

جلست سيلينا وفكرت في خطة لتخلص نفسها من هذا الكابوس، وبعد جلوسهم أخذ حسن يتأملها بصمت، وفجأة ضغطت سيلينا على الزر فسمع صوت هاتف يرن، فنظرت له سيلينا قائلة:

- أرجو المعذرة أمي تتصل.

ثم ابتعدت قليلًا وتظاهرت كأنها تتحدث مع شخص ما، ثم عادت مسرعة وكأن خطبًا ما حدث.

- حسن أنا آسفة، أمي مريضة وطلبت مني القدوم، لا أستطيع التأخر عنها، لا يوجد أحد في المنزل معها.
- حسنًا يا جميلتي، اهدئي سآخذك لها.
- لا... لا داعي لذلك، سأذهب بمفردي.

ثم مشت بسرعة دون أن تنتظر منه ردًا، فلحقها حسن قائلًا:

- انتظري يا سيلينا، لا يجوز ذلك.

فخرجت من باب الحديقة مسرعة وتوقفت لترى سيارة أجرة تنقلها، ومن خلفها حسن:

- سيلينا، السيارة هنا وأنت تبحثين عن سيارة أجرة؟ تعالي هيا.

فنظرت له ببرود:

- تستطيع الذهاب، ولن أركب معك، أريد أن أنهي هذا اللقاء بلطف دون حدوث مشكلات لا داعي لها، بالرغم من أنه لا يوجد ما يدل على اللطف هنا.

ورمته بنظرة استهزاء وكره، ولم تنتظر جوابه، حيث توقفت سيارة الأجرة فركبتها على عجل، ولوحت بيدها له مودّعة تحت اندهاشه وحسرته على كل تخطيطاته التي ضاعت سدًا، فضرب براحة كفه على رأسه والتفت إلى العربة بغضب.

- ولكنك أنت الغبي يا حسن، لم تخبرها بالمخطط كاملًا، ظننت أنها من ستخطط بعد ذلك، هؤلاء النساء تبًا لهم، لا يفهمهن أحد حقًا، قبل قليل كانت تضحك وتجلس في هدوء ملائكي يجذبني لها دائمًا، ثم فجأة تلتفت وتترك خلفها الكثير من الأسئلة.

  حسنًا... ولكني سأكون أذكى منها، لا أشعر بالراحة تجاه بعض الأمور في حياتها، ويجب أن أتحقق منها، ستندم على العبث معي، أجل... ستندمين حياتك كلها.

ثم توجه مباشرة ناحية سيارته، وأمسك بالباب وكاد أن يقتلعه من مكانه، ثم أغلقه بقوة أكبر، وانطلق بسيارته بأقصى سرعة في الطريق السريع وهو يستمع لأغنيته المفضلة مشعلًا سيجارة، وهو يبتسم ويقول في نفسه:

- كيف يتخلى الرجال عن هذا من أجل النساء، تبًا لهن جميعًا، كيف يتجمع الذكاء مع العاطفة المفرطة؟ كيف لهن أن يجمعن المتناقضات بهذا الشكل

المقزز، وكيف لنا نحن أن نحبهن بهذا الشكل الأكثر تقززًا وكأننا نعبدهن عبادة، إنهن يحتللن منطقتنا الشخصية ويقبضن على كل ما بداخلنا بابتسامة جذابة أو كلمة حانية.

ثم صرخ بأعلى صوته وهو يضرب الكرسي:

- من هن كي يستطعن فعل ذلك؟؟ إنهن حثالة!

وصوت تشنجات بكائه تعلو، وهو يستنشق دخان سيجارته بعنف.

على الطرف الآخر سيلينا تجلس في السيارة، تفكر في صديقتها أميرة، فأخرجت الهاتف ثم اتصلت بها، فأتاها صوتها على الطرف الآخر:

- أهلًا بحمامات الحب.

ضحكت سيلينا قائلة:

- ماتت تلك الحمامات منذ زمن، هربت منه، وما خشيتي منه كاد أن يحدث، ولكني أشعر أنه شك في بعض المعلومات التي أخبرته بها، شعرت أنني في غرفة تحقيق وهو يسأل عن عائلتي لأنه ينوي الإتيان لخطبتي في نهاية السنة الدراسية القادمة.
- ونحن قد اتفقنا قبل قدوم نهاية السنة الدراسة، ويستحسن قبل بدايتها أن تنهي هذه المهزلة.
- بالطبع، لم أعد أطيق الوضع هكذا، هذه الساعات التي مرت معه أشعر أنها كانت جبلًا على قلبي.
- أتفهم ذلك، سننتهي منه.

تنهدت سيلينا ثم قالت:

- لقد قلت له ذلك، وأجدت تمثيل دور الخائفة على أم ليس لها وجود، وقد ساعدني هاتفي أيضًا على ذلك.

أطرقت أميرة في أسى ولم تعلق، ثم قالت:

- سأحادثك ليلًا، لا تنامي قبل أن تخبريني بما حدث، لدي عمل الآن.

- حسنًا سأفعل.

وصلت سيلينا للمنزل، ثم فتحت الباب وتحررت من ثيابها، ثم جلست على أريكتها لتستريح قليلًا، وكعادتها أمسكت قلمها لتكتب ما يخطر ببالها، لقد كان القلم هو صديقها الحقيقي، كما أنها تشعر بالامتنان للورقة التي تعطيها الحرية لكتابة كل شيء في عالمها الذي تحكمه وتلقي الأوامر فيه، ودائمًا ما تقول أن الحياة قد تضيق بالفرد، ولكن الورقة لا تضيق أبدًا لاستقبال همومه، إنها كالبحر، والقلم مثل موجه.

ثم أمسكت بالقلم، وتركت نفسها وسط كلماتها مبتسمة وكأنها تجلس على شاطئ البحر، خالية من الهموم، منتعشة بالهواء الصافي، وبدأت في خط أول كلماتها... "الوطن".

حدقت سيلينا بما كتبت طويلًا ثم قالت:

- لقد أتى الوقت الذي يجب عليك مواجهة ذلك، لطالما سمعتِ هذه الكلمة، ولكنك تجهلين معنى الشعور الذي يصيب الأفراد حولك عند ذكر هذه الكلمة، وكعادتك ذهبتي لصديقتك المفضلة لتسأليها عن ذلك، فأجابتك أن هذه الكلمة مرتبطة بشعور الانتماء داخل الإنسان، وهذا الشعور جميعنا نحتاج إليه مهما اختلفنا.

ثم خطت الكلمة التالية... "أمير"، أطالت النظر للكلمة الماثلة أمامها وهي تقول:

- أتريدين الآن الكتابة لشخص مجهول تؤمنين بوجوده؟ ولكنك لا تستطيعين الجزم بذلك في قوانين الاحتمالات، ربما هو موجود أو لا.

ولكنها قررت أن تكمل رغم ذلك، فاسترسلت بالكتابة بيأس:

"أمير، من أنت؟ هل أنت حقًا شخص مجهول؟ أم أنك شخص من ابتكار خيالي فقط؟ ولكن هل نسى خيالي أن يبتكر لك شكلًا؟ هذا عجيب! هل أنت أخي؟ هل تفرقنا إذًا يا أخي؟ هل في حادث ما؟ وانتهت القصة المأساوية بكوني في هذا المنزل الذي لا يُطلب مني إيجاره كل شهر؟! ولا أعرف لمن ينتمي، أتراه ينتمي لك؟ وأنك صاحب الظرف الشهري الذي يرسل لي؟ أنت أخي الحنون أليس كذلك؟ ولكن لمَ تتركني هنا إن كنت ما زلت حيًا؟

ربما أنت لست أخي، ربما أنت لا شيء وحسب، ولكن لمَ يزور اسمك تفكيري دائمًا؟ لماذا خططت اسمك على هاته الورقة فجأة بعد أن كنت أتوقع الكتابة عن أمر آخر، لقد علمت أن للقلب ذاكرة أقوى من ذاكرة العقل، وقد تأكدت من هذا الآن، فقد أستطيع حفظ كتابًا من الفيزياء وأظل مدركة الكثير منه، ولكني سأنساه حتمًا بعد مرور شهور قليلة إن لم أكن قد قرأته سوى مرة واحدة، ولم أقم بترجمة المعلومات به إلى سلوك، ولكني لم أستطع نسيان لقائي الأول بأميرة منذ تلك السنوات، كأنه واضح أمامي وأراه الآن بوضوح، هل أحكي لك تفاصيل ذلك اليوم؟ حسنًا سأخبرك به...".

*****

بعد أن هدأ قليلًا داهمته رغبة ملحة في أن يتحدث معها، فرمى الهاتف بعيدًا وصرخ بقوة وكأن الأرض اهتزت إثر تلك الصرخة:

- تبًا لك أيتها الغبية، لا تقدرين حبي لك.

ثم أخذ يستنشق سيجارة أخرى معلنًا تمرده على سياسة الحب والنساء، ثم هدأ قليلًا وقال:

- حسنًا يا سيلينا، سألقنك درسًا لن تنسينه.

ثم رمى السيجارة وزاد سرعة السيارة، وانطلق لطريق مظلم غريب...

*****

"كان هذا أول يوم لي في الجامعة، لا أعلم من سجل لي فيها، هل كنت أنت يا أمير من أرادني أن أدرس الصيدلة في هذه الجامعة؟ ولكنه ليس مجال سيئًا، لقد أحببته، وأشكرك أيضًا على حسن اختيارك.

في أول يوم كان يبدو أنني غريبة عن الجميع، لم يتعرف عليّ أحد، تمنيت أن يأتي أحدهم ليقول لي كما يقولون لبعضهم: "سيلينا اشتقت إليك وإلى أوقات دراستنا في الثانوية معًا، كبرتي قليلًا عما كنت، لا شك أن الجامعة ستغيرنا"، ومن قبيل تلك العبارات التي كنت أسمعها أثناء سيري شاردة ووحيدة بين طرقات الجامعة، أتفحصها وأتعرف عليها، وكأنني ألتمس من تفاصيل أماكنها صداقة تعوضني عن الأشخاص.

كنتُ أتمنى لو أتذكر مراحلي العمرية وأبتسم مثلهم، ولكني لا أشعر أنني عشت هذه الأمور من قبل، ولكن أتعلم ما هو الغريب في الأمر؟ أنني أتذكر كيف أكتب وكيف أقرأ، وكثير من الكلمات الانجليزية والفرنسية ومعلومات علمية يبدو أنني درستها في المدرسة، أو تعلمتها وحدي، لا أعلم، يبدو أن الفقد في ذاكرة القلب هذه المرة.

بعد انتهاء المحاضرة _التي لم أفهم فيها الكثير_ لم أتحدث مع أحد، ولم يفكر أحد في أن يتحدث معي، فذهبت للمكتبة، الكتب عالمي يا أمير، كنت أحبها بحق، ولطالما تساءلت هل هذا هو شعور الانتماء؟ أينتمي الإنسان لكتاب؟ حسنًا ولكني لا أقيم حربًا إن آذى أحد كتابي كما نقيم الحروب من أجل الأوطان مثلًا، ويبدو أنه من شرط انتمائي لشيء ما أن أضحي من أجله.

ثم دلفت إلى المكتبة، كنت أقرأ رواية ما كنت أقرأها الليلة السابقة ولم أكملها، وكنت غير مدركة لما يحدث حولي، لقد أخذت الرواية معها كل حواسي كي أعيش أحداثها، فجأة سمعت صراخ فتاة تنظر في اتجاهي، نظرت حولي لأرى ما تنظر له فوجدت فتاة أخرى تقف قريبة من حقيبتي بشكل غريب، فشعرت برهبة سرت بداخلي منها.

فقالت أميرة بغضب:

- كوني أكثر حرصًا على أغراضك، لقد كادت تلك الفتاة أن تسرق هاتفك!

نظرت بصدمة ولم أعلق، والتفتُّ للفتاة، كنت أكثر تفاهمًا، وقررت سريعًا أن أخالف المألوف في ردة فعلي، فقد تعلمت مؤخرًا الكثير مما يجعلني أكثر حكمة لأشاهد الحياة بطريقة جديدة كلية، وكذلك الأشخاص، أن أختار الطريق الصعب، وألا آلف المألوف كثيرًا، وأن أقيّمه بين الفينة والأخرى، ثم سألتها:

- لماذا تريدين سرقته؟

أطرقت الفتاة في حزن ولم تعلّق، ثم شجعتها على الحديث:

- تستطيعين إخباري، أعلم أنك لست شخص سيئًا، أهناك خطب ما؟ ما هو اسمك؟

احتضنتني الفتاة وقالت بانفعال:

- شكرًا لك على لطفك، إنها المرة الأولى في حياتي أن يتحدث أحد معي بلطف أو يسألني عن اسمي، حتى أنا بتُّ غريبة عن نفسي، ولكني في مشكلة لا أجد حلًا آخر لها.

هدّأتُ من روعها وصرت أربت على كتفها حتى هدأَتْ تمامًا، ثم أخبرتني أن أختها الصغرى يجب عليها أن تُعالَج من مرض خطير بعملية جراحية لا يملكون تكلفتها، وحاولت عرض نفسها على كثير من الشركات للعمل، ولكن لم يوافق أحد عليها لأسباب مختلفة، ولجأت لفعل ذلك علّها تجمع المبلغ المطلوب.

أخبرتها حينها بما جاء بذهني فورًا دون تنقيح أو فلترة أن الغاية لا تبرر الوسيلة، وإن كانت النية نبيلة فإن السلوك لبلوغه لا يخلو من خبث يبطله، كما أنها مسلمة، وقد هذّبنا الإسلام بأن حرّم علينا ذلك، ثم أعطيتها ما معي من نقود ووعدت نفسي أن أساعدها في إيجاد عمل مناسب، وتركت لها رقم هاتفي، ثم احتضنتني من جديد وخرجت ممتنة.

شعرت بالسعادة تغمرني رغم ضيق الموقف، فجاء بذهني حينها فورًا الصورة المغايرة لرد الفعل التلقائي الذي كنت سأقوم به قبل ذلك، لم أكن لأكسب ودّها، وربما قامت مشكلة كبيرة بسبب ذلك، عندما أهدي أحدًا شيئًا جميلًا فأنا في الحقيقة أهدي نفسي شعورًا جميلًا لا يوصف، وعندما خرجتُ نظرَتْ لي أميرة في استغراب تام، ثم بادرت بسؤالي:

- ما هو اسمك؟
- سيلينا، وأنت؟
- أميرة، لمَ عاملتيها بهذه اللطافة؟ ألم تدركي أنها كانت تريد سرقتك؟ لولا وجودي لما كان هاتفك معك الآن.

ابتسمت لها وقلت:

- هناك العديد من الأشخاص مثلها في العالم، وهذه تعد مشكلة، ولكل مشكلة سببها، وطريقة معاملتنا لهؤلاء الفئة سبب من أسباب تفاقمها، وتحمل هذه

المعاملة في طياتها نوعًا من الاحتقار، فإن كانت هي سارقة فأنت سيئة في أمر آخر غير ظاهر لنا، جميعنا سيئون بطريقتنا الخاصة!

- حسنًا، ولكنك تبررين الجريمة الآن.
- لا أبررها، أحاول فهم سببها ومنعه فقط.

أذكر أن أميرة ابتسمت لي في إعجاب حينها وكأنها تشجعني على الاستمرار، ولكنها بادرتني بسؤال آخر عن مكان إقامتي ولقبي.

- أنا سيلينا أمير، جئت من بلدة قريبة من هنا، تشرفتُ بمعرفتك كثيرًا، ولكن حان وقت محاضرتي الآن.

وتركت لها رقم هاتفي أيضًا، وقبل المغادرة أضفت:

- ألا تودين مساعدتها بمبلغ من المال؟

دمعت عينا أميرة وأخرجت من حقيبتها مبلغًا من النقود ليس بقليل وأعطتني إياه.

- سعيدة بتقديمي لهذا جدًا، أهديها هذا المبلغ وإن لم يكفِ أبلغيني، أستطيع مساعدتها.

السرور بدا على محياي فورًا، وأردفت:

- لا شك أن هناك الكثيرين في الجامعة من يودون مساعدتها مثلك.

ثم غمزت لها.

وبعدها أعطيت الفتاة كل مساهماتهم، وذهبنا جميعًا لزيارة أختها أثناء العملية، ونجحت العملية، وسررنا من أجلها جميعًا".

ثم ضحكت سيلينا وتركت القلم قليلًا، ولمعت عيناها تجاوبًا مع هذه الذكريات التي أثارت مشاعرها، واسترسلت:

" لقد كان المشفى مزدحمًا بطلاب جامعتنا، وبعدها تواصلت معي أميرة وأصبحنا أعز صديقتين مع مرور الوقت...".

*****

انطلق حسن في اتجاه مركز الشرطة وهو يصرخ:

- ستدفعين ثمن ذلك، لقد حاولتِ قتلي أنت وكل الفتيات من قبلك أيتها البغيضة، كم أكرهكم.

وعندما وصل بالقرب من مركز الشرطة أوقف السيارة فجأة، ثم بدأ يصرخ ويصدم رأسه في الكرسي وهو يقول:

- لا أستطيع فعل شيء.

وبدأت دموعه تسيل في صمت وحزن عميق، وبدأ يسمع حوله أصوات غريبة تخبره أنها لا تحبه: "انتقم منها واذهب إلى الداخل هيا، يجب أن تندم على ما فعلَت وتأتي لترجوك، لا تكن رحيمًا يا حسن، إنها تؤذيك وتعذبك، يجب أن تؤذيها كما فعلَت".

نظر حسن أمامه كأنه ارتطم باللا شيء حوله، ورمق المكان بنظرة باردة ثم عاد أدراجه دون أن يعلق، وأخذ يتجول في الشوارع حتى وصل إلى بيته، ثم دخل وجلس على الأريكة يحادث نفسه، إنه يحادث نفسه ويستمع لأصوات شتى: صوت سيلينا تصرخ بحبها له تارة، صوت آخر يخبره أنه شخص سيء لا قيمة له، وأنه إن مات فإن العالم سيتخلص منه، وربما حينها يكون سعيدًا، وأخذ يقول:

- إنها لا تدرك أنني طُردت من العمل بسبب كثرة انشغالي عن عملي بلا شيء، وكثرة شرودي عنه وعدم تركيزي فيه، لقد أبرحني أبي ضربًا، واضطررت للعمل كي أستأجر هذه الشقة وأجلس فيها.

وعاد الصوت يلح: "لست سوى شخص مثير للشفقة يا حسن، ارحل من هذه الدنيا، هيا... لن يؤثر رحيلك كثيرًا في حياة أحد".

ثم قال بصوت خافت واهن:

- ولكنها تحبني.

ثم نظر حوله فجأة وكأنه شعر بمراقبة شخص ما له، ولكن لا أحد حوله، ثم شعر أن هناك شخص يترقبه مع مسدسه خارج الباب، وينوي قتله وهو في غفلة عن أمره، فهرع مسرعًا وأخذ مسدسه ووقف أمام الباب ينتظر دخول الشخص، لكن لا أحد هناك.

رمى حسن المسدس على الأرض في قلة حيلة وصرخ:

- لقد سئمت كل هذا.

ثم شعر أن قدماه لا تقوى على حمله، حتى سقط على الأرض وأجهش في البكاء، ثم التقط الهاتف ليكتب:

- مرحبًا يا عزيزتي سيلينا، ربما تقرئين هذه الرسالة، أو ربما لا تهتمين بها، أنا آسف على قسوتي معك، يبدو كل شيء متشابهًا حقًا يا سيلينا وباهت، لا أرى شعاع الشمس، وأيامي كلها سوداء قاحلة، لا فرق عندي بين صيف وربيع؛ فقد حكم عليّ بالشتاء طوال حياتي، أشرب الكحول لعله يخفف عني وحشتي، ولكن لا فائدة صدقيني، سأرحل عن هذه الدنيا بعد لحظات، ولا أعلم حقيقة لماذا أكتب لك الآن، ربما أحببت أن تكوني الأولى لأهنئك، عيشي سعيدة فقد تخلصتِ مني للأبد، أحببت أن أهنئك على ذلك، إلى اللقاء.

إرسال... تم الإرسال.

فتحت سيلينا الرسالة، دُهشت من كلماته الغريبة التي لم تعتدها منه، واتصلت سيلينا على الفور بحسن وهي تتساءل ما الذي يدعوه للتفكير بهذا الشكل؟ ما خطبه؟ يبدو أنني مع صراع آخر في اكتشاف من هو حسن، اتصلت به ثانية ولكنه لم يُجب، وأعادت اتصالها كثيرًا، ولا فائدة.

كان حسن ملقًا على الأرض يرى اتصالاتها وينتحب، ويأتي الصوت من جديد: "أرأيت؟ إنها تحبك وتقدسك، فأنت رجل، أنت مقدس، يجب عليك أن تعذبها، لا تجب على اتصالاتها".

ثم التقط الكحول الذي بجانبه وبدأ يشربه ويضحك بهيستريا.

أخذت سيلينا تجول الغرفة ذهابًا وإيابًا، ما الذي عليّ فعله؟ هل هذه مزحة؟ هل سينتحر بهذه البساطة حقًا من أجل السخافات التي حدثت بيننا؟ عليّ إيقافه في أقرب فرصة، الأمر إنساني هذه المرة، لا يتعلق بحبي له، ثم إني لا أكن له الشر بأي شكل، ثم ضربت بيدها على رأسها، ماذا عليّ أن أفعل؟ أنا في ورطة حقيقية، ثم لمعت في رأسها فكرة، حسنًا لا أحد غيرها يستطيع مساعدتي، اتصلت سيلينا على أميرة فورًا.

أميرة:

- هل ستنامين الآن؟

- أميرة عليك أن تساعديني فورًا، سأنسخ لك الرسالة التي أرسلها حسن لي، لا أعلم ما الذي جرى له يا أميرة، الأمر محزن ويجب عليّ أن أتصرف، لا أريد أن أندم بعد ذلك لأنني كنت أستطيع أن أنقذ روحه ولم أفعل، أرجوك ساعديني.

قرأت أميرة الرسالة فورًا على عجل ثم قالت:

- سيلينا يجب أن تفعلي شيئًا قبل فوات الأوان، أشعر بالصدق في كلماته، في غضون دقائق قليلة سيفقد وعيه تماما إثر الكحول وهكذا سيكون أسهل ما يفعله أن يتخلص من حياته.

قالت سيلينا بنفاذ صبر:

- اتصلت به كثيرًا ولم يُجب، ماذا أفعل؟
- بسرعة أرسلي لي رقم هاتفه، سأتصل أنا به.
- حسنًا سأرسله.
- سأدخلكما معًا في مكالمة جماعية، تحدثي معه، مستعدة؟
- نعم مستعدة.

واتصلت أميرة، نظر حسن للهاتف في شرود، ليست سيلينا، هل هو أبي؟ سيقول لي أنه يشعر بالعار والتقزز لأني ابنه، سأرد على أية حال، وفتح السماعة دون أن يتحدث.
فاجأه صوت سيلينا:

- حسن، لقد قلقت عليك بحق، ما الذي حدث لك؟ هل تتخلى عن حياتك بتلك السهولة؟ لست غاضبة منك، أرجوك اترك الكحول الذي تمسكه بين يديك، أرجوك يا حسن لا تفعل بنفسك هذا، تستطيع إخباري بكل ما حدث في الغد، أو اكتب لي رسائل، أو حدثني على هاتفي، ولكن لا تفعل هذا حسن، هل تسمعني؟

تساقطت دموع حسن، ولكنه يجب أن يبدو أكثر قوة، إنها تترجاك أن تحبها الآن، يجب أن تخبرها أنك شخص استثنائي، لست كما تظن هي، ثم قال:

- لا بأس، أتفهم شعورك، ولكني لا أقبل سوى أن تأتي لتقبّلي قدمي أيتها العاهرة.

ألجمت الصدمة لسان سيلينا عن الحديث وأخذت شفتاها ترتجف:

- ما الذي تقوله؟!
- أيتها الغبية البلهاء، لن أقبل حبك حتى تأتي لتقبّلي قدمي.
- حسن هل أنت مريض؟!

غضبت سيلينا من رده وأغلقت الهاتف.

قالت أميرة:

- سيلينا لماذا أغلقتِ؟
- استجاباته لكلماتي غريبة، لم أفهم شيئًا مما يقول حتى، وأهانني بدون سبب واضح.
- سيلينا، أخشى أن الأمر الذي أفكر فيه صحيح.
- فيم تفكرين؟
- هل قال لك من قبل أو علمتي أنه مريض؟ هل تعرفين أحدًا من عائلته؟
- لا يا أميرة، لا أعرف أحدًا، أشعر أنني عرفته للتو.
- حسنًا سأبحث على الانترنت.
- ما هو الأمر؟
- إنه مرض فصام الشخصية (شيزوفرنيا)، يبدو هذا من أعراضه.
- أنت تمزحين بلا شك، وهل حسن لديه شخصيتان الآن؟
- هذه المعلومة الشائعة خاطئة يا سيلينا، مريض الفصام لا يمتلك شخصيتين أو ما شابه، إنه يعاني من اضطرابات في خلايا مخه تجعله يهلوس ويتخيل أشياء غير موجودة، ولا يستطيع الاستجابة بشكل صحيح للمؤثرات التي تحدث حوله كما حدث معنا الآن، لم يكن لديه القدرة على استيعاب كلماتك بشكل واقعي، أي أنه يستمع لصوتك مشوش أو متداخل مع صوت

آخر في رأسه يتحدث هو الآخر ويجيبك تبعًا لذلك، ودائمًا ما يعيشون في عالم آخر منفصل عن الواقع ويتخيلون أن هناك أشخاصًا يتحدثون معهم أو يهددونهم، حسن غريب منذ الوهلة الأولى التي رأيته بها.

- حسنًا سأذهب لأبحث عنه، ولكن فيمَ سيفيدنا ذلك الآن؟؟
- ستستطيعين معالجة ما نحن فيه الآن وإخباره بمرضه.
- حسنًا لنبحث أولًا ثم نتحدث.
- حسنًا، ولكن اتصلي به الآن وأنا سأبحث، لا يجب أن تتركيه وحده الآن، الأمر مخيف.
- حسنًا.

قال حسن لنفسه:

- ما بالها؟ ألم تقل أنها خائفة عليّ؟!

ثم ضحك وتناول جرعة كبيرة من الكحول، اتصلت سيلينا به من جديد فرد عليها ببرود:

- ما بك يا سيلينا؟

أخذ ينطق اسمها ببطء وكأنه يستطعم مذاق كل حرف فيه.

- كم هو غريب هذا الاسم، ولكنه جميل بالفعل، يليق بك.
- حسن؟ هل بيدك كحول؟
- نعم، كيف علمتِ؟
- اتركه فورًا يا حسن، أرجوك يا حسن لا تستمع لعقلك الآن، لا تستمع له، اترك الكحول الذي بيدك، اترك عقلك.

وتعمدت تكراراها كي يفهمها، تشنجت يد حسن فجأة، وبالفعل رمى الكحول على الأرض وهو تحت وقع صدمة ما لا يفهمها.

سمعت سيلينا على الجانب الآخر صوت ارتطام إناء الكحول على الأرض فابتسمت لنجاحها.

- أحسنت يا حسن، الآن أريدك أن تذهب للمرحاض لتغسل وجهك، استمع لي أنا يا حسن فقط.

استجاب حسن وهو هادئ والصمت يعلو كل شيء، ينفذ ما تأمره كأنه آلة، وسكنت الأصوات الأخرى التي كانت تأمره منذ قليل، وفهمت سيلينا عندما سمعت صوت تدفق الماء أنه استجاب.

- حسنًا أتعرف كيف يكون الوضوء؟ استمع لي أنا يا حسن، أسكت كل الأصوات الأخرى.

بدأ حسن يغسل أعضاءه في هدوء ويتوضأ كما تطلب منه، شعرت سيلينا بذلك حين سمعت صوت تدفق الماء يختلف؛ مما يعني أن أحدًا ما يستخدم الماء، ثم أغلق الصنبور وهو بنفس الهدوء.

- حسن الآن أريدك أن تقف وتستقبل القبلة، وترفع يدك قائلًا الله أكبر بصوتٍ عالٍ، اترك الهاتف في وضع المكبر وافعل ما آمرك به إن كنت لا تعلم كيفية الصلاة.

نظر حسن للأرض فجأة، إنه يعلم كيف تكون الصلاة، ولكنه لا يعلم متى المرة الأخيرة التي صلى فيها، هل نسي ربه؟ هل نسي كيف يتواصل مع إلهه _عز وجل؟ حتى أنه فقد كل المشاعر التي توصله بربه، ونسي كل ما فهمه عن دينه.

شعر للوهلة الأولى بالغرابة والخوف، ثم بالراحة تسري في جسده تلقائيًا شيئًا فشيئًا، أخذ يؤدي صلاته في هدوء، وأغلق الهاتف مع سيلينا دون أن يعلّق قبل أن يبدأ، ثم ركع، وعندما سجد بكى على عمره كله الذي ضاع دون أن يسجد فيه لله، رهبة تتملك أطرافه، وقلبه ينفطر من عمق ما استحوذ عليه.

أصبح يشعر بالقوة الحقيقية دون الحاجة للبوح أمام الجمهور، دون الحاجة لمحاولة السيطرة على قطيع من الأغنام الهائجة، إنه يشعر بالقوة وكأنه يحلق في السماء وهو منكس رأسه في الأرض، أهذه عظمة الله سبحانه وتعالى؟

أخذ يبكي ويبكي في السجود، حدّث ربه لأول مرة بعد مرور الكثير من الوقت على آخر مرة فعل فيها ذلك، كان صوت نحيبه أعلى من كل الأصوات الأخرى برأسه، للمرة الأولى

وكأنه يعري ضعفه وحاجته أمام أحدهم، ناجى ربه عن كم أنه مشتت وضائع، وأنه الكريم الذي يطمع في غفرانه، وتخليصه مما هو فيه.

بكى وبكى حتى أنهى صلاته، ثم خلد في نوم عميق كأنه أغمي عليه، شعر فيه بالراحة للمرة الأولى منذ زمن طويل، لم يكن يشعر بالراحة في نومه، دائمًا يشعر باضطراب وتداخلات الأصوات في رأسه تزعجه وتؤرقه، كأن العالم تجمّع كله ليتحدث في أذنه هو فقط، وينام كما لم ينم، ويبكي كما لم يبكِ.

*****

تنهدت سيلينا بارتياح، فلطالما آمنت دائمًا حتى باتت تردد أن الله _سبحانه وتعالى_ هو الحل، فلم تجد ما تفعله أمام ثقتها بأن الله سينقذه من نفسه، وقد بدأ يقينها يزداد في مرضه؛ وذلك لأنه استجاب لأمرها كلما قالت أسكت الأصوات الأخرى، فلو لم تكن موجودة لسفّه حديثها، فتركته ثم اتصلت بأميرة.

ردت أميرة بسرعة وقالت باندفاع:

- سيلينا، لقد رأيت كل شيء، تأكدت من طريقة كلامه، إنه مصاب بالفصام من نوع بارانويدي.
- وما هو هذا النوع؟
- يتخيل الشخص فيه وجود شخص يهدده بعنف، أو يحبه بشدة، ويعيش على هذه التخيلات على أنها واقع، وكلامه يكون غير واضح في الغالب، واستجابته باردة لكل شيء حوله، اللامبالاة، والكثير من الأعراض الأخرى.
- إذًا ما العمل يا أميرة؟
- هل تحدثتِ معه.
- نعم، وأشعر أنه بخير الآن؛ فقد قام ليصلي، ومن أحسن من الله _عز وجل_ يمكن أن نلتجأ له؟
- معك حق، اتركيه إذًا ولنفكر معًا في طريقة نخبره ليبدأ في جلسات للعلاج النفسي حتى يتعافى، لأنني علمت أنه ربما يثور ويغضب إذا أخبره أحدهم أنه مصاب بمرض نفسي، أو عرض عليه ذلك، ونسيت أن أخبرك لقد أُثبت

علميًا أن الرقية الشرعية تعتبر علاج له، ولكن لابد أن تكون برغبة المريض حتى لا تؤدي لنتائج سلبية، وهي تعتبر علاج مكمل للأدوية، لم يثبت إلى الآن شفاء هذا المرض 100%، ولكن هناك حالة منه تسمى الفصام المتبقي وتكون أعراض الهلوسة والأوهام وأية أعراض أخرى للمرض قد تقلصت وقلّت ويستطيع التعايش معها، كما أنه لابد أنه يواجه الكثير من المشاكل في حياته عامة، ما هو عمله؟ هل لديه وظيفة؟

- حسنًا لا أذكر ذلك، ولكنه يعمل في شركة ما.
- وماذا عن دراسته؟
- أذكر أنه أخبرني أنه يعمل عامًا ويدرس العام الذي يليه.
- لماذا؟ وأين والده.
- لا أعلم.
- حسنًا اذهبي للنوم الآن وغدًا سنفكر في هذا الأمر بالتفصيل، يجب ألا نتركه، ويجب أن يدرك حقيقة الأمر.
- حسنًا سأفعل، نعم يجب ذلك بالطبع.
- تصبحين على خير يا عزيزتي.

في صباح اليوم التالي استيقظت أميرة باكرًا، واتصلت بسيلينا لتوقظها ولكنها لم تجب، وبعد مرور ساعة استيقظت سيلينا ثم غسلت وجهها وأدت صلاة الفجر، ثم أمسكت الهاتف لتتصل بأميرة، فقد رأت اتصالها:

- صباح الخير.
- صباح النور، كيف حالك؟
- كما هو، لا جديد.
- حسنًا، لقد فكرت في الأمر مليًا وتوصلت لأمر لن يرضيك، ولكن أظن أن لابد منه.
- وما هو.
- حسنًا، ستتصلين بحسن اليوم ثم تطلبين منه أن تذهبا لتناول الغداء معًا.

- هذا مستحيل يا أميرة، تعرفين أني لا أحب الجلوس معه.
- الأمر مختلف الآن يا سيلينا، تستطيعين من اليوم أن تعتبريه جليسك في جلسة علاج نفسية لابد منها.
- لو كنت أعلم للعلاج النفسي طريقًا لما درست الصيدلة.
- أتستخفين بقدرة الصيدليين؟

ضحكت سيلينا ثم قالت:

- سأستمع لخطتك، هيا أكملي ثم سأقيّمها وأقرر.
- حسنًا، ثم ستبدئين بالحديث عن نفسك باعتبارك عانيتي من مرض الفصام من قبل، وعن كيف كان صعبًا، وابدئي في وصف المرض بتفاصيل دقيقة حتى يستشعر أن ما يحدث معه غير طبيعي وأنه مرض بالفعل.
- حسنًا ربما لن يقتنع بذلك ويبتعد عني بوصفي مجنونة أو مريضة نفسيًا، أكاد أجزم أنني سأرتاح، ولكني لن أغير شيئًا بهذه الطريقة.
- لا تستبقي الأحداث، ستخبرينه أنك انتظمتِ في أخذ الدواء والجلسات النفسية وقد شفيتِ.
- ولكني أنا وأنت نعلم أنه مرض مزمن لا سبيل للشفاء منه.
- لا بأس بإعطاء بعض الأمل، ستكون النتائج محصورة بين احتمالين: الأول _كما قلتي مسبقًا_ أن يعتقد بأنك مجنونة، ولا أظن ذلك سيحدث إن أحسنتِ وصف ما يحدث فيه؛ من خلال قراءتك للأعراض التي سأرسلها لك الآن لتقرئيها بتركيز، الأسلوب الدرامي سيؤثر على نفسيته فسيستجيب، تستطيعين بث كل المعتقدات التي تريدينها عن طريق استخدام الدراما، وستنجحين في التأثير على من يتلقى بسهولة.

والنتيجة الأخرى أنك ستشجعينه بالفعل على الحديث وسيتجاوب معك في نفس الوقت، أو ربما ليس اليوم، ولكن سوف يخبرك بحقيقة أنه يشعر بنفس الشعور، وهكذا تكونين أمسكتِ بطرف الخيط، نحن نتأثر ببعضنا، الصدق يولد الصدق.

اقتنعت سيلينا بكلام أميرة وقالت:

- سأفعل، ولكني لا أريد رؤيته، أشعر بذنب ما.
- سيلينا، عليك مساعدته، لا أقول لك عالجيه، بل ساعديه في إدراك مشكلته وحسب، هل ستتركين شخصًا يتأوه من الألم أمامك هكذا بلا رحمة؟
- حسنًا يا أميرة سأفعل، سأقرأ رسائلك الآن بتركيز ثم أحدد معه الوقت، ولكن أحتاجك في أمر.
- تفضلي.
- سأتصل بك وأترك الهاتف مفتوحًا حتى تستطيعي سماع حديثنا، وسأضع سماعة البلوتوث وبالتالي لن يلحظ شيئًا، تستطيعين سماعي والتعديل على ما أقول، اتفقنا؟
- حسنًا اتفقنا، هيا انطلقي.

أغلقت سيلينا الهاتف، وبدأت في قراءة المقال بتركيز، فجأة تداعى لمسامعها صوت هطول المطر وهو يطرق على نافذة غرفتها بلطف تارة، وعنف تارة أخرى، إنها تعشق المطر، لطالما كانت تشعر أن خلف المطر رسالة تجهلها، ولكنها تشعر بجمال هذه الرسالة دائمًا، وكم تتمنى لو أن كل فصول السنة مواسم للأمطار، وألا يمتنع هطول المطر عن الأرض أبدًا، ستنعم بحياة أكثر جمالًا.

شردت سيلينا ونظرها معلق على النافذة، بعد أن قرأت الكثير عن الأعراض فحفظتها، وقررت تخيل أنها تصيبها، ثم طمأنت نفسها:

- ستنجحين، ثم إن أميرة معك، لا تقلقي.

ابتسمت سيلينا، وأمسكت بالهاتف كي تتصل بحسن، فأجاب وجاءها صوته نائمًا:

- صباح الخير يا سيلينا.
- صباح النور، حسن هل ما زلت نائمًا؟ لقد تأخر الوقت، هيا استيقظ أريد أن أخبرك بشيء ما.

نهض حسن، فقد تمنى أن تخبره أنها ستأخذه لرحلة مثل يوم أمس ينسى بها ألمه، وأعاصير الأفكار التي تفتك بعقله، وبعد أن طرده مديره من العمل لا شيء يشغله، عليه أن يجد شيئًا وإلا ستقضي نفسه عليه، وما بيده غير الاستسلام لها، فقال في لهفة:

- ما هو؟
- فكرت في شيء ما لنفعله اليوم، ما رأيك أن نتناول الغداء سويًا اليوم ونتحدث معًا، كما أني لم أنسَ ما حدث أمس، علينا التحدث.

شعر حسن بالسعادة لأول مرة بعد وقت طويل مر من العزلة والبؤس، فابتسم وقال:

- بالتأكيد يا سيلينا موافق، نلتقي بعد ثلاث ساعات في مطعم (.....).
- حسنًا اتفقنا.

ثم أغلقت الخط، لا تستطيع سيلينا العودة عن قرارها الآن بعد أن قُبض قلبها فجأة منذرًا بشيء سيء قد اقترب قدومه، ثم نظرت للورق الذي كانت تكتب فيه ليلة أمس وقالت:

- يجب أن أعلم ما هو شعور الانتماء، وكيف أنتمي لوطن وأنا أجهل وطني الحقيقي؟! ولا أشعر أن هذا المكان يحتويني على أية حال.

سمعت من أشخاص أن هناك أشخاص أخرى يستطيعون أن يصبحوا وطنًا لنا، ويكفونا بالشعور بالانتماء لهم، ولكني لا أمتلك هذا الشخص، حسنًا يجب أن أجد الجواب هذا اليوم؛ حتى أستطيع إكمال أول رسالة كتبتها لأمير.

ويعود السؤال الملح على عقلها: من هو أمير؟ وتتجاهله كالعادة ثم تنهض لتجلب كتابًا تقرأه؛ فهذا أنسب لهذا الطقس، تركت الهاتف بعيدًا بعد أن أرسلت لأميرة رسالة بتفاصيل مكالمتها مع حسن، وأن تنتظرها بعد ثلاث ساعات، واستغرقت سيلينا في القراءة.

مرت الثلاث ساعات بسرعة كبيرة، فنهضت سيلينا بعد أن أنهت قراءة الكتاب، وقامت لترتدي ملابسها لتستعد للخروج مع حسن.

كان حسن على الطرف الآخر يرتدي ملابسه، وكان قد قضى ساعاته في تناول الفطور، والجلوس لتأمل المطر، والدعاء، وكان يخشى أن ينتهي هذا الهدوء، فأقصى أوقات

صفاءه هي الأوقات التي لا يفكر فيها بأي شيء، ارتدى ملابسه على عجل، ثم نزل واتجه صوب المطعم، وأخذت سيلينا سيارة أجرة لذات الوجهة.
وصل الاثنان معًا في نفس التوقيت، ابتسمت سيلينا له مرحبة، وهو بادرها بنفس الشيء:

- مساء الخير.
- مساء النور.

ودخلا المطعم، وعندما جلسا اختارا أن يأكلا المعكرونة مع سلطة الدجاج، ثم قررت سيلينا أن تبدأ بالحديث، وكان يجلس هو في صمت تام، يشعر بأنه مسترخ هكذا، لا يفكر في شيء، لا يشغله شيء، لا يكترث لشيء، وبمعجزة ما صامتة كل الأصوات بداخله لا تقول شيئًا.

- ما الذي جرى لك أمس يا حسن؟ لم أكن أعلم أنك تتناول الكحول.

نظر لها حسن في شرود وقال:

- لا أتناولها في العادة، ولكن كنت أفرغ شيئًا ما فيها أجهله.

سرى الأمل بداخل سيلينا قليلًا:

- ما هو؟
- لا أدري.

كادت سيلينا أن تنسى أمر أميرة بالكامل حتى اتصلت بها، فاستأذنت منه للذهاب لغسل يديها، ثم نقرت لإجابتها ووضعت سماعات البلوتوث، وتركت الهاتف مفتوحًا ثم خرجت، وعادت لتراه يجلس مطرقًا رأسه ينظر للأرض شاردًا، شعرت سيلينا بالأسى من حاله، ولكنه هادئ على أية حال، وتخشى أن يصيبه أي من نوبات المرض التي لن تستطيع التعامل معها حينها، ولكن أميرة كانت معها لتدلها بالطبع، عادت سيلينا للمقعد:

- حسن؟

استفاق حسن من شروده فورًا:

- نعم تفضلي؟
- لا شيء، ولكني رأيتك شاردًا، أين ذهب عقلك؟

- إلى لا شيء.
- وماذا يعني هذا؟
- لا يعني شيئًا.

قالت أميرة:

- هيا اخبريه أنك عندما تأتين لهذا المطعم تتذكرين أحد ذكرياتك عندما أصبتِ بمرض الفصام.

رددت سيلينا وراءها الكلمات كأنها تلقنها، نظر حسن لها في اهتمام وأومأ برأسه ليحثها على المواصلة.

- كنت أعاني من فرط التفكير في أشياء غير موجودة، كنت دائمًا أشعر بالقلق من لا شيء، ورغبة قاتلة في إسكات كل ما يدور في عقلي، وكنت أستمع لأصوات غريبة ليس لها وجود، ولم أكن واعية لذلك.

كانت هذه الحقيقة التي أعيشها منفصلة عن العالم حولي، الذين كانوا يعيشون حقائق أخرى، كنت دائمًا أشعر أنني مهددة ومراقبة أينما ذهبت، ويتمنى أحدهم لي الشر، وكنت لا أشعر لا بالحزن ولا بالسعادة، لا أجد المتعة في الأمور التي كنت أستمتع بها عادة.

لم يكن لي أصدقاء، كنت وحيدة معظم الوقت، لقد كرهني الجميع وأصبحت منبوذة من أسرتي لأنني كنت لا أستطيع التحدث بسهولة، إن تحدثت فأقول كلامًا غير مفهوم وهم يسئمون مني، كما أنني لا أساعد في شيء في المنزل، دائمًا كنت مصدر لخيبة آمالهم.

تغير وجه حسن فجأة، وكأن شيئًا من هذه الكلمات قد لمسه هو بالتحديد، ولكنه لم يعلق على هذا وقال:

- وماذا فعلتِ؟ كيف تشعرين الآن؟

ابتسمت أميرة وقالت:

- عليك أن تتحدثي بشجاعة عن مواجهتك للمرض، هيا أترك الميكرفون لك.

- حسنًا حينها آمنت بالعلاج، آمنت أنه لابد لكل هذا أن ينتهي، آمنت أن هناك حياة أخرى غير التي أعيش خلف قضبانها، كنت أعلم أن هذا غير طبيعي وأني مريضة، ومن هنا انطلقت بداية العلاج.

بحثت عن المرض، فإذ به موجود حقيقة، ذهبت للطبيب مباشرة، وانتظمت في تناول الأدوية، وغيرت أمور أخرى في نمط حياتي تحت أوامر الطبيب، وقرأت الكثير عن علاجه، وهذا ساعدني أيضًا، لم أكن أعلم أن القراءة تساعد في الشفاء.

وعلمت حينها أن إصابتنا بالأمراض ليس أمرًا سيئًا، إنها تعلمنا الكثير، وتجعل منا أشخاصًا أقوى دائمًا، فقط العزيمة والإيمان والصبر كانوا سلاحي الذي حاربت به، وانتصرت بهم بفضل من الله عز وجل.

حينها جاء النادل ليقطع نظرة حسن المتأملة المبتسمة، وكأن كلماتها أخذت في نفسه بعدًا آخر فشرد فيها، وجاء النادل ووضع الطعام أمامهما، قائلًا:

- أتمنى لكما يومًا ممتعًا، وإن أردتم شيئًا ما فأنا في الجوار، نحن هنا تحت خدمتكم.

ابتسمت سيلينا له:

- أتمنى لكم عملًا موفقًا.

قالت أميرة على الهاتف:

- أحسنت يا سيلينا، أتوق شوقًا لمعرفة رده.

نظر حسن للطعام شاردًا مرة أخرى ثم قال:

- أحسنتِ، استطعتِ مواجهة ما لم يستطع الكثيرون مواجهته -ثم أطرق رأسه- هيا ابدئي في تناول طعامك، بالعافية.

تنهدت أميرة في غضب وصرخت:

- يجب أن ينجح هذا بأية طريقة، سيلينا يجب أن يتحدث، هيا... هيا.

ضحكت سيلينا من صديقتها ثم قالت:

- لي ولك.

وشرعا في تناول طعامهما في لحظات من الصمت.
نظر حسن لسيلينا مباشرة وقال:

- سيلينا...
- نعم؟ تفضل؟
- كم عانيتِ من هذا المرض؟ وكم استغرقت مدة علاجه؟
- استغرقت مدة معاناتي قرابة الـ ٥ سنوات ربما، ومدة العلاج كانت سنة كاملة من الالتزام وتقبُّل أسوأ ما آلت إليه أموري.

فنظر لها حسن:

- ما هو اسم هذا المرض الذي شخصت به حينها؟
- فصام الشخصية (شيزوفرنيا).

فابتسم حسن قائلًا:

- الحمد لله الذي عافاك منه.

انتهيا من تناول طعام الغداء، ولم تجد سيلينا سببًا للجلوس أكثر ولا دافع، فلم ينبس ببنت شفة طوال الجلسة، وبعد الغداء نظر شاردًا فقط.
حسنًا، ربما هذا أفضل من أن يعاني من ألم في رأسه، أو جمود في أضلعه كما قرأت عن أعراضه المتقدمة، وجلسا قليلًا بعد الغداء وهو ينظر تجاه الأرض كأنه نسي أو تناسى وجودها تمامًا، وهي نظرت للهاتف تتحدث مع أميرة عن طريق الرسائل، وأميرة تحثّها على إخبارها إن حدث جديد ما، ولكن لا جديد، يبدو أنه لم يهتم، بل لم يظهر رد فعل حقيقي؛ وكأنها كانت تحدثه عن نتيجة مباراة فريق لا يشجعه أو نكتة سخيفة، فأخذت سيلينا قرارها وقررت أن تنهض وتنهي الجلسة، ربما لديه أشغال أخرى هو الآخر، فنهضت سيلينا ولكنه لم ينتبه لها، ما زال شاردًا في صمت.

- حسن؟

استفاق حسن من عالمه ورفع رأسه ناحيتها:

- نعم؟
- هيا دعنا لا نتأخر أكثر من هذا، وشكرًا لك لقبول دعوتي، دع الحساب عليّ اليوم.

أومأ برأسه موافقًا، واندهشت سيلينا، فلطالما كان يرفض ذلك ويغضب، ويعتبر تقليل لهيبته أن تدفع الحساب بدلًا عنه، وتساءلت ما الذي غير موقفه!

فنهض حسن قائلًا:

- أستطيع توصيلك إن أردتِ.
- سوف أتمشى قليلًا فالوقت ما زال باكرًا، ولكن لا تغضب مثل البارحة أرجوك، أنا فقط أريد أن أتمشى.

رمقها بنظره باردة ثم أجاب:

- لا تقلقي لن أغضب، لك مطلق الحرية يا عزيزتي.

ثم اقترب منها وكأنه يريد تقبيلها فابتعدت عنه فورًا.

- حسنًا لا داعي للقلق، كنت أتأكد من وجود شيء خلفك فقط، كنت أرى شيئًا أسود قريب منك وكأنه يلاحقك.
- لا يوجد شيء يا حسن، ماذا رأيت؟
- ألم ترينه؟
- لا، ما هو؟
- إذًا لا تهتمي وحسب، هيا انتبهي لنفسك.

وأشار بيده ثم التفت وخرج من المطعم.

*****

الفصل الثاني

"عندما كانت الأوطان لا تمنحني انتماء حقيقي... قلبك فعل، ولكنه رحل"

-لقائلها-

تنهدت سيلينا في أسى:

- يبدو أنني سوف أعاني كثيرًا، ولدي وقت وفير لأضع الخطط الفاشلة كي يقتنع الملك حسن يومًا ما ويخبرني.

ثم نهضت ودفعت الحساب وخرجت للخارج، وعندما استقبلت أشعة الشمس مع الهواء الجميل الذي يلطف حرارتها تنهدت وقالت:

- والآن أريد أن أقضي اليوم في الإجابة عن السؤال الذي شغلني بالأمس، ربما أستطيع الإجابة عنه من خلال سيري في الشوارع وسط الناس، إن المواقف والأحداث تفوز بأكثر مصدر يستطيع أن يهدينا معلومات قيّمة لا نجدها في (جوجل)، حيث أنه ليس من المنطق أن أسأل محرك البحث عن شعور أجهله.

ثم انطلقت سيلينا وهي تجول الشوارع:

- حسنًا سأدخل هذا الشارع، ربما أنتمي له.

ثم ضحكت سيلينا لسخافة حديثها، وعندما مشت قليلًا وجدت أشخاصًا كثيرين يدخلون للمسجد؛ فقد حان وقت صلاة العصر، ولكن يبدو على الجميع الطمأنينة والسلام الداخلي الذي يغمرها بعد كل صلاة، ثم تذكرت حسن وتنهدت في أسى وقالت:

- ليته معي، لكنت أحضرته ليصلي.

ويا للمفاجأة! نظرت خلفها لتجد حسن قد وصل بسيارته، ونزل واتجه صوب المسجد متجاهلًا وجودها، أو جاهلًا به، ابتسمت سيلينا في رضا:

- يبدو أنه لا ينتظر مني ذلك.

ثم دلفت سيلينا لمصلى السيدات لتجد ألوان البخور قد استقبلتها، ولكنها مُركَّزة بدرجة جعلت منها روائح مؤذية، تنهدت سيلينا في نفسها وقالت:

- تدخُّل الإنسان بطريقة غير سوية في أي شيء يكسب الشيء قذارة، إنها تشبه الغابة الجميلة التي تحوي الأزهار ذات روائح جميلة التي تنشر عطرها، ليأتي الإنسان ببعض المركبات الكيميائية التي اخترعها في المعامل ليجزم أن رائحتها أجمل من رائحة الطبيعة، بل ويغطي عليها.

ثم دخلت وسط السيدات ونظرت لهن، وجميعهن جالسات في صمت ينتظرن الإقامة في جو من الهدوء والجمال يأخذ القلب، ومنهن من تمسك بمصحف لتتلو الآيات في صوت شجي، وتنظر سيلينا هنا وهناك شاردة، وسؤال ملح يتوارد في ذهنها: هل من شرط الانتماء اللغة؟ أن تكون لغتك تنتمي للبلد الذي تقيم فيه مثلًا؟

حسنًا ولكني توسعت عن ذلك، وفي وجهة نظري هناك أشياء أخرى نشعر بالانتماء تجاهها وليس الوطن وحسب، وإنما أي مكان تشعر بأنك تجد نفسك فيه.

ربما أنت تجد نفسك في غرفتك، أي تجد ما تشعر أنه يقارب روحك ويشبهها، إذًا أنت ببساطة تنتمي لها، تجد نفسك في المسجد، إذًا أنت ببساطة تنتمي له، إن كنت تجد نفسك عندما تنزل إلى أرض الوطن بعد غياب، تشعر بالشوق وكأنك تولد من جديد، كأنك تكتشف نفسك مرة أخرى، إذًا أنت منتمي لهذا المكان.

- حسنًا، لقد قررت، سأنهض الآن وأتحدث مع أي شخص من الجالسين.

مشت سيلينا باتجاه فتاة يبدو أنها تكبرها بسنوات قليلة، تتلو القرآن بصوت هادئ وخافت، ويبدو على وجهها ملامح الرضا، اقتربت سيلينا منها قائلة:

- مرحبًا، هل تستطيعين أن تخبريني في أي جزء تقرئين؟

نظرت الفتاة لها والابتسامة تغطي وجهها:

- حسنًا، أقبلي لأريك.

وقع اللفظ على مسامع سيلينا فأنكرته قليلًا، ثم قررت أن تسألها، ربما السؤال سيبدو تافهًا لها، ولكن يعني لسيلينا الكثير:

- لماذا لم تقولي تعالي ببساطة؟ حسنًا لا تؤاخذيني تعجبت من اللفظ وحسب.

ابتسمت الفتاة:

- أحب أن أتحدث بألفاظ القرآن، دائمًا ما يذكر كلمة أقبل.

تأكدت من صحة ما ظنت، إن اللغة تكشف عن الانتماء بالفعل، حسنًا لماذا لمَ تكشف عن انتمائي، إذًا إنها ليست كل شيء، بقيت المشاعر، سألتها سيلينا:

- بمَ تشعرين وأنت هنا؟
- أشعر بالهدوء والراحة، لا أريد لهذه الدقائق أن تنقضي، ولكن إنها نهاية كل اللحظات الجميلة، تنقضي سريعًا.

أومأت سيلينا برأسها موافقة:

- حسنًا وهل تواظبين على المجيء هنا وقراءة وردك مثلًا؟
- نعم يجب عليّ فعل ذلك كل يوم.

ابتسمت سيلينا:

- دائمًا ما يصدر سلوكنا المستمر عن رغبة ملحة في نفسنا، ما هي رغبتك إذًا في قدومك؟
- رضا الله.
- وماذا أيضًا؟
- طمعًا في الهدوء والراحة النفسية، فهناك الكثير من الاضطرابات والازعاج دائمًا في المنزل.

هتفت سيلينا بحماسة لم تكن متناسبة مع الموقف بتاتًا:

- وهل تأتين إلى هنا تهربين من واقعك إذًا لتجدي نفسك؟ أقصد تجدي راحتك؟

استغربت الفتاة من كثرة أسئلتها وردة فعلها غير المتوقعة على ما قالت، ثم أومأت برأسها موافقة وعلامات الدهشة تكسو ملامحها.

ابتسمت سيلينا في رضا وقالت في نفسها:

- والآن يا سيلينا لنضع أول القائمة الانتماء الديني، ولأنه ديني إذًا المكان المناسب هو المسجد، إذًا الانتماء للمسجد، والتحدث بلغة القرآن، والسير على هدي القدماء الذين امتثلوا لأوامر هذا الدين الذي شرعه الخالق سبحانه وتعالى، والذي لا نختلف أبدًا على حقيقة وجوده، وإنما نختلف على طرق الوصول له.

ثم نظرت سيلينا لها وقرأت علامات الدهشة على وجهها، فقررت أن تلطف الجو:

- حسنًا كنت فقط أحب أن أعرف الشعور الحقيقي للسعادة في هذا المكان، شكرًا لك.

أومأت الفتاة برأسها متفهمة في صمت، فنهضت سيلينا كي تبحث عن شخص آخر لتؤكد نظريتها، فمرت على امرأة يبدو أنها في الأربعينات من عمرها، لا تمسك المصحف لتتلو هذه المرة، كانت تذكر الله وتسبحه، وترفع يدها له وتدعوه، لم تشأ سيلينا أن تقطع حديثها مع الله، يبدو أنه حديث مقدس بحق بالنسبة لها، تتحدث مع الله بكل جوارحها، شاردة عن كل شيء حولها، غافلة كل أمرها.

ابتسمت سيلينا ثم سارت مبتعدة عنها وهي تبتسم في رضا، إذًا هي تنتمي لحب الله عز وجل، وجدت المكان المناسب كي تتواصل فيه معه، المسجد الذي يعتبر بيت الله.

سارت سيلينا للأمام لتنظر بتمعن للمزيد، ولكن للأسف انتهى الوقت وارتفع صوت الإمام ليعم الأرجاء: «قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة»، ثم نظرت لهن جميعًا يتوجهن ليقفن في صفوف متساوية.

لا مسافات بين المصلين، ها هم قد تركوا كل ما يشغلهم وذهبوا للصلاة، أتوا بقصص مختلفة من بيئات شديدة التباين، ولكن في نهاية المطاف هناك نقطة مشتركة بينهم، كلهم أتوا لذات الهدف، حسنًا هل ينبغي لشعور الانتماء أن يشاركك فيه أحد ما؟ أعني مثلًا لو أن هناك شخص واحد في هذا المسجد وحده فقط؛ ألن يشعر بالانتماء؟ يجب أن أجيب عن هذا، أيضًا ولكن أظن أنه ليس شرطًا، فهم ينتمون لله _عز وجل_ وللدين هنا.

ثم وقفت سيلينا بجانبهم وهي تؤدي الفريضة، وتكسو ملامحها ابتسامة رضا، فرغ الجميع من الصلاة فوجدتهم انطلقوا جماعات ليرتدوا أحذيتهم مستعدين للخروج،

لمحت سيلينا الفتاة التي تحدثت معها فقررت العودة لها، حسنًا يبدو أنها الوحيدة التي ستتحمل أسئلتها التافهة، ثم لحقتها سيلينا وقالت:

- هل لي بسؤالك سؤالًا آخر؟

ابتسمت الفتاة قائلة:

- بالطبع، هاتي ما لديك.

ابتسمت سيلينا ثم قالت:

- ما شعورك لو كان المسجد خالٍ من الناس؟ هل ستشعرين بالغربة مثلًا؟ أو لن تشعري بالأمان أو الراحة كما قلتي؟

نظرت الفتاة في جمود وقالت:

- بالطبع لا، لا فارق كبير عندي بين وجود الناس أو عدمه، فقد أتيت لله _عز وجل_ فقط وليس من أجل الناس، سيكون الوضع مملًا إن خرجت من المنزل إلى أي مكان وحدي بالفعل عدا المسجد، ولأنني ليس عندي صديقات فهنا أجد نفسي دائمًا.

أومأت سيلينا برأسها وهتفت بمرح:

- إذًا ما رأيك أن نصبح أصدقاء -ثم ضحكت- بشرط أن تتحملي أسئلتي الكثيرة هذه، أعلم أنها أقرب للغباء من قربها لأي شيء آخر، ولكن على أي حال تفضلي... معك رقم هاتفي، يمكنك التواصل معي.

ابتسمت الفتاة، ولكن بدا عليها التوتر قليلًا، ثم شكرتها ووعدتها أن تحادثها، وانطلقت سيلينا للخارج وقد عزمت أمرها على الذهاب للسوق الشعبي، إنه المكان الوحيد الذي يجمع الناس من كل أماكن العالم، كما أنني تعلمت أيضًا من المسجد أشياء ملهمة، ثم تذكرت شيئًا:

- اووه... نسيت أن أسألها عن اسمها، حسنًا لا بأس، نستطيع التعرف فيما بعد.

أخذت سيلينا تجول الطرقات في طريقها للسوق الشعبي، ثم سمعت صوت بكاء طفلة، فالتفتت بسرعة ثم نظرت حولها فوجدتها تبكي بحرقة، أسرعت سيلينا إليها ثم اقتربت منها في لطف، ومسحت على رأسها وسألتها:

- ما يحزنك يا جميلة؟ لا يجوز أن يكون هذا الوجه حزينًا هكذا؟

قالت الفتاة بصوت باكٍ:

- لا أجد أمي، هل تستطيعين أن تدليني عليها؟ أتعرفينها؟
- سنجدها معًا إذًا يا صغيرتي، هيا لا تبكي.

اشتد بكاء الفتاة صارخة:

- ولكني أريد أمي، أشعر بالخوف.

اقتربت سيلينا منها واحتضنتها:

- حسنًا لا تقلقي، سأوصلك لها، تعالي.

ثم ذهبت لمحل الحلويات، واشترت لها الكثير من الحلوى التي يتمناها كل من هم في نفس عمرها، فرحت الطفلة كثيرًا وتوقفت عن البكاء، وشعرت بالسعادة واحتضنتها ممتنة لها.

فأمسكت سيلينا بيدها ثم قالت:

- حسنًا أين كانت أمك ذاهبة؟
- كنا ذاهبين للسوق الشعبي.
- حقًا؟ وأنا أيضًا ذاهبة له.
- ولكن السوق مزدحم كثيرًا، لن نستطيع إيجاد أمي فيه.
- لا تقلقي، لا شك أنها تبحث عنك أيضًا، والآن سأبلغ الشرطة وستجلسين في هدوء معهم حتى تأتي أمك لأخذك، لا تقلقي لن تتأخر عليك.

أمسكت الطفلة يدها ونظرت لها ببراءة:

- لا تتركيني.

شعرت سيلينا بشعور غريب، ربما شعرت بالانتماء، أهذا هو الشعور؟ شعرت أنها تجد نفسها بالفعل، شعرت أنها لا تسير على الأرض، إنها تحلق في السماء من السعادة، لم تعد تفهمها حقًا، ثم اقتربت منها وقالت:

- لن أتركك، ما رأيك أن نصبح صديقتين؟

نظرت الفتاة وابتسمت في فرح وهتفت:

- هاااي، بالطبع أريد أن أكون صديقتك.

ابتسمت سيلينا:

- حسنًا سأعطيك ورقة تستطيعين أن تهديها لأمك، وأخبريها أن هذا رقم صديقتك وتودين الاتصال بها، وستتصلين بي وتسمعين صوتي في الهاتف، ونتحدث وألتقي بك متى تشائين، اتفقنا؟

نظرت لها الفتاة بغير فهم:

- وكيف ذلك؟

ابتسمت سيلينا وقالت في نفسها: كم أتمنى لو أكون ببراءتك.

ثم قالت لها:

- حسنًا سأبسط الأمور لك.

وأخذت ورقة ودوّنت رقم هاتفها وأعطتها للطفلة:

- الآن ستعطين هذه الورقة لأمك وتخبرينها بما حدث اليوم، وهي ستفهم ذلك وستوصلك لي.

ضحكت الفتاة في بمرح كأنها اكتشفت أمرًا جللًا يستدعي الفرحة، وهزت رأسها بحماس قائلة:

- حسنًا سأفعل.

قبلت سيلينا وجنتيها واحتضنتها، ثم سلمتها للشرطي كي يبحث لها عن أمها، بالتأكيد تقلق عليها الآن، ثم تركتها وسارت في اتجاه السوق، وأخذتها الأفكار بعيدًا بسبب ما حدث قبل قليل.

حسنًا، هل ينتمي الاطفال لآبائهم؟ وهل عندما يفقدونهم يصبحون بهذا الضعف؟ ولماذا شعرتُ بهذا الشعور الملائكي؟ هل انتميتُ فجأة للأطفال؟ حسنًا هل من الممكن أن يكون للحلوى دور؟ هل تنتمي تلك الطفلة للحلوى حتى تنسى والدتها بهذه السهولة عندما أحضرت لها الحلوى؟ ولكن لا يبدو أنها نسيتها.

إذًا توصلت للجواب! يجب أن يشاركنا شعور الانتماء أحد، وهناك إذًا ما يسمى بالانتماء لشخص ما، إذًا الانتماء يشمل الأشخاص لا الأماكن فقط، ثم هتفت في حماس لفكرة لمعت في ذهنها:

- حسنًا هذا يفسر الآن جواب الفتاة، إنها وحيدة، ولذلك لا تشعر بالانتماء للأشخاص من حولها لأنها ببساطة معزولة عنهم، ربما لو كنت سألت أحدًا آخر في نفس المكان لاختلف الأمر.

ثم رأت فتاتين تسيران في الطريق وقد أخذتهما الحكايات معًا، يبدو عليهما أبناء الخامسة عشر، فأوقفوا سيلينا ليسألوها عن الوقت لأن شحن هاتفهم قد نفذ، فأجابتهم سيلينا:

- إنها السادسة مساءًا، هل عليكما مهام يجب أن تؤدياها؟

نظرت الفتاة لها ثم قالت:

- لا... لا شيء، نحن في طريقنا للمنزل، ولكن أخذتنا الحكايات معًا وخفنا إن كنا قد تأخرنا عن المنزل، وإلا فلن يمر اليوم على خير.

ضحكت سيلينا وفهمت ما تعنيه، وتمنت لو تتذكر كيف كانت عندما كانت مراهقة في هذا السن، إنه يعجبها على أية حال.

ثم ابتسمت صديقة الفتاة وقالت:

- ما اسمك يا آنسة؟ يبدو أنك قريبة في العمر منا.

ضحكت سيلينا في لطف:

- اسمي سيلينا، أنا بالفعل قريبة منكما، عمري واحد وعشرون عامًا.

ضحكت الفتاة:

- واو... أحلم أن أكون في هذا العمر.

نظرت سيلينا لها بفضول قائلة:

- لماذا هذا العمر بالذات؟

- حسنًا أستطيع أن أكون حرة حينها، أستطيع العودة متأخرة للمنزل دون أن يوبخني أحدهم، وأفعل ما يحلو لي.

ضحكت سيلينا من سذاجة تفكيرها ثم قالت:

- إذًا وماذا تحبان أن تدرسا عندما تكونان في نفس عمري؟

أجابا معًا في وقت واحد:

- الصيدلة.

ضحكت سيلينا كما لم تضحك من قبل ثم قالت:

- يبدو أنني فتاة أحلامكم، فأنا أدرس الصيدلة أيضًا.

هتفت الفتاتان في حماس:

- حقًا؟ إذًا حدثينا عنها.
- حسنًا ليست سيئة وليست جيدة أيضًا، هل تريدون نصيحتي في ذلك؟

هتفا بنبرة تساؤل:

- بالطبع؟
- الدراسة جزء من حياتنا ولكنها لا تحدد هوياتنا في الحقيقة، لا تحكموا أنفسكم وتقيدوها بأفكار معينة، احلموا وحققوا أحلامكم، وفي خلال ذلك كونوا راضين دائمًا عن أنفسكم، فليس من المهم أن تجدوا كل ما تصبون إليه، لا تسير الحياة بهذا الشكل.

فاحتضنتها الفتاة وقالت:

- شكرًا لك، إنها المرة الأولى التي يخبرنا أحدهم أن الحياة جديرة بالعيش حتى لو لم نحصل على درجات مثالية، أنت لطيفة للغاية.

ولكنها لاحظت على صديقتها الشرود، كأنها تذكرت شيئًا ما، وبدا عليها الحزن، فنظرت سيلينا لها قائلة:

- ما بك؟
- تذكرت معلمي، كان دائمًا ما يقول لي هذا، ولكني أشعر أنه غاضب مني لأنني لم أبلِ بلاءً حسنًا في الاختبار الأخير.

نظرت سيلينا لها بتعجب:

- حسنًا لا بأس، في المرة القادمة ذاكري بجد أكبر، الأخطاء تعلمنا لا تحزننا.

ثم مسحت على رأسها بحنان.

- لا، أنت لا تفهمين قصدي، أشعر بالحزن لأنه حزن مني وليس للاختبار بذاته، أنا أحبه بالفعل، أشعر أنه أبي؛ فقد توفى أبي منذ زمن وحرمت منه، ليعوضني الله بأستاذي على هيئة أبي.

احتضنتها وقالت:

- لا تقلقي، سيتحسن كل شيء.

أومأت الفتاة برأسها في حزن، قررت سيلينا تغيير الموضوع ثم قالت:

- إذًا لم تخبراني ما اسمكما.
- أدعى رانا.
- وأنا رانيا.

ابتسمت سيلينا:

- أسماءكم متشابهة بطريقة جذابة، يبدو أنكم أصدقاء منذ الطفولة.

ابتسمت كلتاهما بحب وهتفتا معًا:

- نعم إننا كذلك.

أومأت سيلينا برأسها ثم استأذنتهم للذهاب، وودعاها ممتنين للصدفة التي جمعتهما معًا.

ثم ذهبت سيلينا ناحية السوق وقد استنتجت معلومة أخرى جديدة، يبدو أن معنى الاحتواء مرتبط بالانتماء أيضًا، فالمكان الذي يحتوينا هو ما ننتمي إليه، أو الشخص الذي يفعل ذلك.

لا شك أن رانيا شعرت بالانتماء لمعلمها حتى شعرت أنه أبوها، أرى أن المعلمين بإمكانهم تغيير الكثير من الأمور في حياتنا للأسوأ أو للأفضل، ولكني أجزم أن لهم دورًا هامًا في حياة كل طفل، وكل مراهق، وحتى في حياتي.

أذكر ذلك اليوم الذي كنت أسير فيه وحدي وأشعر بالحزن من سوء درجتي في اختبار الكيمياء، ثم قابلت بالصدفة أستاذتي دكتورة وفاء، وابتسمت لي عندما مررت بجانبها وكأنها تهتم لأمري، أذكر في ذلك الوقت أنني شعرت بأن الحياة بأكملها ابتسمت لي، شعرت وكأنني شخص مهم.

وما أثار إعجابي أنها لم تفعل شيئًا يذكر سوى أنها ابتسمت لي، ومن وقتها علمت كم التأثير الذي يمتلكه المعلمون علينا، إنهم بالفعل آباؤنا، بطريقة ما ننتمي إليهم، ولطالما اعتقدت أن صعوبة مهنة التدريس لا تكمن في المحتوى العلمي أو الأدبي الذي يشرحوه، بل في تأثيرهم الإيجابي على طلابهم.

وأيضًا البعض منهم يستطيع تغيير حياتنا تمامًا، وبشكل جذري؛ فهم يرون ضعفنا النفسي والعقلي بوضوح، ويستطيعون تحويله من الحزن للسعادة، ولكن يعتمد ذلك على مقدار حب المعلم لمهنته وحبه لطلابه، لا حد لتأثير المعلم، يبدو أن للحب علاقة وثيقة بالانتماء.

ثم ابتسمت عندما وجدت نفسها أمام السوق الشعبي، لقد أخذتها الأفكار وشعرت أن الطريق قصيرة عن المعتاد، دخلت سيلينا للسوق لترى الازدحام في كل مكان، وأصوات الناس مختلطة في كل مكان ومختلفة أشد الاختلاف.

- ولك منشان الله حاج تحكي.
- I'm very happy really to meet you here
- Prête-moi ce skate,s'il vus plait
- وأنت وشلون سويتي كذا وش صار بعدين؟
- إيه يا باشا واحشني يا عم، فينك كدا، من لقى أحبابه نسى أصحابه ولا ايه.
- .Sini için mutluy

فوجئت سيلينا بالكثير من الناس المختلفة في كل شيء، ولهجاتهم الغريبة التي لم تفهم منها شيئًا، قررت أن تترك نفسها في وسط كل هذا الحشد من الناس؛ ربما تشعر بشيء من الانتماء لأي من هذه اللهجات المختلفة أو الأشكال المتباينة.

دخلت سيلينا وعلمت أنه سوق مقسم، لكل دولة قسمها المميز بها، يبيع بها المسوقون ما اشتهرت كل بلد منهم، منهم من اشتهر بتجارة الأرز، ومنهم القطن... إلخ.

لم تجد سيلينا إجابات شافية في هذا المكان، ضحكت سيلينا ساخرة من نفسها قائلة:

- لقد قطعتي كل تلك المسافات بحثًا عن هذا المكان، ولكن الطريق كان مثيرًا أكثر من الغاية نفسها، تعلمتي الكثير من الأمور خلال طريقك إلى هنا.

وعادت أدراجها تاركة السوق خلفها، وفي الخارج لمحت عامل النظافة يزيل النفايات من الطريق، وقد بدا أنه يغني مستمتعًا ومنسجمًا للحد الذي جعله لم يلحظ سيلينا التي وقفت مشدوهة تتأمله، وقد كتب على ملابسه بخط واضح: «واخدم بلدًا أنت من أهلها *** إن البلاد بأهلها تتقدم».

شردت سيلينا قليلًا فيما قرأت، هل علاقة الأوطان بالفرد علاقة حب وانتماء أم علاقة خدمة؟ ولكننا عندما نحب شخصًا ما _أو بمعنى الانتماء له_ نحب أن نخدمه، بل نكون سعداء بذلك غاية السعادة.
ثم أسرعت سيلينا للمنزل وفي داخلها الكثير لتتخلص منه على الورق، ودخلت سيلينا للمنزل، وبعد أن حضّرت قهوتها المفضلة أمسكت بالقلم في حماس وبدأت تخط أول عباراتها.
"أمير... أتذْكُر ما قلته لك آخر مرة؟ أخبرتك فيها أنني أريد أن أعرف أين وطني الحقيقي، لا أعلم لمَ أنتمي، ولكني تعلمت الكثير اليوم، وكأن كل شيء يصرخ حولي بالإجابات منذ زمن ولكني لم ألاحظها إلا عندما سألت السؤال.
أهذه هي فلسفة الحياة؟ الحقيقة أمامك دومًا، ولكن المشكلة بك أنك لا ترغب في الالتفات لها أصلًا، يجب أن تؤلمك رأسك من التفكير في السؤال أولًا، وقد آلمتني كثيرًا يا أمير، ولم أجد ردًا شافيًا على من تكون حقيقة، لقد ظننت أنك أخي وعشت على هذا الظن لا أكثر.
حسنًا كنتُ دائمًا أعتقد أن الانتماء هو الوطن، أي أنه أصل الإنسان، مكان معيشته، دراسته في المدرسة الابتدائية، والداه، إخوته، فهم أول من نفتح أعيننا للعالم لنراهم، ولكني اكتشفت أبعادًا أخرى للوطن، الوطن ليس الأرض الذي ولدت فيها، الوطن هو الأرض التي تشعر بأنك حي فيها، وأنك ببساطة سعيد لأنك تجد من يفهمك فيها، الوطن أن تشعر بأنك حقًا تنتمي لكل ما فيه.
حسنًا سأوضح الأمر لك، إننا لسنا مشتركين في هذا الشعور، ولكننا نشترك في حاجتنا إليه، مهما حاولنا إنكار ذلك، نحن نحتاج للاحتواء، وفيه يأتي الانتماء من تلقاء ذاته.
الانتماء لا يكون للمكان فقط، لقد ولدنا في أماكن ولكننا شعرنا بالانتماء في أماكن أخرى، لقد أثارت إعجابي اليوم فتاة تتخذ المسجد المكان الأمثل للهروب فيه من كل شيء، لكني اكتشفت أبعادًا أعمق مما هو ظاهر، إنه ليس المسجد بعينه؛ وإنما حبها لله عز وجل.
وقد رأيت ما أدهشني أيضًا، فتاة حزينة ليس لأجل شيء، لقد غضب منها معلمها، ولكنه لم يوبخها، وإن فعل لم يكن ليهمها ذلك، هي فقط حزنت لأنها لم ترَ الابتسامة التي عهدت أن تراها منه، اعتادت أن ترى ابتسامته والتي تشعرها باحتوائها لها وتشعر

بوجودها حقًا، شعرت بالانتماء لابتسامته، بالانتماء لمدرستها لأنها تجمعها به، وهذا ما أثبت لي أننا ننتمي للأشخاص والأماكن التي تجمعنا أيضًا، وبالتالي نشعر أننا وجدنا سعادتنا في المكان الذي نجتمع فيه، للحب دور فعال في كل ما يجلب لنا السعادة بكل حالاتها.

ورأيت الطفلة التي تبكي لأنها أضاعت أول حضن تشعر بوجودها فيه... أمها، ولكنها سرعان ما أحسّت أن ألم قلبها يخف عندما وجدت في يدها شيئًا آخر تحبه.

أمير، لقد علمت أن الانتماء ينتمي للحب، ولأنني أشعر بأني أحبك؛ هل أنتمي لك؟ هل أخبرك بأمر ربما يضحكك؟ علمت أن الحب هو منبع كل المشاعر المتناقضة، وهذا يعني أنه سلاح ذو حدين، قرأت ذات يوم أن الحب يجعل البشر حمقى، إنه يفعل ذلك، إننا ننتمي للحب يا أمير، ربما أنا أنتمي لك بطريقة ما؛ ولذلك ما زلت أتذكرك.

هل كنت أحبك لهذا الحد؟ تُرى كم عامًا تكبرني يا أمير؟ هل ثلاثة أعوام أم أربعة؟ لا أعلم بالضبط، ليس لدي المزيد لأخبرك به، أتمنى لك يومًا سعيدًا".

وأغلقت الدفتر، ثم أحضرت كتابًا من المكتبة مع قهوتها كعادتها، إنها تنهي جميع أيامها بهاته الطريقة، وما تميز اليوم أنها اتصلت على حسن لتطمئن على حاله فأجابها بكلمات مقتضبة أنه بخير وشكرها على سؤالها ولم ينتظر ردا منها، وأغلق الهاتف فورا، وبالرغم من القلق الذي أصابها، قررت تجاهله والخلود للنوم وحسب وغدا ربما تلتقي به.

*****

الفصل الثالث

"وكم علمته نظم القوافي *** فلما قال قافية هجاني"

- أشعر بالقرف من ذكر اسمها، سأنتقم منها، يبدو أنها تراقبني في كل مكان الآن، سأنهي هذا الأمر.

انطلق حسن باتجاه مركز الشرطة من جديد، وفي هذه المرة دخل إليه، ثم ذهب للمسؤول ليسأله عن مكان التبليغ عن الجرائم فدله عليه، ثم مشى بهدوء ودخل قائلًا:

- أريد أن أقدم بلاغًا بجريمة قتل يا سيدي.
- ما هو الدليل؟
- معي سلاح الجريمة يا سيدي، لابد أنه يحمل نفس بصمات القاتل.
- وهل تعرف ما اسم القاتل؟
- نعم، إنها فتاة تدعى سيلينا.
- منذ متى حدثت الجريمة؟
- لا أعلم بالضبط يا سيدي.
- وهل تعلم أين يكون منزلها؟
- لا يا سيدي لا أعلم، ولكن أستطيع أن أترك لك رقم هاتفها، تستطيع الوصول إلى موقعها من خلاله.
- حسنًا، ولكن أين تمت الجريمة؟

وصف له مكان الحديقة بدقة وقال:

- لا أعلم من المسؤول عن دفنها، بالتأكيد هي.
- هل لي بمعرفة اسمك؟
- أدعى حسن يا سيدي.

- أحسنت يا حسن، كم أنت مواطن صالح، ونشكرك على أمانتك في المساعدة في القضاء على سفاح جديد ممن نلاحقهم كل يوم، أرجو لك ليلة سعيدة.
- ولك أيضًا يا سيدي.

يد حسن ترتجف وكأنه هو المجرم، شعر بالقرف من نفسه، ولكنه يجب أن يظهر الصمود، لا يستطيع أن يتراجع الآن، سيظنه مجنونًا بلا شك، ثم قام بهدوء ظاهري وعندما خرج من المكان، ركض ناحية السيارة وأخذ يصرخ بملء صوته ويضرب رأسه في مقود السيارة، وهو يردد:

- أنا من يجب أن يموت يا سيدي، أنا القاتل وليس هي.

فجاءه الصوت: "يجب أن تنتقم منها، لقد خططت للشر لك طوال ذلك الوقت، إنها من الفتيات، يجب أن يلقنوا درسًا ليعلموا أنكم فوقهم بدرجات، ستعود حينها خاضعة لك. ضرب حسن رأسه في السيارة مرارًا كي يسكت هذا الصوت، ولكن دون جدوى، ثم انطلق لمنزل أبيه، وصعد درجات سلم منزله سريعًا، ولكن تجاوز باب منزله وصعد لآخر دور بُني في العمارة ليذهب للسطح، ووقف على سوره ثم نظر للأسفل وقال:

- على الجميع التخلص مني، أنا من يجب أن يُقتل، أنا القاتل يا سيدي وليس هي، أنا من لابد أن يتدمر يا سيدي، أنا من أستحق أن أُرمى في السجن كجثة لا قيمة لها.

ثم صرخ وقرر قراره ورمى نفسه من سور السطح، وعم الهدوء في المكان لثوانٍ، ثم انتشر في الأرجاء صوت قوي معلنًا ارتطام شيء ما بالأرض.

هرع الناس نحوه وقد أدركوا أنه إنسان بعد فوات الأوان، لم يلتفت أحدهم إلا عندما ارتطم بالأرض، وعلى أصوات الناس خرج والداه، ويا للمفاجأة... يرون جثة ابنهم أمام أعينهم غارقة في دمائها، صرخ أبوه:

- حسن! أفق!

وهو يهزه بعنف ولا يستطيع استيعاب ما حدث بعد.

جلست أمه بجواره في حالة يرثى لها، وشهقات بكاءها ترتفع تدريجيًا حتى علا صوتها بالنحيب، وبكى على إثره كل من حضر الموقف.

قالت أمه:

- ابنيي! كان عليّ الدفاع عنك، لم تخليت عني؟

واستمرت بالبكاء ومشاعر الذنب والندم تسيطران عليها، ها هو ذا ابنها يموت بعيدًا عنها بعد أن طرده أبوه، وبعد دقائق وصلت سيارة الإسعاف، ركض المسعفون نحو الجثة، وصرخ أحدهم كان قد اقترب منه بحركة سريعة:

- نبضه ضعيف، أسرعوا وإلا فقدناه.

فصرخت الأم بانفعال:

- أرجوكم أنقذوا ابني!

ركض الجميع وحملوه مسرعين عبر سيارة الإسعاف، وتبعهم أمه وأبوه، وصلوا جميعًا للمشفى بعد دقائق، فتحرك طاقم المرضات بصورة منظمة وسريعة ليحملوا الجريح للداخل، وشرعوا بالصعق الكهربائي ولكن بلا جدوى، لم يستجب، مع بكاء أمه التي أخذتها المرضات للخارج وحاولوا تهدئتها، فأخذ الطبيب الصعق وزاد فرق الجهد تحت صراخ جميع الأطباء:

- هذا جنون! ماذا تفعل؟ أنت تقتله ولا تنقذه!

سمعت الأم ذلك فقامت تصرخ وتضرب الباب بكل ما أوتيت من قوة وهي تردد:

- لا تؤذوا ابني! ابني، أرجوك تحدث معي، قل أنك بخير، عد إليّ.

فحملتها المرضات من جديد بعيدًا عن الغرفة.

ثم قال الدكتور بتهور:

- إن مات فهو قدره على أية حال.

ولم يسمح بكلمة أخرى، ثم بدأ بالصعق عند أربعمائة (Joule)، وبعد صعقتين فاق حسن، فصدم الجميع من نجاحه وصفقوا فرحين ومنفعلين من فرط الدهشة، فقد أيقنوا للحظات أنه بلا شك في عداد الموتى، بل إن الجميع ابتعدوا عن الطبيب فورًا حتى يتحمل عقوبة موته وحده، ثم ذهبوا فورًا ليطمئنوا أمه، وبدأ الطبيب في فحصه وعندما انتهى سألت أمه:

- أرجوك أخبرني بما يسرني يا دكتور، أرجوك أخبرني ما الذي دفعه لفعل ذلك!

نظر لها الدكتور بغضب:

- بل عليك أنت شرح لماذا فعل ذلك، ولكن هو على قيد الحياة والحمد لله، ولكنه لن يستطيع التحرك أو التحدث، سيظل حبيس هذه الأجهزة لمدة شهرين أو ربما أكثر، يستطيع سماعك ويمكنك التحدث إليه، ولكنه لن يستجيب.

لم تجبه ودخلت مسرعة ناحية السرير الذي ينام عليه ابنها، ولكنها رأته مغمض العينين فلم تشأ إيقاظه، فخرجت مرة أخرى في هدوء والحزن واليأس يكسوان ملامحها، وجلست على الكرسي وكأنها ارتاحت لرؤية ابنها على قيد الحياة على الأقل، وأخذت تئن وتبكي بشدة.

أما أبوه فكان يسمع كل ما يحدث ويرى كل ذلك، ولكنه لم يتحرك من كرسيه الذي لزمه منذ شرعوا في الصعق، ولم يبدِ أي ردة فعل، وبعد بضع دقائق نظرت الأم حولها باحثة عن زوجها، وجلست بجانبه مطرقة تسيل دموعها في صمت، وشاركها البكاء الصامت حتى مر الليل وأذن الفجر معلنًا بداية يوم جديد.

*****

استيقظت سيلينا في هدوءها المعتاد كي تؤدي الفريضة، وعندما انتهت من صلاة الفجر فاجأها صوت طرق قوي على الباب، نظرت سيلينا بفزع وتوارد في رأسها آلاف الأفكار، من يكون الطارق في هذا الوقت وبهذه الطريقة؟! نظرت سيلينا في قلق وتملكها الخوف لحظات، ثم سمعت صوتًا من وراء الباب:

- نحن الشرطة، افتحي وإلا حياتك ستكون في خطر أكبر.

هرولت سيلينا مسرعة نحو الباب لترى ما يجري في الخارج، فتحت الباب لترى ثلاثة من رجال الشرطة ومعهم أصفاد اليد.

- تفضلي معنا يا آنسة، هناك شكوى في حقك.

نظرت سيلينا مندهشة لما يحدث قائلة:

- حسنًا ولكن... سأخبر صديقتي كي لا تقلق عليّ وأرتدي ثيابي وآتي.

نظر الشرطي لها بغضب قائلًا:

- هل نحن نأخذك إلى جولة، ألم تفكري في ذلك عندما قمتي بجريمتك النكراء؟!

صعقت سيلينا مما تسمع:

- أية جريمة؟ أنا لم أقم بجرائم يا سيدي، ولو كنت مجرمة بالفعل لما كنت بهذا الشكل، ولكن عليّ حقًا ارتداء ملابسي ثم الخروج.

وركضت بسرعة للداخل وأغلقت الباب خلفها قبل أن يقوم بأي شيء.

صرخ الشرطي بانفعال ونفاذ صبر:

- هل نحن نمزح؟ أنت في ورطة كبيرة إن لم تخرجي الآن.

قال أحدهم:

- دعها عشر دقائق.

دخلت سيلينا للداخل بسرعة وارتدت ما وجدته أمامها، ثم أرسلت لأميرة مقطعًا صوتيًا لتخبرها فيه عما حدث، وتركت لها مفتاح منزلها في الخارج تحت السجادة التي تفرشها أمام باب منزلها؛ كي تأخذه تحسبًا للظروف إن حدث أمر ما، وتركت هاتفها ثم خرجت.

قال الشرطي:

- يدك يا آنسة.

مدت سيلينا يدها في استسلام، وتم تقييدها وحملها في العربة إلى المركز.

نظرت لهم سيلينا ببرود، وذلك لأنها واثقة بأنها لم تقم بأي شيء يستدعي ذلك كله، والثقة تملؤها أن هناك سوء فهم فقط وأنها ستعود للمنزل مساء ذات اليوم، ولكن الفضول يقتلها عن سبب ما يحدث الآن ثم قالت:

- لماذا تأخذوني؟
- هناك شكوى في حقك.
- وما اتهامي؟
- قتل فتاة.

قالت سيلينا بانفعال ودهشة:

- ماذا؟ قتل فتاة؟!
- لا تثرثري كثيرًا.

التزمت الصمت حتى وصلوا، نزلت سيلينا ودخلت المركز بهدوء وهي ترجو الله _عز وجل_ أن تأتي أميرة الآن، فهي رغم الثقة تشعر بخوفٍ لم تشعر به من قبل.

ثم دخلت إلى غرفة المفوض، فطلب منها أن تضع إصبعها على جهاز البصمة؛ ليرى ما إذا كانت تطابق البصمة التي على السلاح، نظرت سيلينا للمسدس وهي تحاول تذكر أين رأته من قبل، ثم صدمت عندما تذكرت ذلك، حسن؟ ولكن لماذا؟ وإن كنت قتلتها، فأين؟ وكيف؟ أنا كنت أسدد به فقط، هل كان هناك شخص ما؟ ما هذا الهراء! وكيف استطاع فعلها؟

قطع أفكارها صوت المفوض:

- إنها متطابقة يا آنسة سيلينا، ألا تعلمين أن هذا خطير بالنسبة لآنسة مثلك؟

نظرت سيلينا بصدمة، لا تعلم بماذا تجبه، لا تعلم لماذا يحدث كل هذا، ثم قالت:

- ولكني لم أقم بشيء يا سيدي.
- وبماذا تفسرين تطابق البصمات؟ لقد رأينا بقايا الجثة؛ وذلك لأنه مر على الجريمة بضع أيام، واكتشفنا أنها فتاة بعد البحث طيلة الليل، لقد استلمنا الشكوى في الليل وها قد توصلنا لآخر النتائج.

لم تفهم سيلينا الكثير مما قال، أو لم تسمعه، شعرت بالخوف يتملك كل أجزاءها، وكأنها أُغشيت بصيرتها وضعف سمعها، إنها لم تقم بذلك، أي خدعة حسن وضعها فيها؟ حسنًا سأسأله عن الشخص الذي قدم الشكوى.

- هل يمكنني أن أعرف صاحب الشكوى يا سيدي؟
- وبماذا يهمك الآن؟ لن تريه من جديد، فمكانك من الآن هو السجن.

نظرت له بخوف واغرورقت عيناها بالدموع قائلة:

- ولكن يا سيدي عليّ معرفة ذلك، الأمر كان خدعة.
- خدعة؟ وهل هذا يبرر قتلك فتاة في مقتبل العمر؟
- الأمر ليس كذلك، لا شك بأن من أخبرك يدعى حسن، إنه دعاني لإمساك المسدس بدلًا من الرمح، كنا نصوب السهام وتحداني برمي طلقة نارية بدلًا

من السهم، أرجوك صدقني يا سيدي، أحضر لي حسن إلى هنا، هذا ظلم يا سيدي! افتراء! أنا لم أقم بهذه الجريمة!

نظر لها مطولًا وقال:

- حسنًا سننظر في الأمر، وسيأتي حسن، وستتقابلان في المحكمة في وجود القاضي بعد شهرين من الآن.

ثم خرج المفوض وقلب سيلينا ينبض بالأمل بأنه سوف يعود ويسمح لها بالرحيل، ولكن انتهت أحلامها عندما رأت ثلاثة من رجال الشرطة بدأوا في تقييد يدها من جديد، ثم أخذوها للخارج وهي تسأل وتصرخ:

- إلى أين تأخذوني؟ هذا ظلم!

ولكن لم يجبها أحد، وفتحوا السجن ورموها فيه كما يُرمى الشيء، وأغلقوه بإحكام وابتعدوا عن المكان.

أخذت سيلينا تصرخ وهي تضرب القضبان حولها:

- هذا ليس عدلًا! إنه افتراء! حسن! أيها الأحمق أخرج واجهني، لم أحبك يومًا، هل هذا جزائي لمحاولتي مساعدتك؟

وبعد صراخ دام لبضع دقائق هدأت سيلينا وجلست في زاوية السجن، لم يكن هناك أحد، كانت وحيدة تمامًا.

دخل الشرطي حينها، كأنه كان يستمع لها ليرى متى تهدأ، ثم قال:

- ستظلين هنا لشهرين حتى يحين موعد المحاكمة؛ لأن صاحب الشكوى مريض في العناية المركزة، لا يستطيع القدوم ولا حتى التكلم، إنه ينام هناك بلا حراك، تأقلمي على الوضع هنا، أستطيع إعطائك الطعام كل يوم، يسموني الرحيم بالسجناء هنا؛ أسلي وقتهم، وأجلس معهم، وأجلب لهم طعامًا آدميًا وليس طعام السجن، فيسرني مساعدتك إن احتجتني، أدعى عمر، وأنت؟

نظرت له بشيء من الضعف، وبعد أن أخذت تفكر في كلماته كثيرًا وبدا عليها الشرود والوجل قالت:

- سيلينا.

- ستعتادين يا سيلينا، لا بأس، إنهم شهران، ووجهك لا يبدو عليه أنك مجرمة، ستظهر براءتك لا تقلقي، والآن لدي الكثير من العمل، أراك لاحقًا.

ابتسمت سيلينا له وكأنه أعطاها شيئًا من الأمل في هذا المكان الموحش، أو على الأقل آمن ببراءتها، نظرت سيلينا حولها ثم قررت الاستلقاء مستسلمة؛ فقد تعبت كثيرًا من التفكير والبكاء المتواصل، ولا تدري كم من الوقت مر عليها وهي بهذه الحالة، كان هناك سرير صغير غير مريح للنوم فيه، ولكنه يفي بالغرض على أية حال، وبعد دقائق استغرقت في نوم عميق.

*****

استيقظت أميرة، ثم نظرت لهاتفها وسمعت كلمات سيلينا بفزع، ثم هرولت مسرعة خارج الغرفة وهي تنادي:

- أخي! أخي!

كان أخوها جالسًا على مائدة الفطور، فنظر لها قائلًا ببرود:

- ماذا تريدين؟

أخذ صدرها يعلو ويهبط وهي تحاول استجماع أنفاسها المضطربة وتقول:

- سيلينا... (وحكت له ما حدث).

نهض أخوها فورًا من مكانه:

- هيا سأنتظرك بالخارج، لنذهب لنراها.

أسرعت أميرة وارتدت ملابسها، وحملت الفطور معها لها بعد أن افترضت أسوأ الاحتمالات، ثم أسرعت لمنزلها وأخذت تطرق الباب كثيرًا، ولم يجب أحد، فاستنتجت أنها لم تأتِ بعد، وأسرعت لمركز الشرطة، كان أخوها لديه الكثير ممن يعرفهم هناك، فتوسطوا له لتدخل إلى سيلينا سريعًا قبل أن يأتي رئيس القسم، ركضت أميرة في اتجاه السجن، وعندما رأت سيلينا نائمة بهذه الحالة صرخت:

- سيليناااا.

استيقظت سيلينا وقد فزعها الصوت، ثم أخذت تحك عينيها وتنظر حولها وتقول:

- أميرة؟ أين أنا؟

ثم اقتربت منها _أي من القضبان_ وقالت:

- لا تقلقي، يجب أن نحل كل شيء، ولكن ماذا أخبروك هنا؟ أخبريني ماذا حدث؟

أخبرتها سيلينا بكل ما حدث، وكانت تتحدث ببطء وصعوبة في استجماع الكلمات.

أدخلت أميرة يدها من خلف القضبان وهي تحاول الإمساك بيد صديقتها قائلة:

- سأجد حسن وسآخذ حقك منه، لا تقلقي، سأذهب للمشفى وسأريه من يكون ليفعل بك هذا، لقد كنا نساعده وحسب، أنا آسفة يا سيلينا -ثم اغرورقت عيناها بالدموع- لقد سمحت لك بالذهاب، أنا السبب في ذلك، ماذا سأفعل دونك شهرين؟ لا سيّما أن الدراسة ستبدأ بعد شهر، سأُحضر لك الدروس كل يوم، أخي لديه الكثير من الوساطات هنا، أستطيع رؤيتك كل يوم، لا تقلقي سآتي لك، لن أتركك وحدك.

نظرت لها سيلينا وأمسكت يدها بقوة وأجهشت بالبكاء:

- ماذا فعلتُ كي أستحق صديقة جميلة مثلك؟!

وأخذت تبكي، ربتت أميرة على كتفها قائلة:

- سأجد لك حلًا لا تقلقي، لقد أحضرت لك طعام الفطور، هيا تناوليه، وأحضرت لك سلسلة من الكتب، ولكن لم أركز في العناوين التي تحملها أو موضوعاتها، خذيها، وأحضرت لك طعام يكفيك يومًا كاملًا، وبعض من الورق وقلم، أعلم أن هذا أمثل ما يسليك، استمتعي، سنثبت براءتك لا تقلقي، أنا هنا من أجلك دائمًا.

ابتسمت سيلينا وسط دموعها، كانت تريد أن تحتضنها بكل ما تملك من قوة، ولكن تبًا لتلك القضبان، وكانت أميرة أيضًا كذلك، قالت أميرة:

- هيا يا سيلينا، سآتي لك من جديد، لقد اعتدت أن أراك أقوى من هذا، امسحي تلك الدموع، أنت لست مجرمة، بل هو المجرم، لم أنتهِ منه بعد،

ولكن سأخبرك عن كل جديد سيحدث، لا تقلقي، سأذهب الآن وأبحث عنه في المشفى.

ثم دخل أخوها قاطعًا حديثهما بانفعال:

- أسرعي يا أميرة، لقد كاد رئيس القسم أن يصل، أسرعي أرجوك.

نظرت أميرة لسيلينا بحب كأنها ستترك ابنتها، وودعتها:

- اعتني بنفسك يا سيلينا.

لم تستطع سيلينا الرد سوى بدموعها، وأومأت برأسها موافقة وقالت بصوت ضعيف:

- وأنت كذلك.

ثم أخذها أخوها وذهبت مسرعة إلى الخارج، وعادت سيلينا لمكانها وأخذت تقرأ عناوين الكتب، وقررت أن تتناول الطعام بعد أن أنهكها القلق والإرهاق، ولكن بمجرد أن رأت أميرتها تغيرت ملامح الحياة في عينيها، وأصبح الشتاء ربيعًا، أميرة صديقتها التي تصبح لها في فصول العمر ربيع دائم، ضحكت وهي تتذكر أحداث الأمس، وبسمة رسمت على شفتيها:

- أنتمي لها بالطبع.

*****

خرجت أميرة وحكت ما حدث بإيجاز لأخيها، وانطلقا إلى المشفى وهي تصرخ بغضب:

- حسن! ستدفع ثمن ذلك، العناية المركزة شيء بسيط على فعلتك، أترمي جريمتك عليها أيها الحيوان؟!

نظر لها أخوها معاتبًا:

- اهدئي يا أميرة، سيدفع ثمن ذلك بالتأكيد.

هدأت حينها قليلًا، ثم وصلت إلى المشفى، ونزلت مسرعة باحثة عن غرف العناية المركزة، حتى وصلت للغرفة المطلوبة، وجدت أمًا وأبًا جالسين أمامها، يبدو أنه قد أرهقهم الحزن والانتظار، فخمنت أنهم أهله.

- حسنًا لا شأن لي بهم.

ثم ذهبت أمام غرفته وسألت الطبيب عما حدث، فأجابها الطبيب:

- لقد سقط من مكان مرتفع في محاولة انتحار باءت بالفشل في النهاية.
- وكيف هو الآن؟
- حالته ليست جيدة، يعيش بسبب الأجهزة لا أكثر، ولكن سيتحسن بعد شهرين من الآن، وحينها سوف نعرضه على طبيب نفسي لنرى ما خطبه وما سبب انتحاره.

بدت أميرة غير مهتمة وقالت:

- حسنًا وإذا تحدثت الآن هل سيسمعني؟
- نعم سيسمعك ولكنه لن يجيبك.

ثم دخلت أميرة مسرعة للداخل وقد بدا على ملامحها الغضب، لاحظ الطبيب ذلك وقال:

- ولكن يا آنسة حاولي أن تخبريه بالأمور التي تسعده، ربما هذا سيقلل مدة مكوثه هنا.

قالت أميرة بغضب:

- نعم... نعم، لدي مفاجأة له سوف تسعده.

أغلق الطبيب الباب فورًا ثم قال:

- حسنًا لا أستطيع إدخالك إذًا، نفسية المريض لا تحتمل غضبك أيضًا، ويبدو أنه تعرض لأقصى درجات الضغط النفسي لدرجة أن ينتهي به الحال منتحرًا، ما مشكلتك معه؟
- لقد اتهم صديقتي بالقتل، ذلك الحيوان! إنها في السجن بسببه، وينتظرون شفاءه كي تُعرض صديقتي وهو على القاضي ليحكم بالأمر.

نظر الدكتور وأومأ برأسه متفهمًا:

- ربما لهذا السبب انتحر، عليك الهدوء إذًا حتى يشفى ويخرج من هنا لتثبت براءة صديقتك.

نظرت أميرة له وهدأت قليلًا، واقتنعت بما قال، ثم قالت:

- هذا الشخص مصاب بمرض الفصام، لاحظت ذلك من خلال قراءتي لأعراضه على الانترنت.

نظر الطبيب لها وكأنه توصل لشيء مهم:

- إنه بالفعل كذلك، هناك خلل ما في خلاياه العصبية، لقد وجدته عند الفحص.

أومأت أميرة برأسها موافقة:

- نعم، ولكن ما ذنب صديقتي؟

أومأ الدكتور في حزن:

- لا أعلم كيف أساعدك، ولكن أرى أنه لا حل سوى أن ننتظر مرور الشهرين.

نظرت أميرة في يأس وقالت:

- هل من الممكن أن تسمح لي بالدخول؟
- لماذا؟
- حسنًا لن أهدده أو أحدث جلبة، أدخلني فقط أريد أن أخبره بأمر ما.
- أتعديني؟
- أعدك.

لم تكن أميرة تعلم أن هناك أذن أخرى كانت تستمع لتلك المحادثة، أمه التي كانت تقف على مقربة منهما قد سمعت ما قيل، واستغرقت في نوبة بكاء من جديد، ابنها يتهم الناس بالقتل؟ منذ متى ربيتك على هذا يا حسن؟ ما الذي حدث لك؟!

دخلت أميرة للغرفة بسرعة، ثم نظرت للسرير في برود واضح، ووقفت أمامه مباشرة بحيث تكون مرئية بالنسبة له وقالت:

- هل تسمعني؟ -ثم أمسكت بيده- إن كنت تسمعني حرك يدك حركة خفيفة.

فحركها ببطء.

- حسن... لقد أتيت إليك بنية مختلفة، كنت سأقتلك هنا، ولكن كل شيء سيأتي في وقته، ولا أعلم لم فعلت ذلك بسيلينا، وأنصحك بسحب الشكوى

في أقرب وقت، سأحضر الشرطة إلى هنا بشرط أن تخبرهم بأنك سوف تسحب الشكوى، هل ستسحبها؟

سيلينا لم تؤذيك قط، لقد كانت تحبك، لماذا تؤذيها؟ ماذا فعلت لك؟ لقد كانت خائفة عليك عندما رأتك بهذه الحالة في تلك الليلة، ما الذي تفكر فيه؟ والآن هل ستسحبها؟ إن كانت الإجابة نعم حرك يدك وإن كانت لا أبقها ساكنة.

وضعت أميرة يدها على يده من جديد بانتظار إجابته...

*****

في مكان ما من العالم...

- أين ذهبت سيلينا؟
- صدقني لا أعلم يا سيدي.
- ابحث لي عنها في كل مكان، لا تعُد إلى هنا بدون تفاصيل كاملة عنها.
- علمت أنها ليست في البيت يا سيدي، وقد مرّت صديقتها في الصباح اليوم على منزلها ثم اتجهت لمركز الشرطة، لم أستطع أن أعلم أكثر من ذلك.
- راقب صديقتها حتى تصل للأخبار، وفي حلول المساء عليك أن تخبرني بكل شيء، أنتظر اتصالك، هيا.

ثم أغلق الهاتف وانطلق...

*****

بقت يد حسن ساكنة تعلن الرفض في برود قاتل، احمرّ وجه أميرة غضبًا وعضت على شفتيها، كانت تريد شتمه ولكن الطبيب دخل في هذه الأثناء؛ فلم تجرؤ على الحديث، ولم تجد سوى أن تكبت غضبها بداخلها، وأخذت حقيبتها ثم خرجت مسرعة حتى لا تتسبب في إحداث مشكلة، فقد وعدت الطبيب، ثم تبعها الطبيب بخطوات سريعة قائلًا:

- يا آنسة.
- تفضل؟
- أريد معرفة تفاصيل أكثر عن مرضه وعن الأعراض التي لاحظتها عليه.

في هذه الأثناء اتصل أخو أميرة فتذكرت أنه ينتظرها منذ فترة ليست بقصيرة، فاعتذرت منه بنبرة سريعة:

- لا أستطيع الآن، أخي ينتظرني في الخارج.
- حسنًا يا آنسة سأعطيك رقم هاتفي وسأنتظر اتصالك.

أخذته أميرة، ووعدته بالاتصال به في أقرب وقت، وخرجت على عجل وركبت في السيارة التي كان ينتظرها فيها أخوها وعادا للمنزل.

*****

في مكان ما...

- لقد علمت كل شيء يا سيدي.
- تكلم.
- هي حبيسة الآن في السجن؛ فقد تم الشكاية بتورطها في جريمة قتل، وصاحب الشكوى هو حسن الذي ينام في العناية المركزة الآن، وستظل سجينة لمدة شهرين حتى يفيق حسن من غيبوبته؛ لأن حالته سيئة للغاية. لست متأكدًا من هذا، ولكن علمت أنه أقبل على الانتحار، وبعد مرور الشهرين ستعقد جلسة أمام القاضي ليعاد فتح القضية، ولكن يبدو لي أن سيلينا تجهل الكثير عن هذه الأمور، لا يوجد محامي لها كي توكله لهذا الأمر.
- حسنًا عليك أن تبقى عندك حتى مرور الشهرين، في هذه الأثناء يجب أن توكل لها محامٍ دون علمها، والأهم ألا تدرك أنه من طرفنا، يجب أن تجده الآن كي يجد الوقت الكافي لدراسة القضية جيدًا، ويجب أن تحضر هذه الجلسة دون أن يلاحظك أحد، لا تسألني كيف، معك من الوقت شهرين لتفكر في خطة محكمة، ولا أقبل أي أخطاء، وسأضاعف لك الأجر.

ابتسم الرجل قائلًا:

- اعتمد عليّ يا سيدي، هل من أوامر أخرى؟
- لا تدع سيلينا تراك ولو بالصدفة، لا تظهر أمامها بأي صورة ولا أمام صديقتها.
- أمرك.
- هيا في أمان الله.
- مع السلامة.

*****

الفصل الرابع

"ومن يتهيب صعود الجبال *** يعش أبد الدهر بين الحفر"

بعد تناول سيلينا الطعام، أمسكت بالورقة والقلم لتبدأ في كتابة أول كلماتها، وفجأة دخل عمر قاطعًا جلستها، فتحول انتباهها تجاهه، وابتسم قائلًا:

- يبدو أنك اعتدتي على المكان.
- حسنًا ليس كثيرًا.
- علمت المزيد عن قضيتك، سينقضي الشهرين سريعًا لا تقلقي، إن أطول شيء في السجن ليله.
- وماذا يعني ذلك؟ أنا أشعر بأن الوقت لا يمر من أساسه.
- في النهار يأتي أحد ما لزيارتك، آتي أنا مثلًا للتحدث معك، تنتظرين أحداثًا جديدة ربما تحدث بالخارج ويصلك خبرها لأنه وقت نشاط الناس، ويبدو أنك لم تتركي لنفسك وقتًا -ثم أشار للكتب الموجودة بجانبها- تنشغلين بالدراسة مثلًا، أما في الليل تتجمع عليك الأحزان والذكريات، لا شيء جديد يحدث، لا شيء سوى الظلام، ولكن ستعتادين، وأنا واثق بأن براءتك ستظهر يومًا ما، حتى لو لم يُعترف بها بعد شهرين.

أومأت سيلينا رأسها موافقة في صمت.

- ماذا تدرسين؟
- أدرس الصيدلة.
- وفقك الله يا صغيرتي، عندما كنت صغيرًا أصغر من سنك الحالي كنت قد قررت أن أترك المدرسة.

نظرت له بتعجب قائلة:

- لماذا؟

- كنت ساخطًا على نظام المدرسة بأكملها، لا يعجبني شيء فيها، وبالأخص نظام الدرجات؛ الذي كنت أراه قائمًا على المنافسة التي تولد الحقد والعنصرية بيننا نحن الطلاب، حدث الكثير في هذه الأثناء ورسبت عامين متتالين، فقررت الانقطاع عن الدراسة للأبد، لا أنسى ذلك اليوم الذي قررت أن أخبر أبي فيه بذلك، بعد أن كان يلقبني بالفاشل ذهابًا وإيابًا، فسئمت من ذلك أيضًا وقررت أخيرًا أن أخبره في مساء يوم ما -ثم نظر بعيدًا كأنه يستحضر المساء الآن أمامه ويرى الأحداث ويصفها- دخلت على أبي في المساء بعد أن تأكدت أنه تناول طعامه ويجلس في هدوء لا يزعجه شيء، وقلت له: "أبي... أريد ترك الدراسة، لا أريد ان أكمل بقية حياتي في هذه المدرسة ولا في مدرسة أخرى".
أذكر تعبيرات أبي التي بدت هادئة؛ فظننت لوهلة أنه سيوافق، حتى قام من مقعده وصفعني على وجهي صفعة درت على إثرها 4 مرات حول نفسي.

ضحكت سيلينا على تعبيره وقالت:

- وماذا حدث بعدها؟
- ثم أخذ يقول لي أنني إن تركتها سأعمل خادمًا في المنزل، وسأعمل خادمًا للناس جميعًا، ولن يقدّرني أحد، ولن أجد وظيفة، ولن تقبل فتاة أن تتزوج شخصًا لم يكمل دراسته.

أطرقت سيلينا في أسى وبادرته:

- وهل تزوجت؟

ضحك وقال:

- بالطبع تزوجت، والآن لدي ابن -ثم نظر لها- حسنًا لا تستبقي الأحداث.

ابتسمت سيلينا:

- بالطبع، أكمل يا عم.
- لن أكذب عليك، لقد خفت حينها وصدقت كلامه، ولكني فكرت كثيرًا قبل أن آخذ هذا القرار ووجدت أن الأمر يستحق التضحية من أجله، فبمجرد دقائق من تخيل معاناتي أيام الدراسة، بجانب التنمر الذي تعرضت له من قِبل

زملائي، والضغط المستمر من قِبل عائلتي بسبب الدروس، أدركت أنني لا أتعلم شيئًا في المدرسة، كنت أشعر بالضغط دائمًا.
وبعد جدال طويل دام بيننا وضربني حتى كاد يذهب ببصري، تدخلت أمي لتنهي هذا وتعلن أن لي مطلق الحرية في اختيار مستقبلي، ولكن بشرط ألا أعود للومهم على شيء، وأنني لن أحصل على مصروف مثل باقي إخوتي، وسأعمل خادمًا لهم في البيت؛ وذلك لأنهم كانوا يدرسون في المدرسة، وهذا عقاب لي، وهكذا جنيت على نفسي، ووافقت فلم أجد حلًّا غيره.
وذهب أبي للمدرسة وصرّح للمدير بقراري، وبدأت في العمل في التنظيف والطبخ والكثير من الأمور الجانبية، ولكني كنت دائمًا آخذ كتب إخوتي خلسة وأبدأ في قراءتها وحفظها والتمتع بها، أكاد أجزم أنني ذاكرت تلك الكتب وحفظتها بكفاءة أعلى منهم.
ولن أخفي عليك؛ كنت أفكر في العودة للدراسة حتى أحصل على كتب مثلهم، فقد أدركت حينها كم أن الدراسة ممتعة، ولكن المشكلة كانت في نظام المدرسة والامتحانات، فلا أفتأ حتى تخمد الرغبة بداخلي من جديد.
ضحكت سيلينا وراق لها حديثه:

- وهل اكتشف أحد ذلك؟
- لا، لم يعلم أحد إلى اليوم؛ لأنهم لو علموا لأعادوني للمدرسة من جديد، ولكني كنت ألحظ شيئًا غريبًا، إخوتي كانوا دائمي التذمر والشكوى، لا يحبون المذاكرة، وكنت أرى كم كان الاكتئاب يعم المكان في فترة امتحاناتهم وكأن هناك عزاء بدون ميت، القلق والخوف يرتسم على وجوههم دائمًا، وأنا أنظر هنا وهناك بتعجب، لم كل هذا؟ الأمر لا يستدعي! ولكنهم كانوا دائمًا يلقبونني بالجاهل، ويقولون لو أنني كنت في المدرسة لعلمت لمَ ذلك.

أذكر ذلك اليوم الذي تحدثت فيه مع أخي عندما رأيته يبكي لأنه حصل على علامة سيئة في امتحان الرياضيات، وكان لا يستطيع التركيز في المذاكرة لامتحان المادة التي تليها، فأخذ يبكي بشدة ويلعن الدراسة، فتحدثت معه وحضّرت له كأسًا من عصير الليمون لعله يهدأ قليلًا، ثم قلت له: "لماذا تترك

نفسك تحت تهديد الدراسة والعلامات؟ أتريد الخروج من المدرسة مريضًا نفسيًا؟".
فنظر لي وابتسم وأطرق في حزن وقال: "ليتني في شجاعتك، ولكني سأعاني بالفعل عندما أكبر إذا تركتها، كما أننا في مدينة لا تقبل الشخص سوى بأوراقه التي تثبت حضوره في المدرسة ومعاناته النفسية هذه".
فأخبرته أنه لا داعي للتفكير في تقدير الناس له؛ فتقدير الناس لن يشفيه بالفعل إذا أصيب بالجنون أو بأي مرض بسبب كثرة الضغوطات التي يحملها، وطال بنا الحديث وانتهى الأمر أنه يخشى أن يأخذ قرار مثل هذا، كان لدي ثلاثة إخوان، ولم يكن هناك فتيات في المنزل سوى أمي.
ابتسمت سيلينا وقالت:

- حفظها الله لك.

وعاد عمر ليكمل حديثه:

- وبعد أن أنهى إخواني دراستهم وتخرجوا كنت أكبر أيضًا في خدمتهم وأتلاقى الأجر مقابل ذلك، تعلمت الكثير من أمور المنزل، الطبخ وغيره، فقرر أبي أن يطردني من المنزل كي أجد عملًا، فقد توظف إخواني جميعًا، وقال لي: "إنهم يستطيعون الآن خدمة أنفسهم، وتستطيع أنت أيضًا أن تريني نتائج قرارك السخيف، وأعلم أنك ستعود وستندم على ذلك، ولكن فات الأوان".

أذكر أنني ودّعته بابتسامة على كل ما قاله لي وأهانني به، كنت احتفظت ببعض النقود رغم قلتها، ولكن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة، وذهبت واستأجرت شقة بثمن بسيط كي أعمل وأكسب المزيد من النقود وأثبت لأبي أنني أستطيع فعلها، وأن المستقبل الواعد الذي يظنه قد يُرسم بخطوط كثيرة وليس الخط الذي يراه صحيحًا فقط.
عملت في الكثير من الأمور المتشعبة، كنت أستمتع بوقتي بحق، كنت أعمل كل ما يحلو لي، أقدم لطلب وظيفة هنا ولا أنتظر ردها حتى أكون قد قدمت لخمسة وظائف أخرى، فإن قبلني واحد كان بها، وإن قبلني الخمسة اخترت أنا أحدهم ورفضت البقية.

ضحكت سيلينا وارتفع صوتها في الضحك وقالت:

- الطالب للوظيفة هو من يرفضها؟! لم أسمع بهذا من قبل، أحسنت صنعًا.

ضحك عمر ثم استطرد حكايته:

- ولكن حدث أمر ما يعد السبب في وجودي معك هنا الآن.

سيلينا بحماس:

- وما هو؟

- كنت أعمل في أحد المتاجر، ثم حدثت حادثة سرقة للمتجر، فاتهموني بسرقتها لأنني كنت آخر من خرج من المتجر يومها، ورُمي بي في السجن لمدة عام كامل، ولم يلتفت أحد لاعتراضاتي وإنكاري لذلك، ولم يكن معي النقود لاستئجار محامي، وبعد انقضاءه علم رئيس المتجر السارق الحقيقي بطريقة أجهلها إلى الآن، وسحب شكوته وخرجت من السجن، وتغيرت معاملته معي تمامًا بعد خروجي.

وأجمل ما حدث حينها أنه أعطاني أجر عمل لمدة عام كامل وزيادة عليه مبلغ إضافي اعتذارًا لي، فرحت بالمبلغ كثيرًا ولم أسأل حتى عن السارق، ولكن علمت أنه هو من جعل الأمر يبدو للجميع أنني السارق كي يبعد الشبهات عنه، ولا أعلم لماذا أنا بالذات.

ثم قررت بعدها أن أعمل كحارس للسجن بعد أن جربت ضيقة السجن بالمرء والوحدة القاسية التي يشعر بها، كنت أتمنى أن يأتي أحدهم ليلقي عليّ التحية فقط لأبدأ في سرد حكايات وقصص، والحديث دون توقف عن أي شيء وعن كل شيء.

كنت لا أمتلك النقود كي أشتري كتبًا، فأخذت أتذكر ما تعلمته من كتب إخوتي ليؤنس وحدتي قليلًا، ولكني تعلمت الكثير في السجن أيضًا، كانت أول مرة أجلس فيها وحيدًا دون أن أجد مهربًا من ذكرياتي، لقد واجهتها جميعها ولكن بعقل ناضج هذه المرة، وأدركت حينها خوف أخي الذي كنت أتعجب منه، أدركت أن أفعالنا مُسيطَر عليها من قبل الوضع الاقتصادي وآراء الناس وكلامهم بطريقة أو بأخرى، وما قمت به كان يعد بالفعل شجاعة في وسط

مجتمع رضي بحياة القطيع والخوف من التخلف عنه، لا أقصد الإساءة ولكني أشبّه الأمر بتشابه تفكيرهم في كل شيء، لم أكن فاشلًا حقًا، وأدركت أني كنت أنجَب إخوتي.

أراهنك إن أتيت بإخوتي هنا الآن لن يستطيعوا تذكر حرف واحد مما درسوه في المدرسة الثانوية أو الجامعة، ولكني لم ألتحق بهما قط ورغم ذلك أتذكر الكثير، وأحب أن أعرض عليك مساعدتي، الجامعات ستفتح أبوابها الشهر المقبل، كان أخي يدرس الصيدلة، أستطيع تذكر الكثير من كتبه وأستطيع مساعدتك.

نظرت سيلينا له في تأثر وإعجاب واضح، وردت بحماسة:

- بالطبع يسرني ذلك، ستحضر لي صديقتي الكتب وأستطيع المذاكرة هنا، هيا هيا أكمل، وماذا حدث أيضًا؟

ابتسم لها ثم قال:

- حسنًا، وبعد ذلك عملت في مطعم، كنت أجيد الطهي في منزلنا؛ كنت أطهي الطعام بدلًا من أمي دائمًا، فتعلمت الكثير عن أصوله، وبدأ يتداخل في قلبي مشاعر مختلفة لم أعهدها من قبل، لقد أحببت فتاة كانت تأتي كثيرًا لذلك المطعم، ربما أحبّت طريقتي في طهي الطعام، فعندما تأتي كنت أتسلم طلبها فورًا وأقوم بإعداده دون مساعدة - ثم غمز بعينه - وأضع المزيد من الكاتشب والمايونيز مثلًا.

ضحكت سيلينا وعلا صوت قهقهتها، واستطرد:

- حتى أتى اليوم الذي اعترفت فيه لصديق لي في العمل بهذا

ثم نظر لها فجأة وقال:

- سأخبرك بسر، أسهل طريقة للوصول لشخص تحبه ولا تستطيع مصارحته أن تصارح صديقك بالأمر، حينها ستجد حتى جيرانك يعرفون.

ضحكت سيلينا من جديد وقالت بانفعال:

- معك حق.

- دبر صديقي لي حينها لقاءًا بيننا، ولكني كنت خجولًا جدًا وتخلفت عن الموعد، ووبخني على ذلك، ولكن لا بأس، وقررت أن أتبعها في يوم ما حين تعود لمنزلها لأعرف مكانه، وعرفته بسهولة؛ فقد كانت تمر على مطعمنا بعد الانتهاء من عملها.
وقررت العودة لمنزلنا رغم أني لم أحب الأمر، ولكن وجدته الشيء الصواب والذي عليّ القيام به، وعُدت لأمي لأخبرها عن أمر تلك الفتاة وما وقع في قلبي تجاهها، سرّت بسماع ذلك كثيرًا وذهبنا بالفعل وطلبت يدها من أبيها، وأشعر بالفخر إذا أخبرتك أن أبي عرض عليّ أن يساعدني في تكاليف الزواج ولكني رفضت عرضه، شعرت بندمه حينها، ولكن كان قد فات الأوان على ذلك، وكنت أنا أول من تزوج من إخوتي، وتزوجتها وأحببتها أكثر من السابق، ولدي الآن ابن جميل يدعى أنور يصغرك بسنوات قليلة، ومحب للتعلم مثل والده، وقد ألحقته بمدرسة، وقد شاركتك ذلك لأنه يبدو أن لدينا نقطة مشتركة.

وأشار للكتب ونظر لها وابتسم وقال:

- نحب القراءة.

ابتسمت سيلينا بعمق وكأنها لم تسمع قصة جميلة مثل هذه من قبل وقالت:

- دائمًا ما كنت أؤمن أن قصة كل إنسان في العالم تستحق أن تُحكى، وأنت أثبت لي ذلك الآن.

ثم أخذت كتابًا عشوائيًا وقالت:

- تستطيع قراءة هذا الكتاب، ولكن استعارة فقط فلم أقرأه بعد.

ابتسم لها وقال:

- حسنًا لا تقلقي، لست سارقًا، لقد ظهرت براءتي منذ سنوات.

وقهقه قائلًا:

- أريد أن أخبرك يا صغيرتي أن الشاهد من حكايتي أن تفعلي ما ترينه مناسبًا لك وحسب، ليس بالضرورة أن ما يفعله كل الناس يكون صحيحًا، ولا تسمحي لأحد بأن يحدد لك ما ستؤول عليه الأمور في حياتك، إن البشر لا يستطيعون اليقين بما سيحدث لهم في الغد، هل يستطيعون اليقين بما

سيحدث لك بعد عام من الآن؟ هذا درب من الجنون، لقد حكم أبي منذ أعوام أني لن أتزوج، ولكني تزوجت، وأشعر بالسعادة والامتنان لهذا.

وعلى ذكر زوجتي... لابد أنها تشتاق لي الآن، وأنا أشعر أنني أشتاق لها، سأذهب لها يا صغيرتي، وأرجو أن تكوني قد تعلمتي اليوم درسًا مختلفًا عن دروس الجامعة المملة، سآتي لك غدًا بالتأكيد، اهتمي بنفسك.

ثم قام من مجلسه، وودعته سيلينا بحرارة، وتمنت له يومًا سعيدًا كما أسعدها اليوم بقصته الملهمة، وتفاجأت بانقضاء اليوم وحلول الليل سريعًا، ثم نظرت لورقتها وقررت أن تخط أول عبارة:

"لقد آمنت اليوم أن الحكم على الناس دون فهم هو السبب الحقيقي وراء أفعالهم من التنمر، لقد تعلمت بالفعل درسًا لو قضيت حياتي كلها في الجامعة لم أكن لأتعلمه، إن المختلفين عنا ليسوا سيئين، إنهم محقون أكثر منا".

ثم شعرت بالنعاس وغطت في النوم.

*****

جلست أم حسن بجوار ابنها تحكي له الحكايات المبهجة عن طفولته تارة، وعن طفولتها تارة، واعتذر له أبوه على طرده وبكى أثناء ذلك، ووعده بأنه سيأخذه لغرفته في المنزل، وسيفعل له كل ما يشاء، وسيبحث له عن وظيفة تناسبه، وسيتركه يكمل سنوات دراسته، وسيتكفل هو بذلك بشرط أن يعود له فقط، ولكن لا يوجد استجابة من قبل حسن.

*****

عادت أميرة للمنزل مع أخيها، وطلبت منه أن يسأل أصدقاءه عن موعد عمل رئيس القسم خارج المركز الذي يوجد فيه سيلينا؛ كي تقضي معها أطول وقت ممكن، وقررت أميرة تحضير طعام الفطور والغداء والعشاء كل يوم من أجلها، وإن سمحوا لها

ستتناوله معها بالتأكيد، يجب أن تكون معها دائمًا، وأخذت تفكر ماذا ستعد لها، ثم أبعدها عن أفكارها صوت هاتفها يرن معلنًا عن اتصال رقم غريب، افترضت أنه الطبيب وكان افتراضها صحيحًا:

- السلام عليكم يا آنسة أميرة، أنا الطبيب الخاص بحسن.
- وعليكم السلام، أهلًا بك.
- حسنًا لقد وجدت وقتًا فارغًا الآن كي أدرس حالة حسن بالتفصيل، أخبريني عن كل شيء.

فأخبرته أميرة بكل التفاصيل، وأعطته المواقع التي استعانت بها للوصول لهاته النتائج كي يتأكد من صحتها، وأغلقت الهاتف وأكملت تخطيطاتها، حتى أرهقها التفكير وغطت في نوم عميق.

ومر الشهر الأول على أميرة قلقًا، كانت تخاف أن يحدث أي شيء آخر غير مرتَّب له لصديقتها العزيزة، وتدعو الله _عز وجل_ كل يوم أن تنتهي الشهور سريعًا وتظهر براءتها.

ورتيبًا مملًا على سيلينا إلا من وجود الحاج عمر في حياتها، الذي كان يسليها بحكاياته التي تعلمت منها ما لم تكن تحلم أن تتعلمه، وآمنت أن التعلم من مدارس الحياة أكثر تأثيرًا من المؤسسات التعليمية وأنظمتها الرتيبة في تلقين المعلومات، وقد أحبت الحاج عمر بحق، وحكت له سيلينا ما حدث مع حسن بالتفصيل وصدّقها فورًا، وأباحت بحقيقتها ولم يكذّبها البتة، بل حاول أن يسري عنها، ولم يجد في عقله حلولًا علها تساعدها فاكتفى بالصمت.

وكئيبًا حزينًا مليئًا بالندم وصامت على حسن وأهله؛ فلم يحدث تحسن في حالته، الصمت المميت يعم المكان، ودموع ندم الأب وحسرة الأم.

ومضطربًا لشخصنا المجهول الذي حُكم عليه بالجلوس شهرين في بلد غير بلده، وقد دبر المحامي المناسب في الخفاء، وخطط لوضع جهاز للتصنت صغير الحجم غير مرئي في قاعة المحاكمة حين يأتي وقتها؛ كي يوصل لرئيسه كل ما يجري، ولكنه أخذ يفكر كثيرًا في مصيره وردة فعل سيده إن لم يتنازل حسن عن القضية ودخلت سيلينا للسجن، فلم يضيع وقتًا أطول في التفكير، والتقط هاتفه ليتصل بسيده فورًا وأخبره بشكوكه، فأخبره أن يحاول أن يغري حسن بمبلغ محترم من النقود لعله يتنازل عنها، وحزم أمره على أن

يفعل ذلك، وكان يتابع حالة حسن الصحية في خفاء حتى يجد الوقت المناسب ليعرض عليه ذلك.

وتم توصيل الظرف في نهاية الشهر كالعادة، وأدخله الشخص المكلف بذلك من تحت الباب ليستقر على الأرضية ثم رحل.

وأشرقت شمس الشهر الجديد بلوعة في نفس سيلينا برؤية شروقها وغروبها، أما أميرة كانت متوترة طوال الليل وهي تردد:

- يجب أن نقوم بأمر ما، يجب أن تحضر سيلينا أول يوم بأية طريقة، وإلا فيجب عليها تقديم عذر يُقبل على تغيبها كل هذه المدة.

وأخذت من بيت سيلينا بعد استئذانها بطاقة دخولها للجامعة، بقي أن تدبر شخصًا ما لفعلها، ولكن سيلينا كانت أسرع منها في القرار وأخبرتها عن رقم الفتاة التي قابلتها في المسجد، وأنها ربما يسعدها المضي في الجامعة باسم سيلينا.

وفعلت أميرة ما طلبت، وعلى نحو سريع وافقت الفتاة ورحبت بالفكرة، واتفقت مع أميرة أن تتقابلا قبل موعد بدء الكلية بساعة حتى تجعلها تبدو مثل سيلينا تمامًا في هيئتها، لن يركز حارس البوابة أو دكاترة الجامعة على شكلها، المهم أن تكون الهيئة متشابهة فقط.

وبالفعل تقابلت الفتاتان، كانت الفتاة تدعى أسيل، ورحبت بها وأعطتها أوراق سيلينا، وعدلت هيئتها فأصبحت أقرب لسيلينا ما عدا ملامحها، وعندما انتهت أميرة ضحكت وقالت:

- يجب أن نغطي وجهك الآن بلاصق للجروح، ستدّعين أنك سقطتي من الدرج من كثرة حماسك للعودة للدراسة.

ضحكت أسيل كأنها لم تضحك أبدًا في حياتها، ثم انطلقت الفتاتان حتى وصلا عند باب الجامعة.

وقفت أميرة أمام الحارس، قال الحارس:

- بطاقتك يا آنسة.
- تفضل.

مدت أسيل يدها لتريه بطاقتها بدورها، فبادرها:

- ما بال عينك؟

ارتبكت أسيل كثيرًا ولم تعرف ماذا تقول، فتدخلت أميرة فورًا قائلة:

- لقد سقطت من الدرج البارحة يا سيدي وتشعر بالدوار جراء ذلك، ولكن تعلم أن أول يوم مهم وعليها حضوره، نرجو المعذرة.

هز رأسه متفهمًا وفتح الباب وسمح لهما بالدخول.

تنهدت أميرة في راحة كبيرة، وأمسكت بيد أسيل التي ظلت ترتجف بطريقة غريبة مطأطئة الرأس، وتمشي بخطوات مهزوزة مرتعشة بجانب أميرة ولم تتكلم أبدًا، استغربت أميرة من حالها وشعرت أن هناك خطب ما، فأمسكت بيدها وهزتها قائلة:

- هيه... أسيل؟ لقد نجونا، وأنت أحسنت بصمْتِك، كدنا نلحق بسيلينا في السجن.

نظرت لها أسيل وابتسمت ابتسامة مصطنعة ظاهرة، وأكملت السير ويدها ما زالت ترتجف، أوجست أميرة في نفسها خيفة وشعرت أن هناك خطب ما، ولكنها طمأنت نفسها بأن تقول:

- على الأقل تستطيع المشي، هي غريبة على أية حال، ربما هذه هي طبيعتها.

ثم ذهبت مجموعة من الفتيات ليلقوا التحية على أميرة ويسألوها عن سيلينا _في هذه الأثناء كانت أسيل قد اعتذرت واستأذنتها بأن تذهب لدورة المياه_ فأخبرتهم أنها ذهبت إلى دورة المياه، وأخذتهم الأحاديث حتى نسوا وجود سيلينا، وانصرف كل منهم ليبحث عن جدوله لهذا العام الدراسي وشراء الكتب وبداية حضور المحاضرات المقررة، ثم نظرت أميرة حولها ولم تجد أسيل فهمهمت في نفسها:

- لا أشعر بالراحة حقًا، أشعر أن بها شيئًا ما، وقد تأخرت بدورة المياه.

ثم ذهبت في اتجاه دورات المياه كي تبحث عنها، في هذه الأثناء سمعت صوت صراخ فتاة يأتي من جهتها، اجتمع الكثيرون قبل وصول أميرة فحجبوا الرؤية عنها، هرولت أميرة، وكان إحساسها صادقًا أن أسيل حدث لها مكروه.

أخذت تدفع الناس الذين تجمعوا حولها حتى وصلت إليها، فوجدتها قد سقطت على الأرض مغشيًا عليها والدم يتسرب من فمها، أمرت أميرة من حولها بإحضار الماء، وإخبار الإسعاف الخاص بالجامعة، وبإحضار روائح قوية، وهي تدعو في سرها أن تفيق على

يديها دون الحاجة للمرور على الأطباء، تخشى أن يلاحظ أحد ما شيئًا عن هويتها التي لا تنتمي للجامعة أصلًا.

أخذت ترش الماء على وجهها وتهزها بعنف دون فائدة، وفحصت نبضها، كان ضعيفًا للغاية، ومن بين هذا الزحام أخذت فتاة تدفع الفتيات هنا وهناك كي تصل إليها، وعندما وصلت أخذت تصرخ:

- سيليناا.

انتبهت لها أميرة، ولكنها لم تكن تعلم أن هذه الفتاة تعرف سيلينا من الأساس، أميرة دائمًا مع سيلينا ولا تفارقها في الجامعة أبدًا، وتعرف كل أصدقائها، من أين ظهرت هذه؟! لم ترتح لها أميرة، ولكن لا وقت لديها الآن للانشغال بها.

*****

استطاع حسن أن يحرك كلتا قدميه، وسعدت والدته بذلك واحتضنته فرحة، وعاهد الطبيب نفسه على بذل كل المجهود من أجل علاج مرضه النفسي، ويبدو أن جلوسه المستمر وحديثه معه له ناتج إيجابي، وارتفع احتمال شفائه بنهاية هذا الشهر، فهناك فتاة لا ذنب لها تجلس خلف القضبان نتيجة تهوره، لم يصارح الطبيب أمه بذلك أبدًا، ولكن أمه تعلم كل ما حدث، وأخذت قرارًا أجلت تنفيذه للوقت الذي تراه مناسبًا.

*****

كان الحاج عمر يجلس مع سيلينا كعادته، وقد أحضر لها القهوة، وكانت أميرة قد أحضرت لها الشوكولا في الليلة السابقة، ووعدتها أن تأتي لها بعد انتهائها من يومها الدراسي الأول مباشرة، وأن تأتي أسيل معها، وتعطيها كل ما اشترته لها من كتب، وجدولها لهذا العام، وشرح المحاضرات الذي ستكتبه من أجلها، وكانت سيلينا ممتنة لذلك كثيرًا.

وقررت أن تعيش اليوم في السجن بعيدًا عن بيتها وألغازها التي باتت تضايقها، لقد علمت أن أسوأ شيء في الحياة ليست النهايات الحزينة؛ وإنما المفتوحة (اللانهاية)، ليست الأسئلة التي تحمل إجابات صعبة؛ بل الأسئلة التي لا تحمل إجابات، فيعيش المرء يتخبط بين إجابات افتراضية، حتى تتشوش كل الحقائق أمامه ويعيش في حالة من الفوضى.

حكا لها الحاج عمر كيف تُوفي والده بعدها، وما آلت الأمور عندما تُوفي، لقد صرح لسيلينا أنه لم يحزن على والده بحق، لقد حزن أكثر لأنه كان يتمنى أن يشعر ليوم واحد أن لديه أب ليحزن عليه، عكس إخوانه الذين شعروا أنهم فقدوا سندهم الوحيد في الحياة، وكان الغريب في الأمر أنه ترك نصف نقوده للحاج عمر والنصف الآخر لباقي إخوته، وكتب وصية أنه يفتخر بكون عمر ابنًا له، وضحك عمر عندما رأى ذلك، وتذكر حينما كان يلقي القمامة عليه ليأخذها خارج البيت وينعته بالجاهل.

كانت سيلينا تستمع له وهو يسرد عليها التجارب والنظريات التي تعلمها من كتب إخوته كل يوم في شغف حقيقي، وعن ابنه أنور الذي كان دائمًا ما يتحدث عن مدى حبه الشديد له، وقوله إن الأطفال يحتاجون دائمًا لأن نؤمن بهم ونحبهم دون شروط، أن نمسك يدهم عندما يتعثروا، ويحتاج المراهقون فهم الحياة، وتنمية الثقة لديهم، ومحاولة التقرب منهم بكل الطرق، وتكوين صداقة متينة معهم؛ فكثيرًا ما نخطئ في هذه الفترة ربما أخطاء نندم عليها حياتنا كلها، وربما أخطاء يأخذ الندم عليها وقته ثم تطوي صفحات الذاكرة ذلك، ودائمًا ما يحتاج الشباب إلى الدفعات الإيجابية وإعطاءهم مطلق الحرية للانطلاق في الحياة، وذلك بعد العمل على تكوين قيم صالحة بداخلهم في فترة المراهقة.

وحكى لسيلينا شيئًا أثار إعجابها كثيرًا، حتى أنها دوّنته في مذاكرتها، وهو أنه قد علّم ابنه منذ الصغر أنه عند حدوث أمر ما في حياته يتطلب منه اتخاذ ردة فعل؛ أن ينظر ليده اليمنى باعتبارها تمثل الخير، واليسرى باعتبارها تمثل الشر، ويبدأ بالموازنة بين يديه الاثنتين، ودائمًا عليه أن يرجّح كفة الخير، ويفعلها مهما بدا الخير صعبًا.

والخير هنا يشمل كل شيء، مثلًا التسامح؛ عندما يخطئ في حقك شخص ما فإن ردة فعلك واحدة من اثنين: إما أن ترد له الصاع صاعين، أو أن تواجهه وتتحدث بلباقة أنه أساء التصرف معك إن كان يهمك أمره، وإن لم يكن تتجاهله وتسامحه وحسب.

وقد سُرّ كثيرًا عندما تضايق ابنه من صديق له في المدرسة، فذهب وقال له ذلك مباشرة، وقال له أنه يهتم لأمره ويحبه ولكنه أغضبه، فاعتذر صديقه له عن ذلك واستمرت علاقتهما على خير ما يرام، وهو يشعر بفخر كبير به، وقد شبه ذلك بفخر أبيه بإخوته لإكمالهم الدراسة، وقال ذلك وهو يسخر منه بالطبع.

*****

وصل الإسعاف وحملوا أسيل بسرعة، وركضت خلفها أميرة وكل من يعرفون سيلينا كذلك، وتلك الفتاة المجهولة التي سبقت أميرة خلف السرير المتحرك التي تنام عليه أسيل، ووصلوا للغرفة ثم وضعوا لها جهاز الأكسجين فورًا كي تتنفس، وبعد محاولات كثيرة فتحت أسيل عينيها أخيرًا، وحمدت أميرة الله _عز وجل_ أنهم لم يضطروا لإزالة ضمادة العين التي تضعها على عينها.

لاحظت أميرة نظرة الفتاة المتسائلة لأسيل كأنها قد شكت في أمر ما، ثم استفاقت أسيل من الغيبوبة، وأعطوها القليل من عصير البرتقال كي تشربه علها تستعيد وعيها قليلًا، وحضنتها الفتيات قائلات:

- حمدًا لله على سلامتك، لقد أخفتنا كثيرًا.

ظلت أميرة تراقب الفتاة التي لم تتحرك من مكانها، وكأنها تأكدت شكوكها أن هذه ليست سيلينا، ثم أشاحت بوجهها عنها وذهبت، لم تجد أميرة وقتًا للتفكير في أمرها، ثم هرولت ناحية أسيل بعد انتهاء الفتيات من احتضانها، وساعدتها على السير على قدمها، وخرجوا معًا شاكرين الطبيب، وأثناء سيرهم قالت أسيل:

- لماذا ينادونني سيلينا؟
- تذكري ما فعلناه اليوم في الصباح، بالتأكيد لم تنسَي ذلك.

أطرقت أسيل للحظات ثم هتفت:

- نعم نعم تذكرت كل شيء، ما الذي حدث لي؟
- هذا ما أود سؤالك عنه، تذكري ما حدث في دورة المياه وأخبريني، تعالي نجلس خلف الشجرة هناك وأخبريني بكل ما حدث.
- حسنًا هيا.

ثم جلسا على الكرسي هناك، وشعرت أميرة في هذه الأثناء أن هناك من يراقبهما، فنظرت حولها فلم تجد أحدًا، فطردت هذه الأفكار من رأسها، وأخذت تحاول جعل أسيل تتذكر ما حدث لها عندما ذهبت لدورة المياه، وكانت أسيل تتذكر ذلك جيدًا، ولكن يبدو أن هناك أمرًا أهم من هذا الآن، وقررت أن تصارح أميرة به، وأوصتها أن يبقى هذا الأمر بينهما، ووعدتها أميرة بذلك، قالت أسيل:

- حسنًا، أنا لدي فوبيا اجتماعية؛ لا أستطيع التحدث مع أحد، أشعر بالخوف من وجودي وسط عدد كبير من الناس، وتسوء حالتي كثيرًا كما رأيت، ولا أمتلك أصدقاء، وقد طلب خطبتي الكثيرون ولكني لم أستطع مواصلة الأمر، ولذلك رفضت الزواج، ولم أستطع إكمال دراستي، ولم أستطع مصارحة أحد بالأمر ما عاداك.

أطرقت أميرة في أسى، ولكن سرعان ما لمعت في ذهنها فكرة ما وقالت:

- إن علاج الخوف هو مواجهته وليس الهروب منه، لن تسوء حالتك من جديد إن واجهته هذه المرة، أنا هنا معك.

ثم أمسكت يدها وقالت وقد لمعت في ذهنها فكرة أخرى:

- وسأجد لك حلًا مثاليًا، ولكن بعد أن ننهي هذا اليوم، هيا بنا... يجب أن نُحضر جدولنا والكتب المطلوبة، ويبدو أن أول محاضرة قد بدأت منذ زمن، دعينا نسرع ربما لم نتأخر لهذا الحد وهناك أمل في الدخول.

أخذت أميرة الجدول واشترت الكتب، وبالطبع اشترت لسيلينا معها، وكلما تحدث أحد مع أسيل كانت أميرة تمسك يدها مطمْئِنة، وتخبرها بأنه لا داعي للقلق وأنها سوف تواجه هذا الخوف، واكتسبت أسيل قوة؛ فلأول مرة تتخذ قرار مواجهة الخوف وليس الهروب منه، ووصلتا المحاضرة متأخرتين وبررت أميرة للمحاضر ذلك بمرض سيلينا (أسيل)، فتفهم موقفها وسامحها لأنه أول يوم في الجامعة، فضحكت أميرة وهي تأخذ مقعدها لتجلس وقالت:

- أول يوم في الدراسة يوم منح لا تتكرر طوال العام.

وضحكت أسيل بدورها، وانقضى اليوم سريعًا بالنسبة لأميرة لانشغالها في الإنصات والمشاركة والكتابة، بينما كانت أسيل تقرأ القرآن طوال الوقت، اتصلت أميرة على أخيها

بعد انتهاء يومها الجامعي، وأصرت أن تأتي أسيل معها لرؤية سيلينا رغم أنها لم توافق على الأمر، ولكنها رضخت لإلحاح أميرة في النهاية.

لاحظت أميرة أنها قد رأت تلك الفتاة الغريبة كثيرًا اليوم في الجامعة على عكس العادة؛ كأنها تتبعها، فتنهدت بغضب:

- ما كان ينقصني سوى هذا! هناك الكثير لأفعله.

ثم التفتت لأسيل:

- حسنًا ما رأيك؟ كيف كان اليوم؟
- أقول الحق، كان يومًا استثنائيًا بالنسبة لي.

ثم وصل أخوها وركبوا السيارة وانطلقوا للسجن، كان الحاج عمر قد استأذن من سيلينا منذ نصف ساعة من أجل عمله، لم يتصادف وجود عمر مع أميرة أبدًا، ثم وصلوا إلى السجن ودخلوا سريعًا؛ فلم يكن رئيس القسم موجودًا، وكانت قد اشترت أميرة لها طعام الغداء في الطريق، وعندما رأتها سيلينا وقفت من مكانها ونظرت لها بإحباط والدموع تملأ مقلتيها:

- أميرة، اشتقت لك، أشعر بالوحدة هنا.

فربتت أميرة على كتفها وقالت:

- لم يبق سوى القليل وتظهر براءتك، لا تقلقي -ثم ابتسمت بمرح- انظري ماذا أحضرت لك معي.

ثم دخلت أسيل، وسعدت سيلينا بوجودها، وبادرتها بتوتر:

- كيف حالك؟ أتعبتك معي، أرجو المعذرة منك.

ابتسمت أسيل بفرح وقالت:

- بل عليّ شكرك، حظيت بيوم استثنائي بالفعل، أشعر بالامتنان لك.

ابتسمت سيلينا لها:

- لا داعي لشكري، استمتعي بوقتك دائمًا، ويسرني أن راق لك المكان.

ضحكت أميرة وقالت:

- يجب أن أخبرك بما حدث، فُضحنا في الجامعة اليوم بسببها.

عاتبتها أسيل بنظراتها الغاضبة على الحديث عن هذا أمام سيلينا:

- لا تقلقي من سيلينا، أختي تعرف كل شيء.

نظرت سيلينا لكلتيهما وقالت:

- سأنفجر هنا، ما الذي حدث؟
- سأخبرها.

أسيل باستسلام:

- حسنًا سأخب..

قاطعتها أميرة:

- سأخبرها أنا.

وقصت عليها القصة بأكملها، ما عدا اعتراف أسيل، والفتاة التي أثارت شكوكها، وأعطتها الكتب التي اشترتها لها، وسعدت سيلينا بأن هناك جديدًا ما سيشغل أيامها كي تمر أقل صعوبة من قبل، لولا وجود عمر بالطبع لكانت ماتت في مكانها مللًا ووحدة، وتبادلوا أطراف الحديث وضحكوا كثيرًا، وبدت أسيل وكأنها تتحدث للمرة الأولى في حياتها، وربما حقًا هي كذلك، وتناولوا سويًا خلف القضبان طعام الغداء، وبعد مرور الساعات هرول أحد الحراس إليهم وقال:

- الرئيس سيصل بعد قليل.

فطلبت منه أميرة أن يفتح باب السجن؛ فقد اشتاقت أن تحتضن صديقتها، رفض الحارس في بداية الأمر، ولكن بعد محاولات كثيرة وافق وفتح الباب، واحتضنت أميرة سيلينا وودعتها، وأعطت لها الأكياس التي حملتها من أجلها، وودعتها أسيل أيضًا.

ثم انطلقت الفتاتان بعد أن أصرت أميرة أن توصل أسيل إلى بيتها، وعندما وصلت أميرة لمنزلها تنهدت بتعب، وبدلت ملابسها وشربت عصير الليمون ليهدئ من أعصابها، واستسلمت لأحاديث نفسها، عليها أن تنهي أمر أسيل أولًا، ثم اتصلت على الدكتور الخاص بحسن، فرحب بها ثم قالت:

- دكتور أود منك خدمة من فضلك.
- تفضلي يا آنسة.

- لي صديقة تعاني من فوبيا اجتماعية، وساءت حالتها كثيرًا اليوم عندما أتت معي للجامعة، كما أن ذلك كان له تأثير كبير في حياتها العاطفية ولم تتزوج إلى الآن.
- حسنًا سأتعامل مع الأمر بنفسي، تستطيعين أن تحضريها لي هذا المساء.
- حسنًا سأفعل، شكرًا لك أيها الطبيب.

اتصلت أميرة فورًا بأسيل وأخبرتها أنها أخذت لها موعد مع الطبيب.

قالت أسيل بغضب:

- أنا لست مريضة نفسيًا يا أميرة، لماذا فعلتي هذا؟ ماذا ستقول أمي الآن؟
- وهل كونك مريضة نفسيًا يؤذيك لهذا الحد؟ جميعنا مرضى بطريقة أو بأخرى، عليك التعامل مع الأمر، تستطيعين الاعتبار أنك تعانين من الانفلونزا مثلًا وأنك تذهبين في جلسات لتتلقي العلاج، عليك تجربة ذلك بنفسك يا أسيل، أحسنت بمواجهة خوفك اليوم، والآن عليك مواجهة هذا المرض، كونك مريضة بأي مرض كان لا يقلل من شأنك، جميعنا عرضة للمرض دائمًا، حتى أنا عرضة له، إنك تقللين من شأنك عندما تكونين أضعف من مواجهته، لهذا استمعي لي ولا تغضبي، وجدت لك الحل المثالي، وأنا أعرف هذا الطبيب؛ لا قلق منه، وسوف يساعدك، لا يجب أن تبقي حبيسة هذا المرض طوال حياتك، صدقيني، عليك فعل شيء ما من أجل نفسك قبل أن يأتي الوقت الذي تندمين على هاته اللحظة بالذات لأن الفرصة كانت أمامك ولكنك رفضتها.

واستعادت أميرة أنفاسها، كانت تتحدث بانفعال، واقتنعت أسيل بحديثها سريعًا وابتسمت في نفسها، وحمدت الله _عز وجل_ الذي جمعها بأميرة، وقالت:

- سأواجه أمي بالأمر، أنت محقة، عليّ التحرر من هذا حقًا، على الأقل آمنت لأول مرة أنه ربما هناك حل حقيقي.
- أحسنت، أنت تبلين حسنًا، سأمر عليك مساءًا لآخذك للطبيب، انتظريني.

تذكرت أسيل أمرًا مهمًا:

- ماذا عن سيلينا؟ ستتغيب شهرًا عن الجامعة إن انشغلت أنا بالعلاج؟

- أنت لن تظلّي طوال اليوم في المشفى، إنها جلسات متقطعة فقط، وسيلينا ليست مجبرة على الحضور كل يوم، سأذهب غدًا بمفردي وأعتذر عن غياب سيلينا، والعذر جاهز من اليوم بدليل سقوطك مغشيًا عليك في الجامعة.
- حسنًا يا أميرة سأغلق الآن، لن تقتنع أمي بسهولة، يجب ألا أضيع الوقت أكثر، سأحاول إقناعها بالأمر حتى المساء.
- عملًا موفقًا، يجب أن تقتنع.

وأغلقت الهاتف وجلست وعقلها مشغول بأمر تلك الفتاة، يجب أن أتحدث إليها غدًا، وربما تأتي هي لتسألني عن سيلينا، تعمدت جعلها تغيب غدًا كي تأتي لسؤالي عنها، وإن لم تأتِ سأذهب أنا أتحدث معها مباشرة وأسألها عن اسمها، وبعد أن أحل تلك الأمور سأخبر سيلينا عن كل شيء، فلا أريد إثارة قلقها الآن، ثم أخذت أميرة قيلولة قصيرة.

*****

بعد رحيلهم شعرت سيلينا بالوحدة من جديد، ولكنها عكفت على مذاكرة الكتب والمحاضرات التي أحضرتها لها أميرة، وكانت تنتظر قدوم الحاج عمر بفارغ الصبر، ولكن خاب ظنها ولم يأتِ الحاج عمر؛ فأصابها ذلك بالحزن، حتى أقبل الليل وهدأت الأصوات، فبدأت في الكتابة.

هل ذنبي تلوين قوس قزح ليلًا؟ أو الكتابة عن الهدوء وسط صراخ الجميع؟ هل ذنبي أن يأخذني ذاك المجهول بداخلي إلى عالم لايشبه واقعي البتة؟ وكأن عالمي هو المألوف الوحيد لي وما سواه غريب رغم واقعيته.

وفجأة انقطعت الكهرباء، نظرت حولها في قلق وتركت القلم من يدها، ارتجفت أوصالها ونهضت من مكانها كي تضئ أي مصباح، ولكن لم تجد شيئًا تستطيع استخدامه.

نظرت حولها، إنها تشعر بشيء ما يتحرك ولكنها لا تستطيع تحديده، انتفض داخلها خوفا وأخذت يدها ترتجف وجسدها يرتعد، وهبطت دموعها رغمًا عنها وهي تسمع وقع خطوات أقدام شخص تقترب، وظهرت شمعة في يده كي يضيء طريقه بها.

استرقت سيلينا نظرات خجلة وازداد خوفها عندما رأت ظله، فجلست القرفصاء في زاوية من زوايا السجن وهي ترتجف وتبكي، وعندما اقترب الشخص نظرت إلى قدمه، كان يرتدي نعلًا أسودًا ضخمًا، ثم اقترب الشخص منها أكثر مع زيادة ضربات قلبها خوفًا، حتى وصل بالقرب من القضبان، رفعت سيلينا رأسها لعلها تتعرف على القادم وهي ترجو أن يكون الحاج عمر وحسب، أو أنه حلم وسينقضي سريعًا، ولكنها لم تتعرف عليه.

كان رجلًا طويل القامة ضخم الجثة، يرتدي ثيابًا يبدو عليها الثراء، يمشي باتزان، ويبدو أنه ذو مكانة مرموقة، يحمل حقيبة سوداء، ويرتدي حذاء أسود وقميصًا وبنطالًا أسودين، ثم قدّم لها ورقة وقال بصوت أجش انتفضت سيلينا من مكانها على إثره:

- تفضلي.

ثم مد يده لها ليعطيها ورقة، فاقتربت سيلينا منه لترى ما بيده فبادرها قائلًا:

- هذه ورقة مزورة، عذر لغيابك عن الجامعة هذا الشهر، وأنا المحامي الخاص بك في هذه القضية تم توكيلي لصالحك، أنا هنا لأثبت براءتك لا أكثر، لذلك لا داعي للخوف مني.

مدت سيلينا يدها لتأخذ الورقة ببطء ثم قالت:

- لماذا تساعدني؟ أنا لا أعرفك.
- أنا موكل لإثبات براءتك.
- من قِبل مَن؟
- عليّ الرحيل الآن، يبدو أنك تخافين الظلام، تستطيعين أخذ هذه الشمعة.

ثم تركها لها على الأرضية والتفّ ليخرج.

- حسنًا ولكنك لم تجبني؟ من قِبل مَن وُكلت؟
- ستعرفين ذلك في الوقت المناسب يا عزيزتي، إلى اللقاء.

ومشى بسرعة ناحية الباب وخرج.

كادت سيلينا تتحدث ولكنه رحل سريعًا، تنهدت في أسى ثم أخذت مكانها على الفراش، وداهمها الكثير من الأسئلة: من يكون؟ ومتى الوقت المناسب الذي يتحدث عنه؟ هل أنت يا أمير من تساعدني؟ حسنًا وكيف عرف جامعتي؟ واسمي؟

تناولت سيلينا الورقة ربما تجد إجابة لسؤالها، لكنها لم تجد إجابة، إنه عذر غياب عادي، حسنًا ولكن لماذا أعطاه لها؟ كان بإمكانه الذهاب للجامعة وتقديمه لهم بنفسه؟ هل يريد أن يريها من يكون مثلًا حتى لا تتفاجأ به يوم المواجهة في قاعة الحكم؟ ولكنها تعرف أن المحامي من أجل توكيله يحتاج إلى مبلغ من المال، من أعطاه له إذًا؟ أليس هذا هو عمل المحاماة أم أخطأت في تقدير ذلك؟

شعرت باليأس من وجود إجابة لهذا السيل الجارف من الأسئلة الذي غزا عقلها، وقررت سؤال الحاج عمر عن ذلك ربما يساعدها هذه المرة أيضًا، ابتسمت سيلينا في رضا بادٍ على محياها امتنانًا لمعرفتها الجميلة بالحاج عمر، ثم غطت في نوم عميق.

*****

اتصلت أسيل بعدها بساعات وقالت بصوت حزين:

- أميرة.
- أسيل كيف حالك؟ ماذا فعلتي؟
- وافقت أمي بصعوبة بالغة، ولكن أخبرتني أن أنتظر للغد.
- حسنًا لا بأس، سأمر وأصحبك غدًا بعد الجامعة.
- أستطيع أن آتي معك مرة أخرى.
- لا داعي، سأخبرهم أنك مريضة حتى لا تزداد الشكوك حولك.
- حسنًا لا بأس، أتمنى لك يومًا سعيدًا.
- ولك أيضًا يا عزيزتي.

اتصلت بعدها بالطبيب لتبلغه عن ساعة قدومها غدًا مع أسيل، وسألته عن حالة حسن وأخبرها أنه قد بدأ يستجيب للأصوات من حوله، وزاد الأمل في شفائه، أغلقت الهاتف وهي تتنهد، واستسلمت لنوم عميق بانتظار يوم أجمل.

ومع إشراقة شمس يوم جديد استيقظت أميرة مبكرًا استعدادًا للذهاب إلى الجامعة، وفكرها مشغول بأمر الفتاة التي عزمت على مواجهتها اليوم.

واستيقظت سيلينا على صوت العصافير التي أبت زيارتها منذ أن جاءت إلى السجن، وشعرت بفقدهم؛ وذلك لأنها اعتادت أن تقدم لهم الطعام كل يوم في منزلها، كأنها تطلب منهم القدوم دائمًا كي تستمع إلى تغاريدهم الجميلة التي لطالما بعثت الأمل في نفسها، ويبدو أنها جاءت كي تشاركها وحدتها ووحشة المكان والخوف الذي أصبح رفيقها الوحيد هنا، كل ما باتت تريده هو ترك هذا المكان والمغادرة فقط؛ فقد ضاقت به وضاق بها.

ثم نظرت حولها للكتب والورقة المستقرة فوقها، كُتِب أعلاها بخط واضح "عذر طبي لغياب الطالبة"، وشردت فيما حدث أمس، الكثير من الأسئلة التي لا إجابة لها تدور في رأسها، مهما حاولت لا تنجح في إسكات صوت دماغها الذي يصرخ محاولًا تفسير ما يحدث حوله، تنهدت سيلينا في أسف قائلة:

- ألا تخدمني يا عقلي بصمتك ولو لمرة؟

قاطع شرودها وصول أميرة المعتاد لإحضار الفطور لها وإكمال طريقها للجامعة، وبدخول أميرة شعرت سيلينا بشيء من الأمل بعد أن غمر اليأس كل أفكارها، فنظرت أميرة لها بقلق وقد بدا عليها الأرق والتعب قائلة:

- سيلينا هل أنت بخير؟
- نعم أنا كذلك.
- أحضرت لك طعام الفطور الذي تحبينه، هيا تفضلي.

شكرتها سيلينا.

لم تختف نظرات أميرة القلقة بعد رد سيلينا المقتضب عليها وقالت:

- حسنًا ربما لا يتسع الوقت الآن لمعرفة حقيقة ما بك، عليك إخباري بكل شيء عند عودتي... وعد؟

فابتسمت سيلينا وأومأت برأسها موافقة:

- وعد، هناك الكثير من الأمور عليّ إخبارك بها.
- ليتني أستطيع سماعك الآن ولكن سأتأخر، أخي ينتظرني بالخارج، سآتي إليك إلى اللقاء.

ثم اتجهت مسرعة نحو الباب، ولوحت سيلينا بيدها لها مودعة، وأمسكت بطعام الفطور الذي لم يبقَ له ولا لشيء طعم، وأطرقت في أسى وهي تنتظر وصول العم عمر ليؤنس وحشتها بعض الشيء، وبالفعل وصل عمر حينها حاملًا في يديه كأسين من القهوة مبتسمًا:

- صباح الخير يا صغيرتي، كيف حالك اليوم؟

عادت البهجة لقلب سيلينا وهتفت بحماسة:

- اشتقت لك يا عم، أين كنت؟ أدركت بالأمس لأول مرة وحشة الليل هنا دونك.

وتذكرت ما حدث بالأمس فأطرقت في حزن ثم قالت:

- كما أنه حدث شيء ما بالأمس أردت إخبارك عنه.

ابتسم الحاج عمر ثم قدم لها القهوة:

- تفضلي اشربي هذه، وها أنا قد جئت، وأعتذر عن غيابي بالأمس، كانت أم زوجتي مريضة فذهبنا سويًا لزيارتها، هيا أخبريني ما الذي حدث بالأمس ويؤرق نوم الصغيرة.

فحكت له تفاصيل ما حدث.

- عليك بالصبر إذًا، عندما تخرجين من هنا ستعرفين كل شيء، ربما هو من طرف أحدٍ من عائلتك.

- وهل هناك أحد من عائلتي يراقبني بخفاء كل هذا الوقت؟ ولكن لماذا لا يظهر أمامي ويعرفني على نفسه ببساطة؟

ثم أطرقت سيلينا في يأس واضح؛ فقد أصابها الملل من طرح الأسئلة المشابهة التي لم تجد أحدًا ليرد عليها، ابتسم عمر:

- لطالما أرهقنا الكثير من صحتنا وتفكيرنا عندما كنا شبابًا في مثل عمرك، كلما كبرتي يا ابنتي تصغر الدنيا في عينيك وتغدو الأمور الصعبة سهلة فجأة، أتعلمين لماذا؟

نظرت في فضول:

- لماذا؟

- لأن رؤيتك لها تتغير، إنك لا تتعاملين مع المواقف بذاتها، أفكارك حولها هي ما تحدد ردة فعلك تجاه المواقف.

شردت سيلينا للحظات تريد فهم كلماته، ثم أومأت برأسها باسمة.

- وكيف حال حسن؟ السبب في الصدفة السعيدة التي قابلتك بها؟
- لا أعلم، لم أسأل عنه أميرة منذ زمن ولم تخبرني شيئًا عنه، يبدو أنه لا جديد، ولكن سأسألها عندما تأتي اليوم، أخبرتني أنها ستتأخر قليلًا بعد الجامعة، ولكني لا أفهم السبب الحقيقي وراء فعلته تلك، ليتني أعلم، كل ما حدث بيننا أنني حاولت مساعدته فقط، ألم يكن يجدر بي محاولة فعل ذلك؟
- بالطبع كان يجدر بك، افعلي الخير، فإن صادف أهله فهو لهم، وإن لم يصادف أهله فأنت أهل الخير.

أومأت برأسها موافقة واستطردت:

- لكن ألم يكن يحبني؟ ربما لم أشعر تجاهه بالكثير من المشاعر، كنت مضطربة دائمًا، حتى أنني أحيانًا أشعر أنني أحب أمير الذي لا أعلم من هو، أليس غباءً بحق أن تحب شخصًا لا تعرف عنه سوى اسمه؟
- لا أظن أنه كان يحبك.
- وماذا تعتقد يا عم؟ لمَ كان يفعل هذا؟

أطرق مفكرًا:

- ربما كان لديه أسبابه، وأحدها أن يزجي بك خلف قضبان السجن!
- ولكن لمَ؟ بمَ آذيته؟ أنا لا أعرفه، هل هو مرتبط بأعداء لي في الماضي مثلًا؟ ولكنه لا يثير شيئًا في ذاكرتي، لا شيء حولي يدل على أنني عشت في هذا المكان مسبقًا سوى ذلك اليوم.
- ما الذي حدث ذلك اليوم؟
- حسنًا أنا لا أعلم ما الذي حدث، أذكر أنني استيقظت وكنت نائمة في سرير المشفى، وسمعت أحاديث بالخارج بخصوص حالتي، كان هناك من يسأل

عنها، ولكني لم أدرك السائل ولم أكن أعلم ما الذي أصابني، ولكنه في النهاية...

ثم ضربت كفها برأسها محاولة التذكر، ثم تنهدت في استسلام:

- لا أذكر تمامًا ماذا قال، ولكنه أمر الطبيب بأن يطمئنه عن حالي عندما أخرج، وترك له رقم هاتفه الذي حاولت جاهدة تذكر القليل منه ولكن لا جدوى من ذلك.
- وماذا حدث بعد ذلك؟
- دخل الطبيب إليّ بعدها وأخبرني أنني أستطيع مغادرة المشفى غدًا، ولكني سألته عما إذا كان هناك أحد لاصطحابي، وعن مرضي وسببه، ولكن لم أجد منه جوابًا شافيًا، كان يتهرب من الإجابة دائمًا، حتى خرجت أقف بين الشوارع وحدي، ولكن لحسن الحظ وجدت سيارة تنتظرني، لوح لي سائقها فاقتربت منه، وسألته عن هويته فلم يجبني، كان يتحدث كالآلة المصممة لتحفظ الكلمات وترددها دون وعي، ومضمون كلامه الذي فهمته حينها أنه تلقى الأوامر من شخص ما بأن يوصلني للمكان الذي سيوصلني إليه دون تفاصيل أكثر مهما حاولت سؤاله، أذكر أنني لم أتوقف عن الحديث، منذ ركبت السيارة وأنا أسأله عن كل شيء دون توقف، وهو يجيبني بنفس الإجابة التي يبدو أنه دُرّب كثيرًا على حفظها وتكرارها دون ملل ولا مبالاة حقيقية لمن يحادثه، ثم أوصلني إلى منزلي هذا الذي لم أفهم ملك من إلى الآن، وعشت فيه وحيدة، واجهت ما بقي وحدي مع أسئلتي اللا منتهية عن كل شيء، وكأنني ولدت في ذلك المشفى وفتحت عيني للحياة للمرة الأولى، ولم أجد نفسي في حضن أم حنونة، كانت ولادة مختلفة.
- لا شك أن الشخص الذي ترك رقمه للطبيب ليتابع حالتك هو نفسه الشخص الذي أرسل السيارة لتنقلك للمنزل، ولا شك أنه هو صاحب المنزل، وبالطبع هو من يراقبك وأرسل إليك هذا العذر.
- ربطت مسبقًا الأحداث بهذه الطريقة أيضًا، ولكن أتعتقد أنني سأعرفه؟ هل سأعيش ما تبقى من عمري هكذا؟

- أشعر أنه سيعرفك عن نفسه، لابد له أن يفعل ذلك في يوم ما، ومن الواضح أنه لا يريد سوءًا لك، وإنما مستمر في مساعدتك.
- هل تعتقد أنه أمير؟
- إنه شخص مجهول، وأمير شخص مجهول، فلا فرق إن كان أمير أم لا.
- نعم، للمرة الأولى لا يعبر الاسم عن هوية حامله.

ابتسم لها وقال:

- سيمضي كل ذلك يا ابنتي، أعدك.
- لم أعطِ هذا العذر لأميرة عندما جاءت في الصباح، سأنتظر.
- لا تنتظري أكثر، أعطيه لها.
- لست مضطرة لفعل ذلك، هناك من تقوم بدوري في الجامعة.
- لا أظن أن امتناعك عن إعطائها فكرة جيدة.
- لماذا؟ إنه مزور.
- لأنه هنا من أجل إثبات براءتك، وكان موجود دائمًا من أجل مساعدتك، وليس لجلب المشاكل لك أيًا كان شخصه، ربما يكون والدك.
- والدي؟ لماذا لا يظهر ببساطة ويخبرني بذلك.
- أنصحك بالبعد عن فرط التفكير في هذه الأسئلة، أرهقتك بالفعل يا ابنتي، عليك التفكير فيما ستقولينه أمام القاضي، لم يبقَ الكثير على خروجك من هنا، ومن الجيد أنك وجدتي محاميًا رسميًا لك.
- وماذا عن حسن؟ قالوا أن لديه دليل قاطع مثل البصمات على سلاح الجريمة، على هذا هل تعتقد أنه سيتنازل عن القضية؟
- ما يبعث الأمل في نفسي أنه سيتنازل عنها هو انتحاره بعدها.
- هل تعتقد أنه فعل ذلك ندمًا على ما فعل؟ ولكن كان بإمكانه سحب الشكوى ببساطة.
- ستعلمين ذلك قريبًا، عليك أن تتحلي بالصبر فقط.

تنهدت سيلينا في أسى، فأكمل عمر:

- ولا أعتقد أنه كان يحبك، هناك سبب وراء ادعاءه بهذا.

- سأعرفه عاجلًا أم آجلًا، ويبدو أن الحل الوحيد الآن هو الصبر وانتظار ما سيحدث.

ابتسم في رفق:

- أحسنت يا ابنتي، هدئي من روعك قليلًا، سيمضي هذا الوقت وكأنه لم يكن، التخلي عن الأمل في أوقات الشدة شدة أخرى، لذا كوني متفاءلة دائما.

ثم تلقى الحاج عمر اتصالًا طارئًا، كانت زوجته تحتاج إليه في إحضار بعض الأغراض، فاعتذر من سيلينا وغادر.

*****

وصلت أميرة للجامعة، وكانت تنظر حولها باحثة بعينها عن تلك الفتاة ولكنها لم تجدها، تنهدت في يأس، ولكنها لن تترك الأمر هكذا، يجب أن تعلم من هي.

أخافها أمر تلك الفتاة منذ رؤيتها تحدق من بعيد وكأنها تراقبها منذ زمن، وانتهى يوم أميرة سريعًا وسط الدروس والمحاضرات، واتصلت على أسيل بعد انتهائها ليذهبا سويًا للطبيب كما وعدتها، وبالفعل ذهبت الفتاتان إلى المشفى، ومروا على غرفة حسن أثناء سيرهم لغرفة الطبيب، نظرت أميرة بلا اكتراث تجاهه فوجدت أمه تجلس بجانبه وهو نائم بلا حراك، ثم نظرت لأسيل:

- هل أنت مستعدة؟

لمعت عينا أسيل وهتفت بحماس:

- نعم على أتم الاستعداد.

وصلا للغرفة وطرقت أميرة الباب بلطف، ورحب بهما الطبيب، وسألته أميرة عن حالة حسن فأخبرها أنه في تقدم ملحوظ، وهناك أمل في استعادته لعافيته في نهاية هذا الشهر، وقد سُرّت أميرة بهذا الخبر على أمل أن تتحرر صديقتها من هذا السجن، ثم جلست أسيل وأميرة مقابلين للطبيب، وشرع الطبيب يلقي الأسئلة على أسيل بعد أن سردت على مسامعه الأعراض التي تنتابها، وكان خوف أسيل واضحًا ويداها ترتجفان طوال الوقت.

قال الطبيب أخيرًا بعد الانتهاء:

- حسنًا، إن حالة أسيل تعرف بالرهاب الاجتماعي (الفوبيا)، وهي كلمة لاتينية الأصل، ويحتل هذا المرض الترتيب الثالث في قائمة الأمراض الأكثر انتشارًا، وخاصة في دول الخليج، وكما يقول أبقراط عن الفوبيا: "هو نوع من أنواع الخجل، هو الشخص الذي يحب أن يعيش في الظلام، ويعتقد أن الجميع ينظر إليه"، ولذلك فهو يقلل تركيزه دائمًا أمام الناس ويجعله يتجنب الأكل أمامهم والاعتذار عن الذهاب للمناسبات الاجتماعية وغيرهم.

قاطعته أميرة كأنه مجلس نقاش:

- ولكننا بطريقة أو بأخرى جميعنا نخاف من حضور بعض المناسبات وتناول الطعام أمام الآخرين.

استطرد الطبيب حديثه:

- دائمًا مريض الفوبيا يخاف بسبب أمور ليس لها مبرر، كما أنه يخاف من المواقف الاعتيادية -ثم أشار لأميرة- لا أظنك تخافين من التعرف على شخص ما أراد التعرف عليك.

أومأت برأسها:

- لا يصيبني هذا بالكثير من الخوف، ولكن ربما تحتل رأسي بعض الأفكار عن سبب تعرفه عليّ وهذا ما يخيفني.
- أحسنت الإشارة لنقطة مهمة، وهي أن مريض الفوبيا دائمًا ما يعتقد ويفكر أن جميع من حوله يسخرون منه، ومن طريقته في الحديث وفي الأكل ونحوه.
- وما هي أسباب هذا المرض؟
- لم يجد الأطباء سببًا معينًا، تختلف الأمراض النفسية عن الجسدية في ذلك، فدائمًا هناك الكثير من الأسباب التي ربما تجتمع لتكون مرضًا، أو ربما أحد منها هو مسبب المرض، ولكن هذا المرض له ثلاثة أسباب رئيسية:
أولًا: الجينات أو الوراثة، وهذه الحالة مستبعدة بالنسبة لك يا آنسة أسيل.

أومأت أسيل برأسها موافقة، أكمل الطبيب:

- ثانيًا: مشاكل في المخ...

ثم أخذ عصا واتجه ناحية الحائط، حيث علقت الكثير من الرسومات البيانية التي توضح التركيب المعقد للمخ وغيره من أجزاء الجسم، وأشار إلى منطقة في المخ قائلًا:

- هذه المنطقة تسمى (Amygdala)، وهي لها دور مهم جدًا في الشعور بالخوف - ثم حرك العصا تجاه الصورة المجاورة لها- كما أنها تزداد اتساعًا كما هو موضح عند مرضى الرهاب، وهو ما يزيد من شعورهم بالخوف كلما ازدادت هذه المنطقة اتساعًا.

ثالثًا: التعرض للقسوة والعنف في الصغر، مساوئ جهل الوالدين بمبادئ التربية، كما أن كثرة المشاكل الزوجية التي تحدث بين الأبوين أمام أطفالهم يعزى إليها إصابتهم بالرهاب، وكذلك الكلمات المعتادة التي نتحدث بها مع الأطفال دون أن ندرك مدى خطورة ذلك على المدى البعيد، فمثلًا دائمًا ما نعتبر من تقليل الأدب أن يتحدث الطفل في أي مناسبة من المناسبات، "عندما يتحدث الكبار تصمت أنت، وعندما تتحدث مع أحدهم لا تحدق في عينيه مباشرة"، وكل هذا يندرج تحت قائمة أنك تعلمه الأدب.

قالت أميرة:

- حسنًا وكيف على الأهل التصرف في هذه الأمور؟ ربما يجعل هذا الطفل يصبح وقحًا يتحدث فيما يليق وفيما لا يليق.
- عليك الاقتناع أولًا بأن طفلك شديد الذكاء، وأنه بالاحترام الكافي الذي يؤهله للتحدث مع أي شخص، ولكنه يفتقد الخبرة التي يفترض أن تعلمها أنت له، كونه صغير لا يثبت كونه غبي، عليك احترام رأيه ومناقشته فيما يريد، وحسن الاستماع له والاهتمام لما يقول.

أطرقت أسيل بحزن واضح ولكن تجاهل الطبيب ذلك واستطرد:

- كان هذا المرض يشيع غالبًا في النساء، ولكن الدراسات الحديثة أكدت أن فرص إصابة النساء والرجال به متساوية -ثم نظر لأسيل- لقد خفف عنك يا أسيل نوبات هذا المرض اعترافك التام به، كما أن اعترافك لصديقتك أمر أعجبني كثيرًا، ومواجهتك لنفسك في أكثر الأوقات صعوبة؛ وهي نوبات

الخوف والفزع التي تصيب المرضى، كونك مريضة لا يقلل من شأنك، آراء الناس متباينة حول العلاج النفسي والمعالجين، ومعظمهم يتخذ موقفًا سلبيًا شديدًا منهم، وبسبب هذا ازدادت نسب الاكتئاب والإصابة بالأمراض النفسية، وازداد الأمر سوءًا عندما ابتعد الناس عن المريض ونبذوه؛ فأصبح يخشى التصريح عن مرضه كما تصرح عن مرض الانفلونزا وغيره؛ فتزداد أعراض وصعوبة علاج المرض دون أن يشعر بذلك، وربما يتسبب في أمراض أخرى تزيد الأمر سوءًا.

أومأت أسيل برأسها موافقة قائلة:

- تصالحت مع مرضي منذ زمن، ولكني كنت أخاف دائمًا الحديث مع طبيب نفسي خوفًا من والدتي وأقاربي كما قلت تمامًا، الذين كانوا يرون العلاج النفسي ضربًا من الجنون والخرافات.
- ابنتي، إن أغلب مشكلات حياتنا المفتاح السحري لها هو التوقف عن الخوف وبداية المواجهة، ألا نخاف من غير المألوف؟ توقفنا كثيرًا بسبب خوفنا مما لا يستدعي الخوف منه، كما أننا جميعنا نمرض أيًا كان نوع المرض، جميعنا عرضة للإصابة بالأمراض وخاصة الأمراض النفسية؛ فلا تقلقي بشأن أحاديثهم، إنها ناشئة عن الجهل بحقيقة أمور الحياة وحسب.

أومأت أسيل برأسها موافقة، تدخلت أميرة:

- وهل هذه فقط أساليب التربية الخاطئة؟
- بالطبع لا يا أميرة، هناك أمر في غاية الخطورة، وهو عدم الثبات في التعامل مع الطفل، فيكون الأهل حازمين معه تارة، ومتساهلين تارة، وعطوفين تارة أخرى، فيصبح الطفل غير آمن لردة فعل أهله على سلوكه، لذلك يبدأ في الانسحاب ويصبح خجولًا.

حسنًا رغم ذلك ربما نستطيع حل الكثير من المشكلات، إذا أعطينا الأطفال خاصية النظر لما في قلوبنا من حب وخوف عليهم؛ ليعلموا حقيقة مشاعرنا

بدلًا من الحكم على أفعالنا مباشرة، جميعنا نفقد صياغة التعبير عن حبنا وشعورنا تجاههم، ولكنهم مجرد أطفال، وهذا يفوق قدراتهم المحدودة.

أسيل بانفعال جلي:

- لا شيء يدل على خوفك على طفلك وأنت تبرحه ضربًا دون سبب يستحق ذلك، وتصرخ في وجهه وتشتمه دائمًا.
- أوافقك الرأي، في حالة إن نظرنا إلى الأمر من منظورك.
- لا يوجد زوايا أخرى للنظر إلى الأمور؛ لأنني أنا الضحية الوحيدة فيها، كما أن الآباء راشدون بما فيه الكفاية ليتعلموا أساليب التربية والتعبير عن الحب والخوف بطرق أقل عنفًا وأكثر صحية، إنهم دائمًا ما يلوموننا، أليس من الغباء أن تلوم طفلك على ضربه؟ أيصبح ضحية الضرب وضحية لومك له أيضًا وأنت في الحقيقة المسؤول الوحيد عن هذا؟
- حسنًا لا أستطيع معارضتك على ذلك يا أسيل كما تعلمين.

شعرت أميرة أن الأمور ستسوء بالنسبة لأسيل فغيرت الموضوع:

- حسنًا وما هي باقي الأسباب؟ وما هي طرق علاجها؟

استطرد الطبيب بنبرة رسمية:

- ربما تدليل الأطفال الزائد عن الحد يؤدي لذلك أيضًا، حيث يخرج الطفل من منزله معتقدًا أن الجميع سيعاملونه بنفس طريقة الحب والدلال التي يتعامل به والداه معه، وعندما لا يجد ذلك في الخارج يشعر بالخوف ويؤدي زيادته إلى نفس النتيجة.

وأيضًا السخرية المستمرة من كل ما يقوم به الطفل وإهانته بحجة تهذيبه، وجميعنا بطباعنا الفطرية نتجنب الأذى والألم ونركض خلف السعادة، فيتجنب الطفل الذهاب للمناسبات الاجتماعية، والحديث مع الأشخاص حتى لا يعرض نفسه للإهانة والسخرية من قبل أهله، ويتطور الأمر إلى أن يتحول إلى رهاب اجتماعي يظن أنه يجب أن يتعرض للإهانة من الجميع أينما حل.

وأحيانًا يكون بسبب حماية الآباء الزائدة لأبنائهم؛ فيخفونهم عن الجميع خوفًا عليهم، ولا يسمحون لهم بالحديث مع الغرباء، فيصعب عليهم بعد ذلك التعامل السوي معهم لفقدانهم مهارات التواصل.

- وما العلاج إذا؟

نظر الطبيب ناحية أسيل وقال:

- هناك نوعان من العلاج لهذا المرض:

إما علاج سلوكي معرفي، ويكون بطريقتين:

الأولى (الإغراق): والمقصود به أن نغرق أنفسنا فيما نخافه، والثاني (تقليل التحسس التدريجي): وهو مواجهة ردّات الفعل وتغييرها.

والنوع الآخر هو العلاج الدوائي: ويؤخذ بمضادات الاكتئاب والتوتر العادية، وقد ثبت نجاحه الكبير، -وابتسم لأسيل وقال بنبرة محفزة- لا يوجد أقل من نسبة نجاح ١٠٠% في علاج هذا المرض، أليس كذلك يا أسيل؟

هتفت أسيل:

- بالطبع!
- سنبدأ معًا إذًا في خطوات العلاج، وأعلم أن مدة علاجك ستستغرق وقتًا قليلًا مقارنة بالمعتاد، لأنني أثق بك.
- أرجو ذلك يا دكتور.

قالت أميرة:

- أشكرك يا دكتور، سأخرج الآن وسأنتظرك في الخارج يا أسيل.

أومأ لها مودعًا وأكمل حديثه مع أسيل، واتفقا على خطة العلاج والمواعيد التي ستحضر له فيها، خرجت أسيل من الغرفة بشعور مختلف، لأول مرة في حياتها تشعر بالسرور والغبطة الحقيقيين، والدهشة من قدرتها على الحديث إلى أحد ما واستماعه لها دون توبيخ وإصدار الأحكام الخاطئة، التي تستحيل لاتهامات تلتصق بها وكأنها وشم عار، لاحظت فيما بعد أنها تخطت الكثير من ممرات المشفى التي بها عدد كبير من الناس دون

أن تشعر بالخوف وترتجف قدماها وتتصبب عرقًا، لم تعتقد أن هناك من يسخر منها، شعرت بالفخر والإنجاز والتفاؤل وهي تهمس في نفسها:

- ما زالت هذه البداية.

حتى وصلت لأميرة فرأتها تقف أمام غرفة من غرف العناية المركزة، هرولت أسيل في اتجاهها:

- ماذا هناك يا أميرة؟
- أتعلمين هذا الشخص الذي ينام هناك، إنه السبب في وجود صديقتي حبيسة في السجن إلى الآن.

نظرت أسيل في اتجاه حسن النائم وحوله الأجهزة التي تعينه على التنفس فقط، وأمه التي تقرأ له الكتب بجواره، ولم تكن أفضل حالًا منه، حتى إنه ليصعب التمييز حقيقة بين من السقيم منهم، شعرت أسيل بالأسى تجاههم، ودعت الله في سرها أن ينجيه رغم ما فعله بصديقتها، ثم نظرت لأميرة:

- تأخرنا على سيلينا، ألن تذهبي لها؟
- أريد أن أذهب لقتله.
- لن يُخرِج هذا سيلينا من السجن، بل سيذهب بك إلى جانبها، هيا يا أميرة أرجوك.

انصاعت لأمرها سريعًا وخرجت من المشفى بخطوات متلكئة ومتباطئة، وذهبت الفتاتان في اتجاه السجن إلى سيلينا.

دخلت أميرة ورأت صديقتها تجلس القرفصاء في إحدى زوايا السجن، فشعرت بالحزن ثم هرولت إليها مسرعة:

- سيلينا أتيت إليك.

عاتبتها سيلينا:

- ولكنك تأخرتِ اليوم.

ثم نظرت أميرة إلى أسيل وغمزت بعينيها:

- أخرتنا أسيل.

لم تجبها سيلينا؛ وإنما تذكرت ورقة عذر الغياب بذكر أسيل، وأعطتها إلى أميرة دون أن تنبس ببنت شفة.

شهقت أميرة عندما رأتها:

- كيف زوّرتها وأنت هنا؟ ومتى فعلتي ذلك يا مجنونة؟
- لست أنا من فعلت ذلك... (وحكت لها ما حدث).

فقالت أميرة باندفاع:

- لا نقبل مساعدة أحد بالتزوير.
- أخشى أن يحدث أمر لا يُحمد عقباه إذا لم أفعل ما يطلبه مني، قال لي الحاج عمر ذلك.
- وما الذي سيحدث؟ سيحدث مالا يُحمد عقباه حين أذهب بهذه الورقة المزورة ويكتشفوا أمرك يا سيلينا، لا تجازفي بالأمر.
- خذيها يا أميرة -ثم نظرت لأسيل- وارتاحي يا أسيل من الذهاب بدلًا عني.

صرخت أميرة بغضب:

- سيلينا! ما بك؟
- لا شيء، ولكن هذا قراري النهائي، اذهبي بهاته الورقة وما سيحدث سأكون أنا المسؤولة عنه.

بلغ الغضب من أميرة مبلغه، فحاولت أن تكبته وتقول:

- هل تعتقدين أن هذا هو الصواب حقًا يا سيلينا؟

قالت بنبرة يشوبها اليأس:

- لا أستطيع التمييز بين الخطأ والصواب منذ زمن، لا يوجد شيء لأخبرك به أكثر من هذا.

استسلمت أميرة ولم تعلق، وجلست سيلينا على الأرض أمامهم وهي تفتح الأكياس التي جلبوها، ثم قالت محاوِلة تخفيف الجو المشحون الذي بينهم:

- ألن تتناولا معي طعام الغداء؟

ابتسمت أميرة:

- أتيت من أجل هذا، بالتأكيد سأتناوله معك.

ومما يثير للدهشة حينها أن أسيل حكت لسيلينا كل ما جرى لها من أحداث، وكلمات الطبيب الأخيرة لها، كانت المرة الأولى التي تتحدث فيها بثقة ومرح، سعدت سيلينا من أجلها كثيرًا، ولم تملك أميرة نفسها وهي تنظر بدهشة وسعادة في آن واحد، لم تتوقع أن تتحسن أسيل بهذه السرعة لدرجة أن تحكي حكاية كاملة دون توتر.

وأخذوا يتبادلون الأحاديث ويضحكون، وأعطتها أميرة أوراق المحاضرات كما جرت العادة، وانتهت الجلسة باقتراب حلول الظلام ووصول مدير السجن، واحتضنت أميرة سيلينا ووعدتها بأن تأخذ الورقة للوكيل في الصباح غدًا.

ثم رحلوا، وذهبت أسيل إلى منزلها تملؤها السعادة لما حدث لها اليوم، وبالطبع تشعر بالامتنان الشديد لأميرة، ومرت الليلة في سلام.

وأشرقت شمس يوم منتصف الشهر الذي طالت وحشته بسيلينا في السجن، وطال قلقه بأهل حسن في المشفى، وكان بداية الأمل لأسيل واتخاذ منعطف جديد في حياتها، وشخصنا المجهول الذي أخذ قراره أخيرًا بالذهاب لمواجهة ذلك المدعو حسن.

استيقظت أميرة استعدادًا ليوم جديد للجامعة وهي تحمل ورقة عذر الغياب وكأنها تحمل جبلًا بين يديها، ارتدت ملابسها وحضّرت الفطور لها ولصديقتها سيلينا كعادتها كل صباح، وأحضرت لها الشوكولا التي تفضلها وذهبت مع أخيها.

مرت على سيلينا فوجدتها تغط في نوم عميق على غير العادة، يبدو أنها ذاكرت كثيرًا البارحة، لم تشأ إزعاجها وتركت لها الفطور وذهبت إلى الجامعة، لم تنسَ بالطبع أمر الفتاة المريب، ولكن هناك ما يشغلها اليوم أهم من أمر تلك الفتاة.

ذهبت أميرة في اتجاه مكتب الوكيل، تتخبط ركبتاها من الخوف، وقفت قليلًا تحاول استجماع شجاعتها وهي تتذكر عواقب الكذب والتزوير التي لطالما حفظتها عن أمها، التي أخذت بكل جهدها تربيها على القيم الصالحة؛ وخاصة الصدق، ولكن ماذا عساها أن تفعل؟ رضخت لإجبار ظروف حياتها على أن تخالف مبادئها وقبضت على يديها بعزم ثم طرقت الباب:

- تفضل.

دخلت أميرة وأغلقت الباب خلفها، كان يبدو عليه الانشغال بكومة الأوراق التي على مكتبه تلك، وقال على عجل:

- تفضلي بالجلوس، هل هناك خطب ما؟
- آسفة على إزعاجك، ولكن مرضت صديقتي مرضًا شديدًا، وأقرّ الأطباء بأنها سوف تبقى في المشفى لمدة شهر كامل -ونظرت للورقة- ولكني تأخرت في إحضار عذر الغياب هذا.
- وأين أهل هذه الفتاة؟

ارتبكت أميرة قليلًا ثم قالت:

- سافروا لغرض مهم وأمنوني على ذلك.

ثم قدمت أميرة الورقة ناحيته بيد مرتجفة، التقطها ثم فحصها وقال:

- حسنًا تستطيعين المغادرة، سأنظر في هذا الأمر.

تنهدت أميرة براحة:

- شكرًا لك.

ونهضت سريعًا وهي تريد الفرار من هذا المكان، وخرجت.

*****

استيقظت سيلينا، ثم نظرت حولها وقالت:

- يبدو أنني نمت كثيرًا اليوم.

ففاجأها صوت الحاج عمر الذي كان يجلس على الكرسي المقابل يقرأ جريدة اليوم ويشرب القهوة:

- نعم، انتظرتك كثيرًا، يبدو أنك أرهقت نفسك في المذاكرة على غير العادة.

ابتسمت سيلينا لوجوده، كانت المرة الأولى التي تستيقظ ولا يصيبها خوف الهدوء القاتل ووحشة السجن ثم قالت:

- نعم لقد فعلت.

نظرت للأكياس الموضوعة وابتسمت ولمعت عيناها:

- ولم تنسَ صديقتي أن تحضر لي فطوري، كم أحمد الله على حياة جلبتها لي دون مقابل.

ابتسم الحاج عمر بدوره وقال:

- هيا ألن تستعدي لتناول الفطور والاستيقاظ؟ قررت الجلوس معك إلى أن تأتي أميرة ثم أذهب لعملي.

اندفعت سيلينا بحماس وذهبت لتغسل وجهها وتؤدي الفريضة، وشاركته أيضًا في تناول فطورها، ثم جلست مقابلة له وقالت:

- ما رأيك أن نترك المذاكرة اليوم؛ فأنا أستمتع بالحديث معك، ولم يبق شيء على خروجي من هنا الكثير من الوقت.

ابتسم الحاج عمر وقال:

- يبدو أن صغيرتي يشغل بالها أمر ما، حسنًا أنا معك.

ثم وضع الجريدة التي يمسكها جانبًا ونظر لها وقال مازحًا:

- كلي أذان صاغية لك.
- ما هو المفترض بي أن أفعله عندما أخرج من هنا؟
- أن تنهي أمور حسن.
- وماذا تقصد بإنهاء أموره؟
- واجهيه بالأمر.
- سأفعل، ثم ماذا؟
- وتستطيعين مساعدته أيضًا.
- لا أظن أنه سيتقبل مني مساعدات، كما أن أميرة لم تترك الأمر، حدثت الطبيب بكل شيء وهو سيتولى الأمر.
- رائع، إذًا ما المشكلة؟
- ما الذي عليّ أن أفكر فيه الآن؟
- حسنًا ادخري من النقود كل شهر، مثلًا نقود هذا الشهر لم تأخذيها وبقيت هكذا، اتركيها، ربما هذا الشيء الذي تستطيعين فعله الآن حتى تنهي دراستك الجامعية، وبعد ذلك إن قررت الإقدام على فعل شيء ما ستكون معك النقود اللازمة لذلك.
- حسنًا سأفعل.

- وتذكري دائمًا: "إن كنت لا تعرف أين تذهب، فكل الطرق تفي بالغرض".

أومأت برأسها موافقة، استطرد بمرح:

- حسنًا أكملي ما تودين الحديث عنه.
- لماذا لا تؤيد المؤسسات التعليمية أحلامنا؟ إنها في وجهة نظري تهدمها فقط.
- كل ما في حياتك يفيد أحلامك؛ لأنه ببساطة كل ما في حياتك تحت ملكك أنت.

ردت معترضة:

- ولكنها تأخذ بكل الأمور اللازمة لتحطمنا بها، هل هكذا يكون التعلم؟
- كنت أتمنى دائمًا تعلم الصيدلة، وتعلمتها دون الحاجة للالتحاق بالجامعة وغيره.
- إذًا لماذا يحترمون دائمًا من هم فيها ولم يقدّروا علمك أنت؟
- لو كانوا يحترمون من هم فيها لاحترموا طلابها، ولكنهم يحترمون الأوراق لا الشخص ذاته؛ وذلك لأن هذه الأوراق تجلب النقود، كما قال مصطفى محمود: "إننا جميعًا بطريقة أو بأخرى عبيد للوضع الاقتصادي".
- أنت محق، جميع من هم فيها يريدون النقود، وقلما من كان يريد التعلم بحق.
- من يريد التعلم لا ينتظر المؤسسة أن توفر له أرقى الأماكن وأشهى الأطباق كي يتعلم، وإن لم تفعل يبدأ بالشكوى من كل التفاصيل الصغيرة والكبيرة، من يريد التعلم يفعل كل ما يلزم ليكتسبه، إنها أماكن ممتازة لتلقي العلم، ولكن لكل مكان صعوباته التي عليك تخطيها.

أومأت سيلينا برأسها موافقة.

*****

دخل شخص مجهول إلى المشفى واتجه مباشرة ناحية غرفة حسن، فاستقبلته أمه على الباب وسألته:

- من أنت؟

- أود التحدث مع حسن عن أمر ما، أرجو أن تسمحي لي بالمرور.
- لست غريبة هنا، حسن هو ابني، تفضل أخبرني ماذا تريد منه؟
- أظن أنه من الأفضل أن يظل الأمر بيني وبينه.

نظرت له أم حسن وقالت:

- هل الأمر يخص الفتاة التي في السجن؟

اندهش الرجل وشعر أن الأمور ستسوء ورد بنفاد صبر:

- نعم هو.
- ومن أنت؟ ما علاقتك بالأمر؟
- سأخبرك بالأمر، هويتي غير مهمة، جئت لأعرض على ابنك صفقة رابحة من أجل أن يطلق سراح سيلينا ويتخلى عن هذا الأمر.
- وما هي الصفقة؟
- له ما يشاء من النقود مقابل أن يترك سيلينا وشأنها ويظهر براءتها.

نظرت الأم باستنكار وقالت:

- لا نحتاج للنقود ولا تهمنا، أنا لا أعلم القصة التي دارت بينهما كاملة، ولكني فور علمي سأحكم إن كانت تستحق الفتاة ذلك أم لا.
- إنها لا تستحق ذلك ولم تقم بأي شيء، إنه اتهام بحت.
- إذا انتظر لتظهر براءتها ولا داعي للأمور الغير قانونية، وإن كانت بالفعل بريئة لماذا تحاول مساعدتها؟ إن كانت بريئة ستظهر براءتها أمام القاضي بلا شك.

إنها على حق، فقد جاء بفرض مسبق إن لم تظهر براءتها، تنهد بضيق، يبدو أنه لن يصل لشيء مع هذه المرأة، وقال:

- حسنًا هل يمكن أن تتركي لي رقم هاتفك؟ عليك أن تخبريني بالقصة كاملة؛ وذلك لأنني لا أعرفها أيضًا.
- بكل سرور لا بأس، ولكن ما الفائدة من معرفتك؟
- لا أستطيع ترك المسؤول دون إجابات لأسئلته.

- هل لي بمعرفة من هو المسؤول الذي يجعلك تقوم بذلك؟
- لا أستطيع أن أخبرك أكثر من هذا، ولكن أرجوك دعيه يتخلى عن هذا الأمر، أنا أعلم أن تلك الفتاة بريئة، ولا تستمعي للأمر من طرف ابنك فقط.
- وأنا صاحبة مبادئ أيضًا ولا أظلم أحدًا، لا تقلق، كل منا يستحق ما يحدث له جزاء أفعاله لا جزاء نقوده.

ثم نظرت له بخبث.

نظر باستسلام وقال في نفسه:

- كبار السن لا فائدة من مجادلتهم.

ثم قال لها:

- سأحضر إلى هنا من جديد لتخبريني عما قاله لك حسن.
- حسنًا إلى اللقاء.

عادت أم حسن ورأسها يكاد ينفجر من الأسئلة، لماذا فعل ولدها ذلك؟ وهي كانت ترجو أن تسأل أميرة منذ سمعتها تتحدث مع الطبيب عن التفاصيل، ولكنها لم تدرِ ما تقول فتراجعت عن ذلك وحسب.

ولكنها قررت أخيرًا التحدث مع ابنها، ها هو قد استعاد الكثير من قوته، ولكن عليها اختيار الوقت الملائم لتحدثه عن ذلك، كما أنه لم يعد أمامها الكثير من الوقت، لم يبقَ شيء على معاد الحكم، ولم تخبر والده بشيء عن هذا أيضًا.

وأخيرًا عزمت أمرها على التحدث معه، ثم دخلت إلى الغرفة بهدوء وجلست على الكرسي المقابل لابنها، تعلم أنه لن يجيبها سوى بحركة يده فقط، وقالت له:

- بني... لم أشأ أن أخبرك عن هذا منذ زمن، ولكن لم يعد هناك وقت ويجب علينا أن نتحدث، لا تقلق، أبوك لا يعلم شيئًا عما حدث، أنا فقط هنا أريد أن تجيب على أسئلتي التي حيرتني، فأنت فلذة كبدي وأنا ربيتك على الصدق فقط.

ثم نظرت إلى أسفل خافية دموعها بكفها عندما تذكرت ما حدث بينهما في الأيام الأخيرة قبل دخوله إلى هنا، ولكنها استجمعت نفسها من جديد ونظرت تجاهه، فوجدته ينظر لها في صمت حاد فأمسكت بيده وقالت:

- هل كنت سببًا في دخول فتاة ما إلى السجن؟ إذا كان هذا صحيحًا حرك يدك وإن كان خاطئًا لا تحركها.

حرك حسن يده وتغيرت ملامحه قليلًا وكأنه مصدوم مما سمع، فقالت وقد فهمت من عينيه ما يود سؤالها عنه:

- إن كنت تريد أن تعلم فهي دخلت للسجن، وقد فهمت من الحديث أن القاضي سينظر لهذه القضية بعد شهرين، تأجلت بسبب ما فعلته بنفسك، وهذا أمر آخر سنتحدث عنه يا بني، بمَ كنت تفكر عندما قررت أن تترك أمك وحيدة بلا حسن؟

أومأ حسن برأسه معتذرًا.

- حسنًا يا بني، هل هذه الفتاة حقًا مجرمة؟ ما سبب فعلك لهذا بها؟ هل هي حقًا مجرمة؟ أنا أحدثك عن الفتاة بذاتها وليس اعتقادك بها أو مقدار كرهك لها، والذي أودك أن تخبرني عنه كذلك، إن كانت مجرمة حقًا حرك يدك.

لم يحرك حسن ساكنًا، فنظرت له بتعجب:

- لماذا فعلت هذا إذًا يا بني؟

ثم تنهدت بضيق، وسردت على مسامعه ما حدث مع الرجل الغريب ومنعها له من دخول الغرفة، ثم استطردت:

- لم يبق لك هنا سوى أسبوع من الآن، هل ستتنازل عن هذه القضية يا بني؟ إن كنت ستتنازل حرك يدك وإن كنت لن تفعل فأبقِها ساكنة...

*****

أخذت أميرة تراقب الفتاة طوال اليوم، ويبدو أنها لم تهتم لوجودها أصلًا، وعزمت أمرها أن تتحدث معها أخيرًا، وبعد انتهاء المحاضرة خرجت أميرة مسرعة حتى تلحق بها ولا تسبقها في الخروج، وقفت أمام باب القاعة في انتظار الفتاة، وعندما خرجت نادتها أميرة وقالت:

- أريدك في أمر ما، هل تودين شرب القهوة؟ ما رأيك بالذهاب للمقهى في الطابق السفلي؟

*****

حرك حسن يده ببطء، فتهللت أسارير والدته وقالت:

- كنت أعلم أنك لن تظلم أحدًا، سأذهب الآن وأعود إليك فورًا.

خرجت أمه من الغرفة وهي تحمد الله في سرها؛ فقد حملت هم الفتاة إلى هم ابنها، ثم هاتفت الرقم الذي تركه لها الرجل فأجاب:

- تفضلي، يبدو أن ابنك أخذ القرار بسرعة أكبر مما توقعت.
- نعم، كنت محقًا، تلك الفتاة بريئة، وابني مستعد أن يظهر براءتها أمام القاضي دون الحاجة لنقودك.

ضحك الرجل قائلًا:

- لماذا علقتي على أمر النقود الآن؟ على كل حال أشكرك يا سيدتي، وأبلغيه سلامي.
- هل ستكون هناك أثناء الحكم؟
- لن أكون متواجد هناك.
- حقًا؟ لماذا؟
- أسباب شخصية يحق لي إخفاؤها.

قالت في نفسها:

- يا لك من رجل متبجح.

ثم قالت:

- حسنًا لا بأس، أرجو لك السلامة.
- ولك أيضًا يا سيدتي.

علت بسمة رضا شفتيه، تخلص من هذا الأمر أخيرًا، عليه أن يتصل بسيده ليخبره عما حدث، كان يعتقد أنه سيواجه صعوبة في إقناع حسن، ولكن يبدو أننا عندما نتوقع الأسوأ تواجهنا الحياة بالأفضل، ثم اتصل به فأجابه سيده فورًا:

- اقترب موعد القضية، أريدك أن تخبرني بالأخبار السارة.
- نعم نعم يا سيدي، أحمل لك كل الأخبار السارة.
- هات ما لديك.
- ذهبت كما خططت إلى حسن لإقناعه بالتخلي عن القضية مقابل مبلغ محترم من المال، واعترضتني أمه التي لم تشأ إزعاجه، وأخبرتها بما جئت به، فوعدتني بأن تتصل بي لتخبرني عن الجديد، ويبدو أنها أقنعته سريعًا؛ لأنها اتصلت بي بعدها لتخبرني عن قرار ابنها بتخليه عن تلك القضية.
- أحسنت، عمل رائع، سأنتظر مكالمتك في اليوم المحدد لتخبرني أن الأمر قد انتهى تمامًا وأن سيلينا عادت للمنزل.
- أمرك يا سيدي.

وأغلق الهاتف، وتذكر ما خطط لفعله كي يحضر تلك الجلسة دون أن يلحظه أحد.

*****

- من أنت؟
- حسنًا ستعلمين في الأسفل، تعالي معي.

استسلمت الفتاة لرغبتها، ومشت خلفها صوب المقهى الموجود في الطابق السفلي من مبنى الجامعة، دخلت الفتاتان للداخل، كان هادئًا جدًا ولم يكن مزدحمًا، اختارت أميرة الطاولة المناسبة وجلست، ثم أشارت لها بيدها:

- تفضلي بالجلوس.

فجلست الفتاة ونظرة الحيرة لا تفارق وجهها، مدت أميرة يدها لتصافحها قائلة:

- أنا أميرة، وأنت؟

مدت يدها لمصافحتها:

- أدعى جوليا -ثم نظرت بتوتر- هل هناك خطب ما؟
- في الحقيقة راودتني بعض الشكوك، وأود التخلص منها.
- وما هي؟
- أتعرفين صديقتي سيلينا؟

توترت الفتاة قليلًا ثم قالت:

- ليس كثيرًا.
- لم يبدُ عليك ذلك عندما سقطت مغشيًا عليها، بدا لي عليك الخوف كثيرًا، فظننت أن بينكما علاقة قوية.

ضحكت الفتاة في سخرية:

- وهل أنت حبيبها وتشعرين بالغيرة مما حدث؟

رمقتها أميرة بنظرة تحقيرية لسذاجتها وقالت:

- أود أن أعرف ما هي علاقتك بسيلينا فحسب.
- أظن أن الأمر يخصني وحدي.
- حسنًا ولكنها صديقتي أيضًا.
- تستطيعين سؤالها إذًا.
- سألتها وقالت إنها لم تتعرف عليك.
- وكيف حال صحتها الآن؟
- أرجو ألا تخرجي عن الموضوع.

رفعت جوليا حاجبيها وقالت:

- لا أسمح لك بتقليل احترامي والتحدث هكذا، وإحضارك لي إلى هنا بهذا الشكل غير مريح لي أبدًا.
- لم أحضرك بتلك الطريقة سوى عندما رأيت موقفك على نفس الدرجة من الريبة عندما كانت صديقتي مريضة.

همت جوليا بالوقوف:

- لا شيء لدي لأخبرك به، ولا بأس إن خفت على فتاة ما، وأظن أن رد فعلي كان تلقائيًا وغير مثير للشك لهذه الدرجة، يا لك من تافهة، هل أحضرتني كل

ذلك من أجل هذا فقط؟ خفت كما خاف الجميع، لا تربطني علاقة بها، ولا أرجو أن يجمعني الله بكم صدفة حتى.

ثم غادرت المكان وهي تمشي بسرعة وانفعال.

قالت أميرة بغضب:

- فتاة متعجرفة.

ثم نهضت من مقعدها، واتصلت على أخيها ليأتي ويصطحبها إلى سيلينا، وقبل ذلك اتصلت بصديقتها أسيل؛ فأتاها صوتها على الطرف الآخر قائلة بمرح:

- أميرة، اشتقت إليك، كيف حالك؟ أرجو المعذرة منك على عدم تواصلي معك في هذه الفترة، انشغلت في كثير من الأمور.
- لا بأس يا جميلة، هل أنت متفرغة الآن لتعطينا القليل من وقتك؟
- لا بأس، لست بتلك الدرجة من الانشغال، إلى أين؟
- إلى سيلينا، هيا استعدي، سأمر لآخذك.
- حسنًا أنا قادمة.

ثم أغلقت الهاتف مبتسمة، وعاودت الاتصال بأخيها ووعدها بالمجيء قريبًا.

انتظرته أميرة حتى أتى، وتقابلت الفتاتان وذهبتا إلى سيلينا التي رحبت بهما، وكانت المرة الأولى التي ترى فيها أميرة الحاج عمر الذي كثرت حكايات سيلينا عنه، فابتسمت له ورحبت به قائلة:

- انتفخ رأسي من حديث سيلينا عنك، تشرفت بلقائك أخيرا.

ضحك الحاج عمر ملء فيه:

- وأنا سعيد بذلك أيضًا يا ابنتي، كنت أذاكر معها دروسها، هل تودين الانضمام؟

تأففت أميرة وقالت:

- خرجت من الجامعة والدراسة لتوّي، غيروا الأجواء.

فنظر الحاج عمر لأسيل قائلًا:

- ومَن الآنسة الأخرى التي نتشرف بوجودها أيضًا؟

ابتسمت أسيل وردت على استحياء:

- أدعى أسيل.

نظرت أميرة لهم وقالت بتهكم:

- أكلني الجوع، هيا لنتناول طعام الغداء، أحضرت ما يكفي الجميع هنا.

مكثت أميرة ترص الأطباق وتحضرها تحت نظرات سيلينا المحبة والمبتسمة، وهي تضع هذا وذاك وتوزع عليهم أطباقهم، تناول الجميع طعام الغداء وسط نكاتهم وضحكاتهم التي لا تتوقف، والتي تحيي نبض سيلينا من جديد.

إنها أميرة التي أجابت على السؤال الذي يتكرر على مسامعها: أيتعافى المرء بأحبابه؟ نعم إنها تتعافى بأميرة، أميرة حياتها وملكة قصتها.

ثم ابتسمت وأكملت طعام الغداء في صحبة الجميع، وانتهت الجلسة ورجعت أميرة في موعدها المعتاد، ثم أخذت أسيل وذهبا خارجًا، وأكمل الحاج عمر جلسته مع سيلينا.

نظرت أميرة لأسيل وقالت:

- أشعر أن هناك الكثير من الأمور الجديدة التي حدثت لديك، أخبريني حتى يصل أخي كيف أصبحت الأمور في المنزل؟ وهل تتناولين أدويتك؟ وكيف أصبحت علاقتك مع الطبيب؟
- أشعر بالفخر وأنا أخبرك أن الطبيب أخبرني بأن معدل شفائي يتسارع بشكل ملحوظ، وأنه لم يسبق له رؤيته مسبقًا، حتى أنني لم أتوتر كثيرًا مثل ما كنت سابقًا عندما تحدث معي الحاج عمر، بل عكس ذلك، أحببته كثيرًا وأود الجلوس معه والتعرف عليه أكثر من ذلك.
- إذا عليك المجيء معي كل يوم -ثم هتفت بحماسة- لم يتبق الكثير على موعد القضية، إنه اليوم المنتظر، أرجو أن تخرج سيلينا من كل هذا آمنة، وقبل ذلك لن أترك المدعو حسن هذا وشأنه.
- لا تتهوري يا أميرة.
- لن أتهور، سأطلب منه بأدب فقط.

قالت ذلك بسخرية، تنهدت أسيل:

- هاه... لا فائدة من إقناعك.

وفي هذه الأثناء وصل أخوها، فلوحت له بيدها ثم قفزت من مكانها بحركة طفولية:

- نحن هنا، نحن هنا، أرجوك ساعدنا، النجدة، أصبحنا بيضًا مسلوقًا تحت الشمس.

ضحكت أسيل من تصرفاتها، ثم اقترب منهما أخوها، فركبت الفتاتان العربة بعد أن أنهيا ضحكهما وعبثهما، وذهبت أسيل لمنزلها، وأميرة كذلك لتكمل روتينها اليومي كالمعتاد. وكذلك سيلينا التي قضت نصف وقتها مع الحاج عمر، والنصف الآخر وسط كتاباتها التي لم تنتهِ منذ دخولها للسجن، تشعر لوهلة بأنها ممتنة لهذا السجن رغم وحشته، تعلمت الكثير هنا وكتبت الكثير، تعلمت معنى الصبر الحقيقي أيضًا، ولا سيّما الحاج عمر الذي لم تتخيل يومًا أن تقابل شخصًا بروعته.

اعتادت من كبار السن على الملل والتقليدية، ولكنه خالف المألوف، لم يكن فردًا من القطيع بحق؛ ولذلك هاجمه الناس، يرعبهم كونك مختلفًا عنهم، ويحاولون بكل ما أوتوا من قوة أن يغيروا مسار تفكيرك ليتناسب معهم، ولكنك تأبى ذلك.

الكثير منا أعمتهم مغريات الحياة عن الحياة الحقيقية، ورغم أنها في موقف لا تحسد عليه البتة؛ إلا أنها تشعر بالسعادة، فهي أدركت أخيرًا أنه لولا حزننا لما شعرنا بالسعادة مطلقًا، وليس كل ما ألبسه الناس رداء التعاسة يكون هكذا، نحن من نضفي على الأمور حيويتها، فقد يكون السجن حرية طالما اخترنا نحن ذلك.

تعلمت أن الشعور بالحرية أساسه السجن، لا يبقى للحرية معنى دون وجود السجن، ولذلك كل من لم يجربه لا يشعر بمعنى الحرية الحقيقي.

لم يبقَ شيء لخروجها من هنا، سترى حسن أخيرًا، ولكنها بالفعل لم تستطع تحديد ما ستواجهه به من كلمات، تشعر بالغضب منه ولكن شعور الصدمة يسبق كل المشاعر الأخرى التي تشعر بها، أيًا يكن.

تعلمت أيضًا أن بحثها عن أهلها ليس مهمًا بقدر بحثهم هم عنها، ابتعدت عن أمير كثيرًا هنا، لا تذكر متى كتبت له آخر مرة، ربما كانت تخاف دائمًا خسارته وخسارة أهلها من خلال تفكيرها المستمر بهم والكتابة لهم؛ وكأنها تحاول إحياؤهم بداخلها باستمرار، ولكن خوفك من خسارة شيء يجعلك تخسر كل شيء.

خسرت نفسها طوال هذه السنوات، لم تفكر حتى بمستقبلها الدراسي كما يفعل الشباب في مثل سنها، ولكنها تغيرت الآن، لن توقف حياتها أكثر من ذلك.

وأيضًا تعلم أن هناك شخص مجهول يقف خلف الكثير من الأحداث التي حدثت وتحدث وستحدث، وتستطيع الاطمئنان إلى أنه لا ينوي السوء لها؛ إنه يساعدها، فلا خوف منه، وربما تتعرف عليه في يوم من الأيام، ولكن سيكون من المضحك جدًا إن كان هذا الشخص هو أبوها، أيتخفى الآباء عن أبنائهم؟ أيساعدوهم بخفاء؟ هذا لا يحدث حتى بالأفلام...

ولكن وإن كان أساس شخصية كل فرد في العالم ومشاعره وأفكاره هو ما حدث له في الماضي، فلم يعد يهمها ذلك، ليكن أصلها هو الآن، ولتصبح ابنة اللحظة الحاضرة، إننا نحتاج دائمًا للحظات السلام مع أنفسنا، وتقبّل كل ما يحدث لنا والعمل على مواجهته بقوة أكبر، سنعيش مرة واحدة، لا وقت لدينا للوقوف أكثر من ذلك.

ومرت الأيام، وقبل اليوم المنتظر بثلاثة أيام كانت أميرة تزور سيلينا كالمعتاد، وعند خروجها قابلت المحامي الخاص بالقضية، أتى لزيارة سيلينا أيضًا، ولكن يبدو أنه لم يخطط أن اللقاء سيكون مع أميرة في الحقيقة، التي استغلت الفرصة وأخبرته بقصة سيلينا وما حدث لها مع حسن، والأدلة الشاهدة على ذلك اليوم الذي استدرجها فيه إلى حديقة منزله، وقد دوّن المحامي كل ما كان يرغب بسؤال سيلينا عنه، ثم عاد وسرد على مسامع سيلينا ما قالته أميرة فأكدته كله ولم يترك لها مجال لسؤاله من أين عرف هذا.

*****

اعترف حسن لأمه باتهامه لسيلينا، وأنه هو القاتل الحقيقي بعد أن استطاع التحدث، وتحسنت صحته كثيرًا ما عدا قدمه التي ما زالت مكسورة، بكت أمه كما لم تبكِ من قبل، وحزنت كثيرًا لحال ابنها وما فعله، ورغم ذلك ساندته ووعدته ألا تخبر والده عن هذا، ولن يزيده والده عقابًا فوق العقاب الذي اختار أن يلقاه إثر جريمته، ورغم محبة أمه الشديدة له إلا أنها لم تعترض على تسليم نفسه للشرطة ليُجازى على ما فعل، بل شجعته على فعل ذلك.

*****

ربيع
ديسمبر

الفصل الخامس

"شعاع الشمس لا يخفى، ونور الحق لا يطفأ"

وأخيرًا حان الوقت المنتظر، وأشرقت شمس يوم بداية الشهر الجديد، يوم المحاكمة في هذه القضية التي طال انتظارها.

دخل الشرطي ليفتح لسيلينا الزنزانة، خرجت سيلينا وهي تهمس بداخلها:

- حان وقت التحرر يا سيلينا، تحرري من كل شيء، عشتي أسيرة أفكارك مدة أطول من مكوثك في هذا السجن، عشتي أسيرة ماضٍ تودين العودة له أو تذكره على الأقل، لم يعد لذلك قيمة بالنسبة لك، تحرري يا سيلينا فأنت إنسان، تقبّلي أسوأ الموجود باعتباره الأفضل لك في هذه اللحظة، فأنت ابنة اللحظة، أليس كذلك؟

ثم خرجت سيلينا، وكانت أميرة بانتظارها في الخارج، وكذلك أسيل التي أصرت على الحضور، خرجوا ثلاثتهم من مكان موحد، وهم يمشون بخطوات متناسقة معًا لذات الاتجاه، قاعة المحكمة.

ورأت سيلينا الحاج عمر يتوجه إلى نفس الغرفة، وذاك المحامي أيضًا، تذكرته من هيئته الضخمة، لم تميز ملامحه كثيرًا حينها.

نظرت أميرة لسيلينا، ثم أمسكت بيدها وشددت على قبضتها وقالت:

- لا تقلقي، إن كانت هذه حربًا فنحن الفائزون فيها مهما يكلفنا الأمر.

أومأت سيلينا برأسها موافقة.

وأثناء سيرهم عبر الممر نظرت أميرة أمامها لتجد أم حسن تدفع ابنها على كرسي، نظر حسن لهم مطولًا ولم يعلق، وكانت النظرات أبلغ من الكلمات، والأجواء مشحونة بما فيه

الكفاية ووصل الجميع للغرفة المنشودة معًا ودخلت الفتيات أولًا، تبعهم حسن وأمه والمحامي خلفهم.

دخلت لتجد أمامها قاعة كبيرة، يجلس القاضي في طاولة تنتصف هذه القاعة وتقسمها إلى نصفين، اتجهت سيلينا ناحية المحامي الخاص بها الذي اتخذ مجلسه يمين القاعة، وعند وصول الجميع للمكان المطلوب طرق القاضي على الطاولة بصوت مرتفع قائلًا:

- اكتمل الحضور، لتبدأ الجلسة.

ثم أشار لحسن وأمسك بالورقة التي أمامه وبدأ بقراءة ما فيها:

- اتهم السيد حسن الآنسة سيلينا بقتل ضحية، وقد أثبت ذلك بدليل سلاح الجريمة الذي وجدت عليه بالفعل بصمات الآنسة سيلينا، ولكن جثة الضحية كانت قد تحللت، ورغم ذلك استطعنا التعرف على هويتها، وهي فتاة في مقتبل العمر تدعى سارة، ولكننا عندما بحثنا عن أهلها وُجد أنهم في مدينة بعيدة عن هنا بضعة من الكيلومترات، كما أنهم أكدوا لنا أن ابنتهم لم تتعرف قط على من تدعى باسم سيلينا، ولكن شهادة أهلها أيضًا أثبتت أن الضحية كانت على علاقة عاطفية مع شاب يدعى حسن، مما أدار الشكوك حوله وأصبح من قائمة المشتبه بهم أيضًا في هذه القضية.

ثم جال ببصره في القاعة ونظر باتجاه سيلينا التي كانت تجلس قريبة من المحامي ثم قال:

- كيف تردين على هذه التهمة يا آنسة؟ ومع العلم أنك أثرت اعتراضًا كبيرًا على ما حدث، هل تستطيعين أن تفسري لنا ما حدث؟

همت سيلينا بالحديث وكأنه يوجه الخطاب لها، ولكنه كان في الحقيقة يخاطب المحامي، ثم وقفت سيلينا فأشار لها المحامي بالجلوس وقال:

- أنا هنا الموكل لهذه القضية يا سيدي، سر البصمات أن سيلينا كانت على علاقة صداقة وثيقة بينها وبين الأستاذ حسن، وكانا يتنزهان معًا حتى قررا اللعب بالسهام، ولكن حسن أجبرها أن تريه مهاراتها في التصويب بالأسلحة، وهذا المسدس ملك حسن يا سيدي ولا شأن لسيلينا به.

تساءلت سيلينا وهي تراقب نظرات أميرة التي كانت تنظر للمحامي بسعادة وكأنها حققت نصرًا ما، فتساءلت بداخها أيعقل أن تكون هي من استأجرته وكانت شكوكي خاطئة حول هذا الرجل المجهول الذي شككت به؟ ستنالين جزائك يا أميرة، كيف تخفين هذا عني؟!
أومأ القاضي برأسه ثم التفت ناحية حسن قائلًا:

- وما ردك على هذا يا سيد حسن؟

نظر حسن ببرود للقاضي، ثم هم المحامي للتحدث، ولكن أشار له حسن أن يتوقف عن ذلك، وقال في هدوء:

- عدم معرفة المقتولة بهوية القاتل ليس شيئًا مريبًا يا سيدي، الكثير من جرائم القتل ارتكبت دون معرفة الضحية بالمسؤول الحقيقي عنها.

نظرت أميرة وقالت بانفعال:

- كما يبدو عليك، لديك أيضًا خبرة في هذا المجال أيها السيد المحترم.

تجاهل حسن تعليقها وأكمل:

- وهذه القصة المفتعلة لا يوجد إثبات حقيقي عليها يا سيدي، ما الذي يثبت ما حدث؟

نظر القاضي له وقال:

- وهل أنت تنكر أنك كنت في صحبتها في ذلك اليوم؟

عضت سيلينا على شفتيها غيظًا من برود حسن ومن وكذبه، نظر لها حسن بتحدٍ ولم يجب؛ إشارة منه أن هذا دور المحامي، فاتجه القاضي ناحية المحامي وقال:

- وما ردك على هذا أيها السيد؟

ابتسم المحامي بخبث وخطف نظرة سريعة لأميرة وسيلينا، التي كانت تتابع كل ما يحدث، وتريد خلع حذاءها والقذف به في وجه صديقتها، التي خططت لكل شيء دون علمها ثم قال:

- مكان النزهة نفسه يا سيدي، أرجو تفتيشه من جديد.
- سيتم فحصه من جديد إذا.

ثم اتصل فورًا بمجموعة من الرجال وبدأ بإلقاء الأوامر:

- عليكم الذهاب للمكان (.....)، عليكم تفتيش المكان جيدًا والبحث عن كل البصمات -ثم فتح شاشة عرض كبيرة تملأ القاعة بأكملها- وصوروا كل شيء ليصل لي إلى هنا.

ثم نظر إلى حسن من جديد وقال:

- هذا المكان يعود لوالدك يا حسن، أليس كذلك؟

أومأ برأسه موافقًا وقال:

- إنه بالفعل كذلك يا سيدي.

نظر المحامي الخاص بحسن وقال:

- وما الذي سيثبته المكان ضده؟

قال القاضي في حدة:

- نحن فعلنا ذلك بناءً على رغبة الطرف الآخر يا سيد، لا يحق لك الاعتراض على ذلك.

أومأ المحامي برأسه موافقًا، وفي هذه الأثناء ظهر ستة رجال وظهرت الحديقة التي كانت سيلينا تجلس مع حسن فيها، كان كل شيء كما كان، حتى مكان الكرسي لم يتغير، ثم أخذوا يتجولون في الحديقة بالكاميرا، فوجدوا حبلًا ملقى خلف تلك الخشبة المرسوم عليها الدوائر، ولم تكن بعيدة عن مكان دفن الجثة.

نظر محامي سيلينا ناحية القاضي وحسن بانتصار وقال:

- يبدو كل شيء واضحًا هنا يا سيدي، تم ربط الجثة على الخشبة التي ادّعى السيد حسن أنها موجودة لتصوب سيلينا السهام نحوها، لم تعرف سيلينا ما حدث، كانت تلهو وحسب، ولم تكن تعرف سر النوايا الخبيثة.

ثم التفت ناحيته ورمقه بنظرة تحدٍ، وفي لحظة غير متوقعة ارتفع نحيب أم حسن بالبكاء وهي تردد:

- لا ترحل يا حسن.

نظرت أميرة بسخرية وقالت:

- لن يرحل عنك، لا تبكي لهذه الدرجة، هل أصبح للمجرمين قلوب أيضًا؟

اشتعل الغضب في عيني أم حسن، ثم قامت من مقعدها منفعلة تنوي رد حقها، فطرق القاضي طرقات حادة على الطاولة وقال:

- عليكِ التزام الهدوء يا آنسة، والزمي الكرسي.

جلست أم حسن من جديد باستسلام على الكرسي وهي تتوعد أميرة في سرها، ثم أمر القاضي رجاله بالبحث عن البصمات في كل مكان، ولكن لم يعثروا عليها؛ فقد مر الكثير من الوقت وتراكم الغبار فوق كل شيء، وأصبح ذلك مشوشًا على أجهزتهم، وقال أحدهم:

- لم نستطع العثور على شيء.

نظر القاضي بتفهم وقال:

- اجمعوا صورًا لكل شبر في المكان الذي أنتم فيه، واجعلوه تحت المراقبة العسكرية.

وأُغلقت الشاشة، ثم نظر لحسن وقال:

- وما ردك على هذا الأمر يا سيد حسن؟

أمسكت أمه بيده وقالت:

- افعل الصواب يا بني.

ثم استغرقت في نوبة بكاء جديدة، ربت حسن على كتفها ثم نظر للقاضي وقال ببرود:

- معه حق يا سيدي، لقد حدث كل ذلك.

قال القاضي:

- وهل يفهم من كلماتك أنك أسقطت تهمتك عن الآنسة سيلينا؟

- نعم يا سيدي أسقطتها.

ضحكت أميرة بانفعال وهي تصفق، فطرق القاضي من جديد في حدة وقال:

- سأنبهك للمرة الأخيرة يا آنسة.

شعرت أميرة بالحرج فالتزمت الصمت، وضحكت سيلينا على فعلها، ثم صمت القاضي بعد أن دخل أحد الرجال يحمل له الصور المطلوبة، جلس القاضي يدقق النظر فيها من جديد والتفت ناحية حسن وقال:

- تستطيع أن تخبرني بكل ما لديك يا سيد حسن.

ثم أشار للمحامي الذي لم يتحدث منذ بداية الجلسة، ثم نهض المحامي وقال:

- اعترف السيد حسن أنه اتّهم الآنسة سيلينا لأسباب شخصية، وأنه يسقط التهمة، كما أنه أقرّ بالدليل الذي قدمته الآنسة.

فقال القاضي وقد ضرب على الطاولة من جديد:

- إذًا يسرني أن أعلن براءة المتهمة سيلينا وفقًا لما قدمته من أدلة ترد على تهمتها، وتم قبولها من قِبل القضاء، وقد أقر الشاكي صحتها ولم يثر اعتراضًا، وسيتم تعويض المتهمة سيلينا بمبلغ من المال مقابل زجها في السجن طيلة الشهرين السابقين؛ فهذا يعد ظلمًا للشابة، وسيتم أخذ هذا المبلغ من الشاكي حسن، والمبلغ قدره عشرة آلاف قطعة نقدية.

شهقت أم حسن ووضعت يدها على صدرها وقالت:

- ماذا تقول أيها القاضي؟ من أين يمكننا جني هذا المبلغ؟

قالت أميرة بانفعال:

- كنت لتربي ابنك المجرم، على الأقل كنت ستوفرين أيضًا كل ذلك المبلغ من المال.

نظرت أم حسن لها بغيظ وللقاضي، فاستسلمت وهي تنوي القضاء عليها بعد الخروج من هذه القاعة.

لم يلتفت لهم القاضي وقال:

- هذا وفقًا لمادة القانون 22 حُكمت هذه القضية، ولكنها لم تنتهِ بعد هنا، ستستمر معك التحقيقات يا سيد حسن، ولكن هذا ليس اختصاصي، تستطيعون جميعًا المغادرة.

ونُقل السيد حسن إلى غرفة التحقيق لأخذ القرار اللازم في حقه، ثم غادر القاضي ورجاله القاعة، وبقيت سيلينا والمحامي وأميرة، وعلى الطرف الآخر حسن وأمه، ابتسم المحامي لسيلينا وقال:

- تهانينا.

ابتسمت له سيلينا بدورها وقالت:

- شكرًا لك.

هرولت أسيل ناحيتهم، كانت تجمع بعض الأغراض التي سقطت من حقيبتها أثناء جلوسها، وصرخت بصوت عالي ملأه السعادة والحماس:

- مبارك لك يا سيلينا.

ثم اندفعت نحوها تقبلها واحتضنتها بحب، عقدت أميرة حاجبيها وقالت:

- حسنًا أنا أولى الناس باحتضانها الآن، هيا ابتعدي.

ضحكت سيلينا لغيرة أميرة المعهودة، ثم احتضنتها بحب كذلك، وتقدم الحاج عمر والذي انتظر انتهاء حديثهم، ولكن يبدو أنه لن ينتهي فقرر الدخول بينهم وقال:

- مبارك يا ابنتي، أخبرتك أنك ستخرجين من هنا، علمت ببراءتك منذ رأيتك للوهلة الأولى.

ثم اغرورقت عينا سيلينا بالدموع عندما رأته وهي تتذكر ما قدمه لها، وجلساتهم وأحاديثهم التي دامت لساعات طوال آنس فيها وحشتها، ولم يكن هناك غيره، أمسكت سيلينا بيده وقبلتها وقالت:

- أشكر السجن الذي جمعني بك يا عم، كنت أبي طوال هذه الفترة، اسمح لي بأن أناديك بذلك.

ابتسم الحاج عمر وأومأ لها برأسه ونظر للجميع وقال:

- أستأذن منكم الآن لدي عمل.

فودعوه جميعًا متمنيين له يومًا سعيدًا وعملًا موفقًا.

ابتسم المحامي لهم أيضًا قائلًا:

- أتمنى لكم يومًا سعيدًا أنا أيضًا، لدي الكثير من الأعمال الآن، مبارك لك مجددًا يا سيلينا، ولكن أود أن أخبرك أنني سوف أتكلف أمر النقود التي سآخذها منه، لا تشغلي بالك بها، قريبًا سأرسلها لك.

التفتت سيلينا له بانفعال فقد تذكرت الأمر لتوها، ثم نظرت له وقالت:

- لست مهتمة أن يأتي لي المبلغ كاملًا، تستطيع التصفية معهم على خمسة آلاف فقط، وأعطهم الوقت الذي يناسبهم لسداده.

أعجب المحامي بذلك وابتسم قائلًا:

- حسنًا سأفعل.

- ولكن عليك أن تخبرهم هنا أن المبلغ وصل كاملًا بالتأكيد.

ثم شردت قليلًا في كيفية حدوث ذلك، وردت بصرها له من جديد باستسلام وقالت:

- حسنًا أنت أدرى بذلك، إنه عملك.

ابتسم المحامي وقال:

- أمرك يا آنسة، اتركي لي رقم هاتفك وسأخبرك بكل جديد.

أعطته سيلينا رقم هاتفها وغادر المحامي القاعة.

*****

أجهشت أمه بالبكاء وأمسكت بيده وقالت:

- هل ستعترف أنك الفاعل يا بني؟ كيف سأتحمل الحياة دونك؟

ربت حسن على كتفها قائلًا:

- لا تقلقي يا أمي سأكون بخير -ثم نظر ناحية سيلينا- أنت ربيتني على الصدق، وعليّ تحمل عواقب أخطائي وحدي.
- وماذا سنفعل في أمر تلك النقود؟
- سأسددها لكم فور خروجي من هنا يا أمي، أعدك.

تذكرت أمه أميرة وما حدث بينهما، وثارت حفيظتها من جديد:

- سألقنها الدرس الآن.

ولكن أوقفها حسن وحثها على نسيان ما حدث؛ فلديهم ما هو أهم الآن، ثم أمسكت يده من جديد وقالت:

- لا أود تركك يا بني.

وأخذت تبكي بشدة دون انقطاع بعد أن أسقطت رأسها على فخذيه، وهو يجلس على الكرسي في ثبات، سقطت من عينيه دمعة، لم يعلم أهي دمعة عتاب لها ولأبيه على تركهم له قبل ذلك؟ وبطريقة ما كان يعلم أنهم السبب في قيامه بهذه الجريمة، ولكن لا تؤمن العدالة بالأمور الغير مباشرة، والأدلة الغير مرئية، وبعد أن أنهت أمه نوبة بكائها، قال لها:

- هيا يا أمي لنخرج من هنا.

ونظر أمامه فوجد سيلينا منشغلة بالحديث مع من هم حولها، توجهت أمه تدفعه على كرسيه نحو الباب فلمحت سيلينا خروجهم، فتركت الجموع وهرولت ناحيتهم ثم قالت:

- سيدتي.

التفتت أم حسن فورًا متجنبة النظر مباشرة لعينيها خجلًا منها ومما حدث.

- لا تقلقي من المبلغ، خففته لكم إلى خمسة آلاف قطعة نقدية، وقد اتفقت مع المحامي أن هذا سيكون اتفاقًا بيننا فقط، وسيصل للمحكمة أنه تم دفع المبلغ المطلوب حتى لا تحدث مشكلة.

نظرت أم حسن لها بامتنان وقالت:

- لا أعلم كيف أشكرك يا ابنتي، تجمعت جميع عبارات الامتنان دفعة واحدة في رأسي الآن، شكرًا لك كثيرًا.

ثم رد حسن باحتجاج مستفز:

- نحن لا نحتاج هذه الشفقة منك يا آنسة سيلينا.

تجاهلت سيلينا حديثه وقالت:

- ربما لا تحتاجها أنت، ولكني لا أقدم هذه المساعدة لك من الأساس، بل لمن سببت لهم مشاكل لا ذنب لهم فيها.

نظر حسن إلى الأسفل باستسلام والتزم الصمت، إنها لا تعلم شيئًا، هم السبب الرئيسي المتخفي، ولكن لا يستطيع البوح بهذا أمامهم بالطبع، ثم قالت أمه:

- لا أعلم كيف أرد لك هذا الجميل يا ابنتي.

ابتسمت سيلينا وقالت:

- لا داعي لذلك حقًا، أرجو لك السلامة.

وخرج حسن وأمه تدفعه على الكرسي المتحرك، وعادت سيلينا لجمعها ثم قالت:

- حسنًا إذًا لنعد للبيت.

ابتسم الجميع مرحبين بالفكرة، وعند خروجهم استقبلت سيلينا شعاع الشمس، مع نسيم الهواء الذي يلطف الأجواء، ابتسمت سيلينا رغمًا عنها، مر الكثير من الوقت على المرة الأخيرة التي استنشقت فيها الهواء بحرية، على المرة الأخيرة التي رأت فيها شعاع

الشمس وتحليق الطيور، ترى النور بالفعل، كأنها في حلم، ترى الجمال مرة أخرى بعد أن أخذها الهم إلى الاعتقاد أنها ستتعفن وتموت بداخل تلك الزنزانة المظلمة؛ التي ضاقت بها ذرعًا من كل الاتجاهات، وقالت في نفسها:

- حقًا إن الظلام هو بداية النور، والليل هو بداية النهار، ولا نجاح بلا يأس، استعدي لمواجهة الحياة بنسختك الجديدة، غيّرني السجن بالفعل.

ابتسمت سيلينا بحب وامتنان وهي تحملق في السماء والبسمة لا تفارق شفتيها منذ خروجها غير آبهة بمن بجوارها، ثم ركب الجميع السيارة التي ستنقلهم إلى منزل سيلينا.

*****

تم إدخال حسن إلى غرفة التحقيق، ولكن كانت أقرب إلى غرفة الاعتراف بالنسبة لحسن، لم ينتظر الأسئلة كي يجيب، اعترف فورًا بكل ما فعله، وقد وقع ثباته في الاعتراف _وكأنه يتحدث في أمر عادي_ وقع الصدمة والإعجاب في الوقت ذاته في نفس المفوض.

وانتهت الجلسة، حتى أن المفوض كاد أن يتحدث ولكن تحرك حسن بكرسيه معلنًا إنهاءها، فانتهى الأمر بإعلان مكوثه في المشفى المعزول لإتمام شفائه ثم اتخاذ القرارات اللازمة بحقه، كان هذا القرار إنسانيًا عن المعتاد لمثل هؤلاء الأشخاص.

ولكن كان هذا بفضل المفوض الذي أعجب بحسن؛ فقد عمل سنوات طوال ولم يرَ بثباته أي مجرم، ربما يعترف المجرم قبل نهاية التحقيق، ولكن لم يرَ في حياته مجرمًا يمسك بزمام الجلسة ويسرد القصة كاملة، ووفقًا لمكانته في المركز فقد عمل جاهدًا على توفير ذلك للسيد حسن؛ الذي ظل ظنه يحدثه بأنه يكذب وأنه لم يقم حقًا بهذه الجريمة.

*****

- سيدي لديَّ كل الأخبار السارة لك.
- هيَّا تكلم.

- كسبنا القضية وخرجت سيلينا، كنت قد وضعت جهاز التنصت في ملابس المحامي الذي وكلناه، سأكون لديك غدًا لأطلعك على تفاصيل ما حدث.
- أحسنت، ستكون حصتك من المال جاهزة غدًا، تستطيع أن تحجز أقرب تذكرة للعودة، انتهى عملك هناك.
- شكرًا لك كثيرًا يا سيدي.

ثم أغلق الهاتف والسعادة تغمره، تخلص أخيرًا من تلك القضية، وسيعود لحياته الطبيعية هناك.

*****

ركبوا جميعًا السيارة التي ستنقلهم إلى منزل سيلينا للاحتفال بعودتها بالطبع، وعند وصولهم فتحت سيلينا باب منزلها لتتفاجأ بوجود الظرفين الخاصين بالشهرين الماضيين بداخلهم النقود التي ترسل إليها كل شهر، حملتهم سيلينا في يدها تحت نظرات أميرة وأسيل، تعلم أميرة كم أن أمر تلك الأسئلة يؤرق رأس سيلينا الصغير، وآثرت الصمت وحسب، ثم هتفت سيلينا بمرح:

- أهلًا بكم في منزلي، اشتقت إليه كثيرًا -ثم نظرت بحزن- ولكن يبدو أنه هناك الكثير من التراب الذي غطى المكان خلال غيابي عنه.

قالت أميرة في حماس وهي تضع حقيبتها جانبًا:

- إذًا لننظفه.

هتفت أسيل بنفس القدر من الحماس ووضعت أغراضها جانبًا أيضًا:

- هيا لا مانع لدي، سأخبر أمي وستسمح لي بالتأكيد.

شكرتهم سيلينا ممتنة، وشرعوا بإحضار معدات التنظيف ومسح الأرض بالصابون، أخذت أميرة تتدحرج على الصابون بلهو طفولي، ثم سقطت على الأرض وسط ضحكات سيلينا وأسيل التي لم تتوقف طوال التنظيف، وبعد الانتهاء من تنظيف المنزل بأكمله نظرت لهم أميرة وقد بدا عليها التعب، لا تدري هل أصابها التعب من التنظيف حقًا أم من الضحك، وكذلك حال الجميع، ثم قالت أميرة:

- يجب عليّ إحضاركم للمنزل عند تنظيفي إياه، لم أستمتع يومًا بالتنظيف بهذا القدر، كنت دائمًا أكرهه وتجبرني أمي عليه.

ضحكت سيلينا وقالت:

- أنا مستعدة لذلك.

ضحكت أسيل قائلة:

- ولكن بالطبع لن تسمح أمك بهذه المهزلة -ثم وجهت كلماتها لسيلينا- ولكن أين والدتك من كل هذا؟ كان هذا السؤال يراودني منذ زمن ولكن خفت أن أسألك فيصيبك ذلك بالحزن.

أطرقت سيلينا مفكرة، فقالت أسيل بانفعال:

- إن أحزنتك لا بأس، لا تخبريني، هذا غير مهم، كم أنا غبية! كنا سعداء.

هتفت أميرة لتخلص صديقتها من هذا الامر وقالت:

- حسنًا الأمر معقد يا أسيل، حتى هي لا تعلم أين هم بالفعل، ربما ماتوا في حادثة ما.

فزعت أسيل من حديث أميرة التي كانت تتحدث ببرود، ومن صمت سيلينا البارد أيضًا وقالت:

- أعتذر يا سيلينا، لم أشأ أن أسبب لك الحزن حقًا.
- لا تقلقي يا جميلتي لم أحزن، فكما أخبرتك أميرة أنا لا أعرف حقيقة أين هم فلا تهتمي لذلك.

صمتت أسيل مفكرة، وخيم الصمت على المكان لدقائق، وقطعته أميرة:

- سيلينا، أود أن أحدثك عن أمر ما.
- بالطبع تحدثي.

حكت لها أميرة أمر جوليا (الفتاة المريبة) بالكامل وما حدث بالتفصيل.

أطرقت سيلينا مفكرة فيما أخبرتها، لم يسبق لها السماع حتى باسمها، ثم قالت:

- حسنًا سأراها غدًا في الجامعة وبعدها سأقرر ما سأفعله بهذا الأمر.

أومأت أميرة برأسها في صمت وراقت لها الفكرة، ثم هبت أسيل من مجلسها فجأة:

- إذًا هيا يا فتيات، تأخرت على أمي اليوم، كما أن لدي موعد عند الطبيب في الصباح الباكر، عليّ العودة الآن.
- لا يمكنك العودة وحدك، هيا سأتصل بأخي ليأتي ويأخذنا.

نظرت سيلينا بحزن وقالت:

- إذًا نلتقي غدًا، سأشتاق لكم كثيرًا.

وجاء أخو أميرة وأوصل الفتاتين للمنزل.

وقضت سيلينا ليلتها سارحة بخيالها وأفكارها فيما حدث وما سيحدث بعد خروجها أخيرًا، وفي أمر جوليا، ثم قررت كعادتها بعد مدة من التفكير أن تترك كل ما يشغلها وتهتم بدروسها وحسب، أن تكون ابنة اللحظة وتتوقف عن القلق.

*****

وبعد اتخاذ هذا القرار ودعته أمه توديعًا حارًا قبل أن يتم نقله إلى المشفى المعزول، ولم تشأ أن تتركه أمه، ولكن اضطرت لذلك عند اتصال أبيه عليها، وجاءها صوته الغاضب على الطرف الآخر:

- أين أنتم؟ أين ذهب حسن؟ لماذا لم تخبريني أنه سيخرج؟

شعرت أمه بالقلق، زوجها ليس بالحالة الجيدة التي يمكنها إخباره فيه بالحقيقة كاملة، ثم قالت:

- حسنًا عليك أن تهدأ، سآتي للمنزل خلال دقائق لأخبرك بكل شيء.
- وأين المصيبة؟ حسن خرج لتوه من المشفى، هل أقحمنا في مشكلات أخرى؟ بئس الابن هو!

ولكن لم تنتبه أمه أن حسن كان يستمع للمكالمة؛ بل لهذه الكلمات بالذات، فسقطت دمعة صامتة على وجنتيه، لم تكن كفيلة بالتعبير عن قدر الألم الذي اجتاح صدره بعد سماعه تلك الكلمات الوجيزة، وربما سبب هذا الألم تراكم كلمات شبيهة ماضية أيضًا.

- نعم الأخبار ليست سارة، سآتي خلال بضع دقائق، انتظرني في المنزل.

ثم أغلقت الهاتف وعادت إلى حسن، وابتسمت له من جديد، ولكن حسن كان يعلم أنها لا تبتسم، إنها تمثّل ذلك فقط لتلعب دور الأمومة الذي فشلت في لعبه فشلًا ذريعًا، ثم قالت:

- لا تقلق يا عزيزي، سيكون كل شيء على ما يرام، كما أن أباك مستعد أن يفعل الكثير من أجل إخراجك من هنا، لا تقلق سأذهب وأفهّمه بقليل من العاطفة، وحينها سيتفهم -ثم وضعت يديها على كتفه- سيمضي هذا يا بني، أعدك.

ابتسم ابنها لها ابتسامة مصطنعة، وترددت كلمات أبيه في أذنه من جديد، وقال في نفسه:

- أهذا هو الشخص الذي سيبذل كل ما في وسعه ليساعدني؟

ثم ضحك في نفسه بسخرية، وأخذه رجال الشرطة للمشفى، خرجت الأم من المبنى في توتر واضح، تعلم كيف يكون زوجها عندما يغضب، لا مشكلة لديه أن يشق رأسها إلى نصفين دون أن تأخذه لحظات قليلة من الندم، كان هكذا دائمًا مع حسن.

لطالما أبرحه ضربًا دون أن يندم للحظة واحدة، ولطالما أمتلكها الخوف ولم تستطع منع ذلك عن ابنها، حاولت بشتى الطرق أن تخبره بأن ذلك سوف يؤذيه على المدى البعيد، ولكن لم يستجب لها معللًا ذلك بأن تلك هي الطريقة الصحيحة لتربيته وإلا سيصبح ولدًا ضالًا ومنحرفًا.

يتملكها الضعف دومًا فلا تملك سوى أن تستسلم له، لم تنم يومًا في أمان وهي تحتضن ابنها، لم تذق طعم الحب في ذلك البيت، لم تذق سوى الخوف المستمر، أضحكها مرورها على عرس ابنة صديقتها التي طلبت منها نصيحة للحياة الزوجية التي ستقبل عليها بشغف، حينها سخرت من نفسها حقًا!

لم تشعر يومًا بأنها تزوجت مثل باقي الفتيات، لخصّت حياتها في ثلاثة حروف (الخوف)، ربما مرت عليها الليالي التي طُرد فيها ابنها من المنزل أكثر هدوءًا من ذي قبل، على الأقل لا ترى ابنها يُضرب أمامها.

سرحت بأفكارها، لم تنتبه إلى وصولها إلا عندما ناداها السائق بحدة، دفعت له الأجرة ومشت بخطوات مضطربة خائفة إلى داخل المنزل، ثم طرقت الباب طرقات خفيفة ففتح الباب بقوة فجأة؛ وكأنه ينتظر خلف الباب تمامًا طوال هذه المدة، صرخ في وجهها:

- هيا أدخلي الآن، أخبريني ماذا فعل الأبله؟

نظرت له بخوف، إنها المرة الأولى التي تواجهه فيها وهو غاضب، كان دائمًا ما يصب غضبه على حسن؛ وهذا ما يبعده عنها، ولكنها قررت المواجهة من أجل حسن ولو لمرة وتتحلى بالشجاعة، وقالت:

- هلا جلسنا؟ سأخبرك بكل ما حدث، ولكن أرجوك اهدأ.

ثم ارتجفت يدها خوفًا من رده، فنظر لها باستخفاف وقال:

- لا أندهش عندما أرى ابني قذرًا هكذا عندما أراك، إنه يشبهك!... يشبه غباءك! وتطلبين مني الهدوء؟ هل نحن نحدد موعد زفافنا هنا؟ أخبريني عن مكانه وإلا جعلتك تلحقين به في المشفى.

اضطربت أمه كثيرًا وسالت دمعتين على وجنتيها خوفًا مما ستلقاه إن أخبرته، ولكن خرجت الكلمات منها بسرعة دون سابق إنذار، لم تتحكم بها، فقالت:

- قام ابنك بجريمة قتل واتهم فتاة بالقيام بها، ولكن ظهرت براءتها وابنك الآن سيمضي سجنه في المشفى المعزول، وهذه واسطة من أحد المسؤولين هناك.

رفع زوجها يده وصفعها على وجهها، فسقطت على الأرض إثر ضرباته الطائشة، وصرخ بقوة:

- كل ذلك بسببك! لم تربيه، أصبح ابني مجرمًا أيتها الحقيرة! أصبح قذرًا مثلك يرمي قذارات جرائمه على الناس، كل ذلك بسببك! لم يصبح ابني رجلًا، ضاعت كل جهودي في تربيته بسبب بلهاء مثلك.

ثم رماها بالحذاء الذي كان بقدمه عندما حاولت الوقوف؛ فسقطت من جديد وأجهشت بالبكاء، وغادر المنزل وأغلق الباب بقوة خلفه، وفزعت زوجته إثر صوت غلقه للباب، ونظرت لحالها في شفقة.

*****

استيقظت سيلينا وأميرة في صباح اليوم التالي استعدادًا للذهاب للجامعة، كان الحماس يغمر سيلينا؛ ربما الحرمان من شيء يذيقنا لذته، كم كانت تملّ من الذهاب للجامعة دائمًا، ولكنها الآن تشعر بالحماسة، ولا سيّما لرؤية جوليا، بالرغم من الموقف السلبي الذي حدث بينها وبين صديقتها أميرة، ولكن لا بأس، عليها معرفتها بنفسها رغم ذلك، واستيقظت أميرة وأخذت ترتدي ملابسها استعدادًا للذهاب، واتفقا على أن يتقابلا أمام الجامعة، وقد كان، ثم احتضنتها أميرة قائلة:

- أنرتِ الجامعة.
- أعلم ذلك، لا بأس.

نظرت لها بشيء من الاشمئزاز وقالت:

- حسنًا لم أقصدك، قصدت تلك الفتاة.

نظرت سيلينا حيث أشارت ولم تجد أحدًا فقالت:

- حسنًا لا بأس أقدر حياءك من قول هذا لي صراحة.

وضحكت الفتاتان ثم دخلوا للجامعة، استُقبلت سيلينا بحفاوة من جموع الفتيات الذين تعرفهم في الجامعة، قلق عليها الجميع، وهي اشتاقت للجميع، ولحياتها القديمة، والجامعة بأكملها.

وبينما كانت سيلينا منشغلة نظرت أميرة حولها تجول ببصرها بحثًا عن جوليا، ولكنها لم تجدها، ربما ستأتي متأخرة اليوم، وبدأت المحاضرة الأولى، وجاءت جوليا متأخرة بالفعل، ولحسن الحظ _أو لسوئه_ امتلأت جميع المقاعد ولم يبقَ سوى المقعد الذي بجانب أميرة خاويًا، فاضطرت للجلوس فيه وهي كارهة.

زفرت أميرة بضيق عندما جلست جوليا بجانبها، فنظرت لها سيلينا مستفسرة عن سبب ضيقها المفاجئ، فدنت أميرة من سيلينا لتخبرها بهمس في أذنها أن تلك الفتاة هي جوليا، أخذت سيلينا تحملق في الفتاة الجالسة قليلًا، كانت تكتب المحاضرة وتركيزها مشغول، أو هي من تحاول إشغاله، هذا ليس واضحًا.

كانت سيلينا تود الحديث معها، ولكنها قررت الصمت حتى لا تقطعها عما تفعل، ونظرت لأميرة الغاضبة ولم تطمئن لتصرفاتها، ربما تؤذيها في شيء ما، فهمست في أذن أميرة:

- دعينا نبدل المقاعد.
- حسنًا يبدو أن هذا سيكون أفضل.

ابتسمت سيلينا برضا ثم بدلوا المقاعد، انتبهت جوليا لحركتهم المفاجئة التي بجانبها، ولم تعلق واستطردت في الكتابة؛ وكذلك سيلينا وأميرة، أخذت المحاضرة اهتمامهم ومر الوقت سريعًا، وانتهى الوقت فنهضت جوليا مسرعة وكأنها كانت تجلس قسرًا على نفسها طوال هذا الوقت وأخيرًا حان وقت فك الحصار، استوقفتها سيلينا بحركة سريعة قائلة:

- شكرًا لك على سؤالك عني عندما كنت مريضة، كان هذا لطفًا منك - وابتسمت لها ثم مدت يدها- ما اسمك؟

نظرت أميرة لسيلينا بغضب ثم قالت:

- سأنتظرك بالخارج، لا تتأخري.

أومأت برأسها، وخرجت أميرة متمتمة ببعض الكلمات التي لم تبح بها، ولكن بدا عليها الانفعال والغضب.

نظرت جوليا لها وابتسمت بدورها ومدت يدها لها للمصافحة:

- وأنا جوليا، لا بأس لم أفعل سوى الواجب.

ارتبكت سيلينا قليلًا ثم قالت:

- سوف يسعدني التعرف عليك.

قالت جوليا في نفسها:

- أهذه حقًا صديقة أميرة الفظة أم أنا أحلم؟

ثم قالت:

- بالتأكيد وأنا كذلك، ولكن صديقتك أميرة لن يعجبها ذلك، لا شك أنها أخبرتك بما حدث بيننا.
- نعم فعلت، أرجو ألا تغضبي منها.
- لا بأس، لم أغضب كثيرًا.
- أعطني رقم هاتفك نتواصل هاتفيًا، سيكون هذا أفضل، ما رأيك؟

ارتبكت جوليا كثيرًا، يبدو أنها لم تتوقع هذا، ثم قالت بتلقائية:

- لا... لا داعي لهذا، نتعرف هنا في وقت لاحق.

أثارت تصرفها حيرة سيلينا، ولكن لم تستطع التدخل في خصوصياتها وسؤالها عن سبب رفضها؛ فأومأت برأسها موافقة ثم ودعتها وانصرفت.

خرجت سيلينا لأميرة التي نظرت لها غاضبة وقالت:

- انتظرتك كثيرًا، فيمَ كنت تتحدثين؟

حكت لها سيلينا ما حدث.

- منذ رأيتها وأنا أعلم أن بها خطبًا ما، لم أرتح لها بتاتًا، ما المشكلة في أن تعطيك رقم هاتفها سوى أن هناك شيء ما مريب حولها؟

هزت سيلينا كتفها بحيرة، وذهبت الفتاتان ليشربا العصير البارد، ومر اليوم على خير، واستمتعت سيلينا كثيرًا بيومها حتى أقبل الليل، وسمعت صوت توقف سيارة أمام منزلها؛ فنظرت من النافذة لتعرف من القادم، ظنتها أميرة في بادئ الأمر، ولكن أميرة لا تأتي دون أن تخبرها أولًا، ثم إنها لا تأتي في هذا الوقت.

ثم رأت رجلًا ينزل من السيارة يحمل في يده ورقة، إنه نفس الرجل الذي يأتي في كل شهر، ثم تصفحت هاتفها سريعًا بحثًا عن تاريخ اليوم، ولكنه لم يكن الموعد المحدد، هناك خطب ما.

اضطربت سيلينا ولكن قررت التصرف سريعًا، واستغلت هذه الفرصة؛ فارتدت ملابسها على عجل وخرجت مسرعة، وفتحت الباب وقالت:

- لم يأت الموعد المحدد بعد يا سيد، ما هذا الظرف؟
- إنه يحمل رسالة لك يا آنسة.
- من طرف مَن قد أتيت؟ ألن تخبرني؟

سار الرجل وكأنه لم يسمع ما قالته، وركب السيارة وانطلق.

زفرت سيلينا بضيق، لم تسأم سؤاله وهو لم يسأم تجاهلها كل مرة، ولكن سيلًا من مشاعر الفضول والحماس والخوف اندفعت بداخلها لفتح هذه الرسالة، فالتقطتها سريعًا ثم دخلت للداخل، وجلست على الأريكة وفتحت الورقة بأنامل مضطربة.

*****

لم تقوَ على فعل شيء سوى البكاء على حالها وعلى ابنها، ذاقت لمرة في حياتها طعم العذاب الذي ذاقه ابنها نيابة عنها عمره كله،أخذ هذا الرجل زهرة شباب ابني و حياتي بأكملها!

ثم حاولت النهوض بصعوبة وهي تخشى مما سيفعله زوجها، فأمسكت الهاتف وطلبت رقمًا وجاءها الصوت:

- السلام عليكم؟ تفضل مَن هناك؟

*****

أخذت تقرأ الرسالة:

"عزيزتي سيلينا...

أنت لا تعلمين من أنا، وأعلم أنه من الجهد الكبير أن تبحثي عني في ذاكرتك، وستبوء كل محاولاتك بالفشل، لذلك أعلم أن هذه الأسئلة قد نهشت خلايا مخك الصغيرة بلا جدوى.

كم هو متعب ما تعيشين فيه، أعلم أنك لطالما تساءلتِ عن هويتي، ولماذا أفعل ذلك بالضبط، ولكن سأعطيك مفاجأة أخرى، هناك الكثير من الأسئلة التي كان من المفترض أن تسأليها، ولكن لا أظن أنها تحيرك الآن.

حسنًا سأختصر الحديث هنا، فهناك الكثير لأخبرك به في حالة قبلتي دعوتي، هل تودين معرفة إجابات الأسئلة التي تسأليها باستمرار؟ وحتى التي لم يخطر ببالك السؤال عنها رغم أنها تستحق السؤال؟

إذًا عليك المجيء إلى المكان الذي سأترك لك عنوانه بالأسفل بعد خمسة أيام من الآن في السادسة صباحًا، وعليك المجيء وحدك أو أنك ستفوتين فرصتك الوحيدة لمعرفة الحقيقة، حقيقة كل شيء.

العنوان: ....".

اتسعت عينا سيلينا عندما رأت أن العنوان، إنه عنوان لمشفى، هل أذهب لزيارة مريض في مشفى لكي يخبرني بحقيقتي؟ ثم هتفت بغضب:

- ما هذا الهراء؟ أيهزأ بي؟!

ثم رمت الورقة جانبًا وجلست على أقرب أريكة؛ فلم تقوَ قدماها على حملها، ووضعت وجهها بين كفيها، وبعد مرور عدة دقائق فتحت سيلينا عينيها وكأنها عادت للحياة من جديد، ثم نظرت للورقة التي تمسكها بيدها وقالت:

- حسنًا إذًا، سأتصل بمنقذتي أميرة.

واتصلت وجاءها صوتها:

- سيلينا، كيف حالك؟
- أميرة أود إخبارك بأمر مهم.

قلقت أميرة من نبرة صوتها وقالت:

- أخبريني إذًا، ما الذي تنتظرينه؟
- اسمعيني جيدًا، منذ قليل وصلتني رسالة من نفس الشخص الذي يرسل لي النقود كل شهر.

هتفت بحماس:

- وهل أخبرك من هو؟
- لا لم يخبرني... (وقرأت لها محتوى الرسالة).
لا أعلم ما الذي عليّ فعله يا أميرة، أخشى الذهاب، وأشعر بالغضب، وأرغب في تمزيق الورقة الآن.
- هل جننت؟ إنها فرصتك لمعرفة كل شيء، عليك الذهاب.
- هل تظنين هذا؟ ماذا إن كان فخًا ما.
- إن أراد أذيتك لأذاك منذ زمن طويل، على العكس كان دائمًا يساعدك -ثم ارتفع صوتها بحماس- أشعر بالإثارة عوضًا عنك، هيا الأمر لا يستحق هذه

الحيرة، عليك الذهاب، سآتي إليك نجهز حقيبتك وتستعدي للسفر إلى العنوان المرفق.

- ولكن المكان الذي سأذهب إليه هو المشفى أليس ذلك غريبًا؟
- نعم إنه غريب بالفعل.
- إذًا ما الذي عليّ فعله؟
- الذهاب إلى هناك.
- لماذا أنت مصرة إلى هذا الحد؟
- أرهقك التفكير يا ابنتي، أشعر أن في هذه الرحلة خلاصك من كل هذه الأسئلة التي كاد رأسك أن يحترق من فرط التفكير فيها، ألا تلاحظين ذلك؟
- حسنًا معك حق، إذًا سأذهب، أقنعتني سريعًا، ولكن هل يمكنك المجيء معي؟ أشعر بالخوف مما سألقاه يا أميرة، أحتاجك معي.
- يبدو أنه من الأفضل لك أن تنصاعي لأوامره في الوقت الراهن، كما أن هناك الهاتف يا عزيزتي، لا تقلقي.
- حسنًا لنلتقي غدًا، سنتحدث عن هذا الأمر أكثر.
- حسنًا بالتأكيد، تصبحين على خير.

ثم أغلقت أميرة الهاتف، وذهبت سيلينا إلى فراشها وهي في إثر صدمة شلت تفكيرها، ووضعت رأسها على الوسادة بهدوء وغطت في النوم سريعًا على غير العادة.

*****

ارتجفت أواصر أم حسن ولم تستطع التحدث، جاءها الصوت من جديد:

- كيف نستطيع مساعدتك؟ هل حدث شيئًا ما؟

لم تستطع أم حسن التحدث؛ فأغلقت الهاتف، ويداها ترتجفان وجسدها ينتفض بعنف، ثم نظرت حولها واتخذت قرارًا مفاجئًا فجأة، واتجهت إلى غرفتها وأخذت تضع بعض أغراضها والملابس في الحقيبة وهي تستعد للرحيل حيث لا عودة، وجمعت أشياءها واتجهت ناحية الباب وفتحته ببطء ثم خرجت.

وأخذت تمشي في الشوارع دون وجهة محددة وهي تتمنى أن تنتهي كل تلك الكوابيس، كانت تتمنى أن تذهب إلى ابنها، أن تعتذر له عن كل شيء، كانت تود فقط أن تخبره أنها كانت خائفة، ولكن لا جدوى من الاعتذار، حدث له ما حدث.

وكانت تدعو في سرها طوال الطريق أن يُشفى حسن من مرضه ويهربا سويًا من السجن الذي وُضعت به قسرًا، وأخذت دموعها تتدفق على وجنتيها:

- لم يعلم حسن شيئًا، لم أخبره عن شيء.

ثم اقتربت من المشفى المعزول وجلست على كرسي وُضع بالقرب منه، وأخذت تنظر طويلًا في اتجاهه وهي تحدث نفسها:

- لست بتلك الشجاعة يا حسن لأخبرك كيف كانت قصة زواج أمك بأبيك، ألّفت الكثير من القصص لأخبرها لك، لم أشأ أن يحزن قلبك أكثر من ذلك.

ثم أجهشت بالبكاء وهي تقول بانفعال:

- هل تغفر لي يا حسن؟ أنا السبب، لم أكن أم صالحة لك، تُرى ماذا تفعل في الداخل؟ هل أنت بخير؟ أشعر الخجل من نفسي، مر الكثير من الوقت، لم أسألك هذا السؤال منذ زمن طويل للغاية يا حسن، أنا بالكاد أتنفس، أشعر أن الهواء ثقيل على رئتي.

ثم همت بالوقوف لترحل، وقالت في نفسها:

- لا أستطيع فعلها يا حسن، أنا آسفة، أرجو لك حياة أفضل كما رجوت دائمًا؛ ولم أتقدم خطوة ولو ضئيلة ناحية تحقيق هذا الرجاء، أفسدتُ كل شيء وحسب.

وحملت حقيبتها وأكملت سيرها في الطرقات حيث لا وجهة، والدموع تملأ مقلتيها وهي تمشي في وهن واضح.

*****

أكمل حسن جلساته العلاجية اليوم، ولكن منذ أن دخل إلى هذا المكان المعزول وهو يعيش في صمت مطبق، لا يتحدث إلى أحد سوى بإيماءات مقتضبة، ولكن أحيانًا كان

يتحدث إلى الطبيب وكأنه مجبور على ذلك، ويقضي وقته في التفكير أو قراءة الكتب فقط.

*****

أشرقت شمس يوم جديد، واستيقظت أميرة، ونهضت من فراشها بحماسة غير معهودة؛ كانت تود مقابلة سيلينا في أسرع وقت، ولم تكن سيلينا أقل حماسة منها.
وصلوا للجامعة، ولكنهم انشغلوا بالمحاضرات والدروس المتتالية حتى انتهى اليوم الدراسي، واقترحت أميرة أن يذهبا إلى مقهى الجامعة المفضل لهما، جلست أميرة ثم قالت:

- إذًا هل فكرتي في الأمر بالأمس؟
- لم أفعل، نمت سريعًا على غير المتوقع، ولكني مازلت أريدك أن تأتي معي.
- اذهبي يا سيلينا كما أمرك، وإن حدث أمر ما لا تترددي بالاتصال بي، سأكون موجودة من أجلك دائمًا.

ابتسمت سيلينا لها وقالت في امتنان واضح:

- كم أحبك يا أميرة.
- وأنا كذلك.

ثم شردت قليلًا وهتفت:

- أسيل! لم نتصل بها منذ ذلك الوقت، كما أنها أخبرتني بأنها سوف تذهب لتقديم طلب إكمال دراستها، ووعدتها بأن نذهب معها.
- حقًا؟ هذا رائع، اتصلي بها إذًا.

أخرجت أميرة الهاتف دون تفكير، واتصلت بها جاءها صوتها وهي تهتف بمرح:

- أميرة اشتقت لك، أين كنت؟
- لا تسألي، انشغلت كثيرًا، كيف حالك اليوم يا عزيزتي؟ وكيف تسير جلسات العلاج؟
- كل شيء على ما يرام، تحسنت كثيرًا أيضًا، هل أنت متفرغة اليوم؟

- نعم بالطبع، هل حدث شيء ما؟
- لا ولكننا اتفقنا على الذهاب معًا لأقدم طلب إكمال الدراسة.
- نعم لم أنسَ ذلك بالطبع، في الحقيقة اتصلت من أجل أن أخبرك، وسيلينا معي أيضًا.
- هذا رائع، إذًا لنذهب الآن.
- هيا بنا.

وأغلقت أميرة الخط، وابتسمت لها سيلينا، وهتفت الفتاتان في مرح:

- هيا.

ثم انطلقوا في اتجاه منزل أسيل.

وصلوا جميعًا ناحية المبنى الذي يستقبل طلبات الراغبين في استئناف دراستهم، دخلوا جميعًا يمشون ناحية الغرفة المنشودة، ودخلت أسيل للموظف الذي يبدو على ثيابه الأناقة والترتيب...

- مرحبًا يا سيدي، أريد أن أقدم طلب إكمال دراستي الجامعية.
- منذ متى توقفتِ عنها؟
- منذ عامين.
- حسنًا -ثم مد لها الورقة- أكملي بياناتك هنا لننظر في الأمر.

أخذت أسيل تكتب إجابات للأسئلة في الورقة، كانت معلومات شخصية عنها فقط.

كانت سيلينا وأميرة ينتظران بالخارج إلى أن تنتهي، جلست سيلينا وأسندت رأسها إلى ظهر الكرسي ثم قالت:

- أميرة هل عليّ الذهاب؟
- نعم عليك الذهاب.
- أرجو أن أجد كل ما أبحث عنه هناك.
- حتمًا ستجدينه.
- هل تظنين ذلك؟

- نعم يا سيلينا هذا مؤكد، من الواضح أن كل المعلومات هي بيد ذلك الشخص.
- حسنًا لنفرض أنني قابلت أمي وأبي، ما هو المفترض عليّ فعله حينها؟
- تسأليهم عن سبب تركهم لك كل هذه المدة.
- هل تظنين أن أمي ستحتضنني شوقًا كما تفعل بقية الأمهات؟
- ما هذه الأسئلة يا سيلينا؟ بالتأكيد سيحدث ذلك.
- هل تظنين أنهم يسعون لإيجادي كما أفعل؟
- اووه يا سيلينا! اصبري قليلًا يا ابنتي، اذهبي واسأليه كل ذلك، لو كنت أعلم لما تركتك تتعذبين كل هذه المدة.

فجأة سمعوا صوت أسيل وقد ارتفعت نبرة صوتها:

- ماذا تقصد يا سيد بأن هذا غير مسموح؟ جئت أقدم الطلب ويفترض أن هذه الشركة توفر هذه الخدمات دون التدخل بخصوصيات الفرد، كما أن سجلّي لا يوجد به ما يدعو للرفض.

انفعلت أميرة على إثر سماعها صوت صديقتها فورًا، ولم تقل عنها سيلينا انفعالًا، وجل ما يخشانه أن تتهدم أحلام صديقتهما التي فعلت الكثير من أجل الوصول إليها، فنظرا إلى بعضهما البعض ونهضا من مجلسهما فورًا في الوقت ذاته متجهين ناحية الغرفة، فتحت أميرة باب الغرفة ثم قالت سيلينا:

- أسيل لم تأخرتِ يا عزيزتي، هل هناك خطب ما؟

قالت أسيل بانفعال وغضب واضح:

- من المفترض أن أنتهي منذ ساعة من الآن ولكنه يرفض إكمال ورقي.
- لماذا لم تنهِ أمر أوراقها؟
- يا آنسة يجب عليها أن تقدم سببًا واضحًا لانقطاعها كل هذه المدة.
- السبب غير مهم، المهم أنها تريد العودة.
- هذا لا يجوز يا سيدتي، لا أستطيع مخالفة التعاليم.

هتفت سيلينا:

- سافرت للخارج من أجل رحلة عمل، ولكنها لم توفّق فيها وقد عادت أدراجها، وقررت أن تكمل ما تركته خلفها.

نظرت الفتاتان لها بدهشة لسرعة ابتكارها تلك الكذبة، ثم قال الرجل بانفعال مخاطبًا أسيل:

- كنتِ أنهيتِ كل هذه المهزلة لو أنك أخبرتني بهذا منذ زمن مضى.

لم تعلم أسيل ماذا تقول، اكتفت بالصمت وهي تنظر لسيلينا، تكسوها ملامح الدهشة، فقالت سيلينا متداركة الموقف:

- أرجو المعذرة عوضًا عنها يا سيدي، تعلم عندما تفشل في وظيفة ما كنت تحبها ةبالأخص إذا قطعت الكثير من المسافات لأجلها يكون الأمر صعبًا على نفسك، وأيضًا حدث لها الكثير من المواقف السيئة هناك، ذكريات غاية في الصعوبة، كانت وحيدة وتعرضت لخيبة الأمل من شخص أحبته، ووعدت نفسها أن تنسى أمر هذا السفر وألا تتحدث عنه مرة أخرى بتاتًا متداركة الألم النفسي الذي يصيبها حينها.

شعرت سيلينا أن الأمر سيبدو أسوأ بسبب ما قالته فتداركت الأمر وقالت:

- أي أن الأمر يتعلق بصحتها النفسية.

أومأ برأسه متفهمًا وكان يكتب آخر الكلمات في الورقة لينهيها أثناء حديث سيلينا، ثم قدم الورقة باتجاه أسيل وقال:

- عليك الحضور بعد غد من جديد إلى الغرفة المجاورة في هذا المبنى كي تتمي باقي الإجراءات.
- ولماذا لا تكملها أنت الآن؟

زفر الموظف بضيق وقال:

- يجب أولًا الحصول على موافقة السيد عمر.

وقع هذا الاسم على سيلينا موقعًا حسنًا متذكرة هذا الشخص الذي آنس وحشتها في السجن، وابتسمت لذكراه رغمًا عنها.

- حسنًا فهمت، هيا يا أسيل.

حملت أسيل حقيبتها، واتجه ثلاثتهم ناحية الباب مغادرين، ثم زفر الموظف بضيق محدثًا نفسه:

- لم أر أشخاصًا بهذه الوقاحة من قبل طوال سنوات عملي.

مشت الفتيات عبر الممر بخطوات مهتدية ومتناغمة معًا؛ مما لفت أنظار الكثيرين حولهم، ولكن لم يهتموا بالأمر، حتى خرجوا من المبنى وودع كل منهم الآخر، وذهبوا إلى منازلهم.

عادت سيلينا لمنزلها واستراحت قليلًا، ثم تناولت طعام الغداء وشرعت في المذاكرة حتى الليل، وفعلت أميرة مثل ذلك.

وعادت أسيل واستعدت للخروج لجلسة علاج جديدة، وهي تشعر بالامتنان الشديد لما قدمته لها أميرة وسيلينا اليوم، ومرت الأيام في روتينية.

لم يتبقَ سوى يومين على موعد سفر سيلينا، فقد اتخذت قرارًا حاسمًا وحجزت التذكرة بالفعل لتسافر إلى العنوان المنشود؛ تحت تشجيع أميرة المستمر لها، باتت مقتنعة بالذهاب وحدها الآن ومواجهة الحقائق، ولكن لن تتركها أميرة بالتأكيد، أمرتها بإخبارها كل ما يحدث لها عن طريق تبادل الرسائل، وستأتي لها في أقرب وقت إذا كان هناك داع لذلك.

وكان هذا اليوم هو موعد الذهاب للحاج عمر كما أمرهم الموظف، ذهب ثلاثتهم من جديد، ويا للمفاجأة! عند دخولهم الغرفة وجدوا الحاج عمر صاحب السجن أمامهم، هتفت سيلينا في سعادة:

- لم أتوقع رؤيتك هنا! اشتقت إليك، كيف حالك؟
- نعم، عملت هنا من وقت ليس ببعيد، أنا بخير يا ابنتي، كيف حالك أنت، وماذا تفعلين هنا؟

تقدمت أسيل ببطء ثم قالت:

- طلب مني الموظف أن أنهي اجراءات عودتي للدراسة لديك.
- بكل سرور، أريني ما أعطاك إياه.

فأعطته أسيل ما بيدها، ثم أنهاه الحاج عمر سريعًا، فقدمه لها وقال:

- حسنًا الآن تستطيعين استئناف دراستك في الجامعة المكتوب عنوانها أسفل هذه الورقة، سأتواصل معهم الآن.

شكرته أسيل في امتنان، ولم تتحدث أميرة طوال الوقت الذي كانت تتحدث فيه سيلينا مع الحاج عمر عن كل ما حدث معها، وخرجت مع أسيل ينتظرونها في الخارج:

- هل عليّ الذهاب يا عم؟
- نعم أنصحك بقبول الدعوة.

قالت في مرح وهي تستعد للمغادرة:

- إذًا تمنى لي الحظ.

ابتسم لها وقال:

- أتمنى لك ذلك، أرجو أن أسمع عنك أخبار سعيدة قريبًا.

وخرجت سيلينا، وعندما وصلت سيلينا إلى منزلها وجدت امرأة تجلس أمام بابها مطأطئة رأسها، لم تتعرف عليها سيلينا في بادئ الأمر، ولكن عندما اقتربت منها لتنظر لها عن كثب أصابتها الدهشة؛ إنها أم حسن، ما الذي تفعله هنا؟ ولمَ هي صامتة بهذا الشكل المريب؟! ثم إن وجهها مكفهر، بادرتها سيلينا مرحبة وهي تتظاهر أنها لم تتعرف عليها حتى لا يتسبب ذلك في حرجها:

- أهلًا بك، هل فقدتي شيئًا ما؟

ردت بصوت واهن دون أن ترفع رأسها:

- أنا بخير لا تقلقي.

توجهت سيلينا ناحية باب المنزل ثم فتحته وقالت:

- تفضلي لنتحدث في الداخل.
- لا لا داعي لذلك حقًا، شكرًا لك.

ثم همت بالوقوف لترحل.

استوقفتها سيلينا وهي تدعوها للدخول بإصرار، فاستسلمت في نهاية الأمر وذهبت معها، دخلت أم حسن منزلها وهي ما زالت منكسة رأسها، ثم أغلقت سيلينا الباب وقالت:

- تفضلي في الجلوس، لا داعي للإحراج.

قالت بصوت منخفض:

- هل يؤذيك ابني وتردين ذلك بمساعدتي يا ابنتي؟
- قولك هذا يحزنني، كما أن ما حدث مع ابنك ليس له علاقة بك.

جلست أم حسن على المقعد، وذهبت سيلينا مباشرة للمطبخ لتعد لها عصير الضيافة، وفي أثناء ذلك سمعت شهقات بكائها، أحضرت سيلينا العصير واتجهت نحوها مسرعة، جلست على مقربة منها وبادرتها الحديث قائلة:

- ما الذي يحزنك؟ كما أن مجيئك إلى هنا وجلوسك أمام الباب بدا غريبًا، ماذا حدث؟

وبحركة مفاجئة احتضنتها أم حسن وأجهشت بالبكاء، فاحتضنتها سيلينا في صمت وهي تربت على ظهرها علها تهدأ، وبعد مرور دقائق هدأت أم حسن، ثم جلست معتدلة وقالت:

- هل سيظل الذي سأخبرك به سرًا بيننا؟
- بالتأكيد سيظل كذلك.
- أشعر بـ....

أخذت حروفها تتقطع ووضعت يدها على قلبها، وانخرطت في نوبة بكاء جديدة، اقتربت منها سيلينا وهي تربت على كتفها وقالت:

- ربما أنت بحاجة للنوم، لدي سرير فارغ في الداخل، هيا سآخذك لتستلقي عليه.

انصاعت أم حسن لرغبتها، وتحررت من ملابسها التي كانت متسخة كثيرًا، أشفقت سيلينا على حالتها، ولكنها كانت مندهشة لما تراه، إنها ترى أم حسن للمرة الثانية، وشتان بين شكلها في المرتين! ثم قالت:

- حسنًا ما رأيك في أخذ حمام دافئ؟ سيساعدك ذلك على الاسترخاء، لدي بعض الملابس التي ستفي بالغرض.

أجابتها بصوت منخفض:

- لا لدي حقيبتي بها بعض الملابس، شكرًا لك.

ثم اتجهت ناحية دورة المياه كي تستحم.

جلست سيلينا على الأريكة وهي تضع رأسها بين كفيها، لم يبقَ سوى يومين على سفرها، ماذا ستفعل؟

يبدو أن هذه المرأة خلفها الكثير من الحكايات، عليّ مساعدتها، ولكني لا يمكن تجاهل هذا بالتأكيد، إنها فرصتي الأخيرة، ثم زفرت بضيق، يا إلهي، عليّ معرفة ما قصتها في أقرب وقت، ثم ربما سأكلف أميرة بمساعدتها وأرحل.

وابتسمت حينها وراقت لها تلك الفكرة، وبعد نصف ساعة خرجت أم حسن، كان وجهها شاحبًا وجسدها نحيلًا وعيناها منتفختان، ونظرت بشرود لسيلينا وكانت عيناها شبه مقفلتين من الإنهاك، فبادرتها سيلينا سريعًا:

- هل أنت أفضل الآن؟

ابتسمت في هدوء وقالت:

- نعم كثيرًا، أشعر بسكينة.

ابتسمت سيلينا بسعادة وكأنها حققت نجاحًا ما ثم قالت:

- إذًا هيا... الفراش جاهز بالداخل، عليك النوم الآن، يبدو عليك التعب.

ابتسمت لها في حزن وقالت:

- نعم أشعر بأن عليّ النوم الآن -ثم بدا عليها الألم والامتنان- شكرًا لك كثيرًا.
- لا، لا عليك.

ثم فتحت لها باب الغرفة، وأغلقت النوافذ والأنوار لتهيئ لها الغرفة للنوم، واستلقت أم حسن في صمت وغطت في نوم عميق سريعًا، تنهدت سيلينا بارتياح وأغلقت الباب وخرجت للخارج، وحمدت الله أنها اشترت هذا الفراش أثناء مرضها حين أتت أميرة لتجلس معها طوال الوقت، جلست معها لمدة أسبوعين فاشترت لها هذا الفراش.

وبعد ذلك استلقت سيلينا أيضًا على فراشها لتأخذ قيلولة حتى تستيقظ لتكمل مذاكرتها وما تفعله كل يوم، استيقظت سيلينا من نومها وأخذت تجهز ما بقي من أغراض لتضعها في حقيبتها، وشرعت في المذاكرة منتظرة استيقاظ أم حسن، ولكن طالت نومتها، وكأنها لم تنم منذ وقت طويل.

واستيقظت أم حسن بعد طول انتظار وهي تنظر حولها، فنضهت من فراشها فزعة وهي تتساءل:

- أين أنا؟

ذهبت سيلينا إليها على الفور حين سمعت صوتها، فنظرت لها أم حسن وتذكرت ما حدث، ثم نهضت من الفراش بصمت، بادرتها سيلينا:

- ما رأيك في أن أحضر كوبين من العصير ونجلس هنا لتخبريني بكل شيء؟

أومأت أم حسن برأسها موافقة ولم تعلق.

ذهبت لتغسل وجهها، ثم جلست ببطء على الأريكة، ونظرت لها سيلينا وهي تشجعها على أن تبدأ في الحديث، وبالفعل بدأت أم حسن في الحديث:

- سيطول بي الحديث قليلًا يا ابنتي، أرجو منك ألا تملّي الاستماع، إنها المرة الأولى التي أفضي ما في صدري إلى أحد ما؛ فاستحال كتماني إلى حزن عميق صامت بداخلي لم أستطع البوح به، ربما لأنني لم أجد من يستمع إليّ.

ابتسمت سيلينا في عطف وربتت على كتفها:

- أنا هنا من أجل الاستماع إليك... تفضلي.
- تعلمين أنني والدة حسن، ذلك الولد الذي أذاك، وبالمقابل... -ثم صمتت قليلًا- فعلتي الكثير، لا أملك سوى أن أشكرك وأعتذر لك مما بدر عنه.
- أرجوك انسي ما حدث الآن.

ابتسمت أم حسن، وأخذت تتحدث بحماسة كأنها طفلة قد تعلمت نطق الحروف لتوها:

- بدأت مأساتي منذ زواجي، لم يكن زوجي هكذا في البداية، كان مثالًا للزوج الرائع الذي تتخاصم عليه الفتيات أيّهن تقتات من قلبه وحبه أكثر من الأخرى، ولكن سرعان ما تحول فجأة إلى شخص آخر أقرب للشيطان منه لأي شيء آخر.

  منذ ولادتي لحسن عانيت الكثير منه، وعانى حسن أكثر، كبر حسن على العنف والضرب، كنت أعيش الخوف كل يوم، ربما هذه المرة الوحيدة التي نمت بها بهدوء منذ ولادته.

  تعذب حسن كثيرًا في شيء لا ذنب له به، أنا سبب كل ذلك، لم أستطع حمايته، ولم أستطع اختيار الأب الصالح له.

كبر حسن بهذه الطريقة، حتى طرده من المنزل طوال تلك السنوات...

وامتلأت مقلتاها بالدموع أثناء حديثها، وبصوت متهدج متقطع استطردت:

- كنت أخاف... كنت أخاف منه، ودفعت ثمن خوفي غاليًا، دفعت ابني ثمنًا لذلك.

ثم أجهشت بالبكاء.

تأثرت سيلينا كثيرًا واغرورقت عيناها بالدموع وهي تستمع لقصتها، وتعاطفت مع حسن تعاطفًا غريبًا هذه المرة.

هدأت قليلًا ثم استطردت:

- وعلمت أن ابني مريض نفسي، لم أستغرب كثيرًا؛ كنت أنا سبب كل ذلك، وعندما أخبرت والده عن جريمته التي فعلها ضربني بشدة؛ فشعرت للمرة الأولى بشيء من الجرأة، أدت بي إلى أن أبيت ليلًا في الشارع خير لي من العودة إليه، تركت هاتفي هناك حتى لا يحاول الوصول إليّ، تمنيت أن أخبر ابني بكل شيء، ولكن أشعر بالخجل من نفسي، خانتني الكلمات فعدت أدراجي أمشي على غير هدى، حتى وصلت إلى هنا.

نظرت لها سيلينا بجدية وقالت:

- ولكن يجب أن يعرف حسن هذا.
- وكيف سيعرف؟
- سأساعدك الآن في كتابة رسالة إليه، أخبريه بكل ما تشعرين به، وسأتواصل مع الطبيب النفسي الخاص به، صديقتي تعرفه.

هتفت مقاطعه لحديثها:

- نعم هي من أخبرته عن مرض ابني.
- نعم، وستظلين عندي إلى حين خروج حسن من السجن.

ردت بانفعال:

- بالطبع لا.
- حسنًا ستشرعين في العمل، ويمكنك اعتبار المنزل سكنًا للإيجار.

نظرت أم حسن حولها في شرود وقالت:

- وأين والداك يا ابنتي؟

طأطأت سيلينا رأسها في حزن وقالت:

- أنا لا أعلم تحديدًا أين هم.

وحكت لها سيلينا باختصار عن حياتها، ولكنها لم تذكر لها ما حدث في الآونة الأخيرة.

نظرت أم حسن في حزن واضح والدموع تتجمع في مقلتيها منذرة بسقوط دموعها من جديد، وقالت في امتنان:

- لا أعلم كيف أعبر لك عن امتناني، شكرًا لك يا ابنتي، لن أنسى ما فعلتيه لي ما حييت.
- لا عليك، أرجو أن تتصرفي وكأنه منزلك، سأذهب بعد ذلك للجامعة -ثم أمسكت يدها في عطف- أرجو أن تكوني أمي.

ضحكت أم حسن وقالت:

- بالتأكيد، أشعر أن الله عوضني بك بدلًا من حسن.

انزعجت سيلينا من ذكر اسمه، ثم قررت أن تخبرها عن أمر سفرها وقالت:

- هناك أمر ما عليّ إخبارك به.
- ما هو؟
- بعد يومين يجب أن أسافر.
- إلى أين يا ابنتي؟
- حسنًا إن الأمر معقد بعض الشيء، سأخبرك بكل شيء فلدينا متسع من الوقت.
- نعم بالتأكيد.
- والآن لنكتب إلى حسن الرسالة.

نظرت أم حسن لها بشرود وقالت:

- ولكني لا أعلم حقًا، لا أعلم من أين أبدأ ومن أين أنتهي، الكلمات تجتمع في رأسي كلها دفعة واحدة.
- أخبريني بكل شيء وأنا مهمتي هي كتابته.

- حسنًا إذًا لنبدأ.

ثم اعتدلت في جلستها ونظرت في حماس لسيلينا وقالت:

- هيا اكتبي...

"عزيزي ابني حسن...

لم أكن أعلم أن للكلمات أنينًا في الرأس، تتعبني من تزاحمها وكثرتها وعدم استطاعتي ترتيبها، يصعب عليّ ترتيب كلمات أردت قولها لك منذ ولادتك.

مرت الكثير من السنوات، أليس كذلك يا بني؟ كبرت كثيرًا، هل شعرت بمرورها؟ أشعر بالعار من نفسي يا حسن، ليس بوسع الكلمات أن تكتب مشاعرنا دومًا بالطريقة المطلوبة، ليت المشاعر أقل بلاغة لتعبر عنها الكلمات.

ولكني أخاف مواجهتك، نشأت على الخوف وكبرت به، كنت أخاف أن أدافع عنك في تلك الليالي التي أُبرحت فيها ضربًا، كنت تصرخ دائمًا: "أمي! لماذا أنت صامتة؟!"، حتى أنا لم أجد إجابة شافية لهذا السؤال يا حسن.

بعد كل ذلك الوقت أشعر بالأسف على نفسي، أذكر تلك الليلة التي قلت لي فيها: "ربما كل شيء سيصبح أسهل يا أمي إذا شعرت بأن هناك من يحبك"، كنت على حق، وربما كنت تعاتبني بطريقة طفولية مهذبة لم أفهمها، لم أستطع أن أحبك بالشكل الصحيح، كنت أحبك خلف أسوار الخوف، لم أستطع اجتيازها للدفاع عنك، واحتضانك بكل ما أوتيت من قوة؛ لأخبرك أنني آسفة يا حسن.

أعلم أنه قد ضاع وقت الاعتذار منذ زمن، هل تغفر لي الآن يا بني؟ ملكت الجرأة الكافية لأهرب من هذا المنزل الذي ضاقت بنا أركانه، أنتظر خروجك من هناك يا حسن لتبدأ حياة جديدة مع أمك التي تحبك، أمك التي ستكسر أسوار الخوف التي منعتها عنك قريبًا، قررت تصحيح كل ما حدث وكل ما فعلته، أشعر بالندم الحقيقي على كل شيء، هل تغفر لي يا بني كل ما حدث؟

أكتب لك للمرة الأولى ودموعي قد ملأت عينيّ اللتين تلمعان حبًا لك وشوقًا لاحتضانك، أحبك يا حسن، أحبك بلا خوف يمنعني من أخذك والرحيل بعيدًا عن كل ما يؤذينا، أحبك بلا خوف يمنعني من احتضانك وسط الحشود من الناس، وبلا اكتراث لآرائهم.

كنت أخشى كلماتهم كثيرًا يا حسن، تخيل أنني كنت هشة لتلك الدرجة، كنت أعلم ما سألقاه إذا احتضنتك أمامهم من التوبيخ على تدليلي المستمر لك، ولكنك ابني الوحيد، ساكن فؤادي الأول، منبع قوتي، بحبك تعلمت كيف أكسر خوفي وأحطمه.
بكيت لبكائك سنوات طوال، شاركتك كل مشاعرك خلف حدود الخوف والضعف اللذين هزماني فلم تعرف أنت شيئا عني، ولا ترى مني سوى وجهي ذو الملامح الجامدة كنت أخافه يا حسن، كنتَ أكثر شجاعة مني يا بني، أشعر بالفخر لأني أمتلك ولدًا مثلك، راغبة في شكر إلهي في اليوم ألف مرة على أن رزقني بك يا حسن، يا مقلة عيني، أنت أجمل ما حدث في حياتي، بهجة عمري ابني حسن.
أشعر بأن الكلمات ضعفت أمام سيول المشاعر والأفكار التي أريدها أن تصل إليك، إلى لقاء قريب جدًا يا بني، سترى من أمك ما يسعدك، ما هو مختلف وجديد كليًا، أحيانًا من ذات الهوة التي سقطنا فيها نعلو من جديد، أليس كذلك؟ من ذات الضعف سترى القوة، أعدك.
وأريد أن أخبرك أن من ساعدني على كتابة هذه الرسالة هي سيلينا، لها جزيل الشكر، ساعدتني كثيرًا.
مع تحياتي، أحبك.
أمك العزيزة".

ابتسمت سيلينا وهي تنتهي من كتابة الرسالة، واجتمعت الدموع في عيني أم حسن والابتسامة تملأ شفتيها في آن واحد، انسابت دموع الفرحة على وجنتي سيلينا واحتضنتها، ثم اتصلت سيلينا على أميرة لتحثها على التحدث مع الطبيب ليوصل هذه الرسالة إلى حسن، وقد كان.
وأخبرتها سيلينا عن أمر سفرها، وعرضت عليها أن تذهب إلى منزل أميرة حتى عودتها ولكنها رفضت ذلك بشدة، ووعدتها بأن تعتني بالمنزل، وستأتي أميرة لتقضي وقتًا طويلًا أيضًا معها، أمرت سيلينا أميرة بفعل ذلك، فهي على كل حال لا تثق سوى بها، حتى تأمن منزلها بين يديها.

وحان وقت ذهاب سيلينا إلى المكان المجهول للشخص المجهول؛ والذي طال انتظاره لسنوات، ذهبت سيلينا للمطار، واحتضنتها أميرة مودعة، وكذلك أسيل وأم حسن، وقد عز عليهم فراقها وغلبتهم الدموع وانتابتهم نوبة بكاء جماعية.

رحلت سيلينا تاركة كل شيء خلفها باحثة عن حقيقة كل ما مضى وما سيكون، وأحيانًا نولد من جديد عندما ننظر للخلف بشجاعة.
ركبت سيلينا الطائرة وجلست على المقعد المجاور للنافذة، وأغمضت عينيها وسرحت بخيالها إلى مكان سحيق، إنها تلك الأماكن والأشخاص الذين اختاروا أعماق قلوبنا ليعيشوا فيها المواقف المؤثرة، الضحكات والدموع، الكلمات المليئة بكثير مما لا تستطيع وصفه، إنها آثار كل شخص يدخل إلى داخلنا؛ فيخدش جزءًا من أعماقنا أو يُزهره، تعلم أنها لن تنساهم أبدا.

تلك الذكريات الغائبة عنها ضحت بواقعها بحثًا عنها، وتلك الذكريات التي تعيش بداخلها، وفجأة تذكرت أمير ذلك الشخص الذي ترك اسمه ورحل، هل بخل عليها بأن يترك شيئًا آخر؟ تُرى هل سأتعرف عليك في تلك الرحلة الغريبة؟ أكون أشد ما أكون شوقًا لرؤيتك، وخوفًا من مواجهتك أحيانًا، ورغم لهفتنا للتغيير؛ نخشاه... نخشاه كثيرًا... رغم إيماننا أن ذلك الأفضل لنا.

وبعد شرودها قليلًا غطت في نوم عميق، باتت تنام سريعًا وكأن شيئًا ما بداخلها استراح للأبد؛ فغادرها الأرق منذ وصول تلك الرسالة بين يديها، حتى حان وقت هبوط الطائرة، وخرجت سيلينا منها وحملت حقائبها، وأوقفت سائق التاكسي لينقلها للعنوان المطلوب، والخوف يملأ داخلها مما ستلقاه هناك، وبعضًا من الأدرينالين، ولكنها قررت وعليها تحمل ما يحدث بناء على قرارها، إنها مسؤوليتها هي فقط.
ومشى السائق، وأخرجت سيلينا كتابًا من حقيبتها، تلك الكتب التي تخلق لنا واقعًا بداخل واقعنا الذي نعيشه، تخلق من عقولنا عقولًا فذة أكثر ذكاء وملاحظة، ومن قلوبنا قلوب واعية، وتخلق من الحياة حياة أخرى بمعانٍ مختلفة، إنه سحر الكتب وسحر تأثيرها علينا.

ومر الوقت سريعًا حتى وصلت سيلينا إلى المكان المنشود، نظرت سيلينا لساعتها فرأت أنها تشير للثانية عشر ظهرًا، صرخت سيلينا بانفعال وقلق؛ تأخرت كثيرًا عن الموعد المتفق.

دخلت للمشفى مسرعة، ثم ذهبت لعنوان الطابق المكتوب في الرسالة، كانت غرفة في قسم أمراض القلب والعناية المركزة هرولت سيلينا في الممرات لعلها تجد الغرفة؛ فقد تأخرت كثيرًا، ثم وصلت للغرفة المكتوب رقمها في الرسالة، حاولت الدخول ولكن منعها الأطباء من ذلك؛ لأن حالة المريض حرجة في الوقت الراهن، ويمكنها الانتظار حتى حلول المساء.

تنهدت سيلينا بانزعاج وقلق مما ينتظرها خلف هذا الباب، ثم آثرت الجلوس في غرفة انتظار المرضى تنتظر الوقت الذي يسمحون لها بالدخول، وقضت وقتها في قراءة كتاب، واتصلت أميرة بها فأخبرتها بكل ما حدث.

الفصل السادس

"الحب ليس أن ننظر باتجاه بعضنا البعض، الحب أن ينظر كلانا لنفس الاتجاه"

عند ذهاب سيلينا استلقت أم حسن وخلدت للنوم من جديد، كانت تحتاج للهدوء والنوم فقط، مرت الكثير من السنوات وهي تطمع في لحظة كهذه.

بينما أكملت أميرة يومها بشكل روتيني، وقررت أن تذهب كل يوم لزيارة أم حسن في منزل سيلينا؛ حتى تطمئن عليها وعلى منزل صديقتها أيضًا، كانت أميرة تخاف من وجود أم حسن في منزل صديقتها وحدها، ودائمًا ما حذرت سيلينا؛ ربما تكون لصة مثلًا، فماذا تنتظر من أم مجرم؟ فأخذت سيلينا حذرها ولم يعد بالمنزل شيء ذو قيمة يستحق السرقة.

مر الوقت سريعًا، وخيم الظلام على الأجواء، وأخيرًا نهضت سيلينا لتسأل الطبيب ما إذا كانت تستطيع الدخول، فسألها بشكل لم تتوقعه:

- هل أنت سيلينا؟

توترت سيلينا قليلًا، كيف عرف اسمها؟! ثم أومأت برأسها وقالت:

- نعم.

أشار الطبيب لها بالدخول وقال:

- كان ينتظرك منذ الصباح، وعندما تأخرت ساءت صحته؛ فاضطررنا لتأجيل دخولك له للمساء -وفتح لها الباب- تفضلي.

مشت سيلينا بخطوات بطيئة نحو الداخل، فوجدت رجلًا يبدو أنه في السبعينات من عمره نائم والوهن باد على جسده؛ الذي تحيط به الأجهزة من كل مكان، لم تعرف سيلينا ما الذي عليها قوله؛ فلبثت تنظر له عدة دقائق ثم باردته قائلة:

- طلبت حضوري رغم أني لا أعرفك، هل يمكنك أن تخبرني عما وعدتني بإخباري به في هذه الرسالة؟

التفت الرجل قليلًا ثم ابتسم في صفاء وقال:

- جئت يا ابنتي أخيرًا، أهلًا بك، لماذا تأخرت؟

شعرت سيلينا بسكينة ملأتها حينما سمعت صوته ثم قالت:

- إنه السفر، تعلم أنه ليس له وقت محدد، كما أني حضرت قبل ذلك بكثير، ولكنهم منعوني من الدخول، وانتظرت حتى الآن.

ابتسم لها من جديد ثم قال:

- أنا عمك يا سيلينا.

اتسعت عينا سيلينا من الدهشة:

- عمي؟ مَن؟
- أنا عمك رؤوف يا ابنتي.

نظرت سيلينا له بعدم تصديق من جديد وقالت:

- مرحبًا يا عم رؤوف.

ضحك لها وقد فهم ما يدور برأسها وقال:

- أنا أخو أبيك يا سيلينا.

اتسعت عينا سيلينا أكثر:

- لابد أنك تمزح! مَن أبي؟ أنا لا أذكرك.

ثم وضعت يدها على رأسها من هول الصدمة التي انتابتها مما تسمع.

- ستتذكرين كل شيء، ولكن ليس هنا.
- ماذا؟
- جئت متأخرة عن الموعد المطلوب اليوم، كان لديك رحلة اليوم في الليل؛ لذا لن نستطيع الجلوس سويًا أكثر.

نظرت سيلينا بعدم فهم وقالت:

- لا ليس لدي رحلة اليوم، حجزت تذكرة لمدة أسبوع هنا.
- خيرٌ ما فعلت يا ابنتي، ولكن السيارة تنتظرك بالأسفل، هناك مكان يجب أن تذهبي إليه الآن.
- مكان؟ إلى أين؟
- ستعلمين هناك.

غضبت سيلينا وقالت في انفعال:

- هل تقرر كل شيء بدلًا مني؟ أليس من حقي أن أعلم إلى أين أنا ذاهبة؟
- من حقك أن تعرفي عند الوصول، هناك مَن ينتظرك، هيا لا تتأخري، السائق ينتظرك.

نظرت سيلينا للسائق من النافذة باستسلام وقالت:

- هل سأراك من جديد؟
- بالتأكيد، وسأخبرك بكل شيء، لا تقلقي.

نظرت له سيلينا وقالت:

- فلتخبرني الآن، قطعت كل تلك المسافات وانتظرتك كل تلك الساعات حتى تخبرني، ما الداعي لهذه الرحلة الآن؟ أنا لست هنا لأتنزه.

ابتسم لها وقال:

- هذه الرحلة مهمة جدًا بالنسبة لك يا سيلينا، وهي جزء كبير مما أردت إخبارك به، هيا ابنتي اذهبي وستعودين إليّ، هناك الكثير من الرحلات التي تنتظرك.

نظرت له سيلينا ساخرة مما يحدث وقالت:

- هل أفعل كل ذلك من أجل استعادة ذكريات لا فائدة من تذكرها حقًا؟
- لو كان الأمر بلا فائدة لماذا جئت يا ابنتي؟ تركت لك حرية الاختيار مسبقًا لا تلوميني الآن.

صمتت سيلينا وقد باغتها بسؤاله، إنه على حق، إنها مهمة بالفعل على نحو لا تفهمه.

- هيا ابنتي لا تقفين هكذا، إنه ينتظرك.

رضخت سيلينا لرغبته، ثم مشت بخطوات بطيئة نحو الباب، وقالت له مودعة:

- هناك الكثير لأسألك عنه، إلى اللقاء...

ثم تغيرت نبرة صوتها، واستطردت وهي تحاول نطق الاسم ببطء علها تستسيغه: يا عمي رؤوف.

- إلى اللقاء يا ابنتي سيلينا.

خرجت سيلينا والأسئلة الملحة تدق في رأسها، تسأل: أين أبي؟ ولماذا لم يظهر هو أيضًا؟ إلى أين أنا ذاهبة الآن؟ ولماذا هذه الرحلة مهمة بالنسبة لي كما يقول؟ ماذا يريد عمي مني بالضبط؟

ثم زفرت بضيق حتى وصلت للسيارة وركبت، ومشى السائق في صمت وهو يعرف وجهته، قضت سيلينا الوقت شاردة، وعقلها كاد يحترق، شعرت بأن الأفكار قد أتلفت خلايا دماغها الصغير، أرهقها التفكير حتى نامت، لم تدرِ كم مر من الوقت بالفعل، ولكنها نامت ما يكفيها.

ثم استيقظت على صوت السائق الذي فتح لها الباب كي تخرج من السيارة، فنظرت له سيلينا بعينين نصف مغلقتين إثر النوم، ثم نزلت من السيارة، نظرت حولها لتجد طريقًا مظلمًا، والصمت يخيم على الأرجاء إلا من صوت أمواج البحر التي كانت على يسارها.

كان الجو جميلًا، ونسيم رقيق يداعب وجهها، إنها نهاية شهر نوفمبر، ليأتي الشهر المحبب إلى قلبها، شهر سقوط المطر وبداية فصل الشتاء، والشهر الأخير الذي تودع فيه

كل عام، وتنظر إلى تلك الورقة لتخط عليها ما حققته من أهداف هذا العام، وشهر اكفهرار السماء وتقلب الأجواء كتقلب الأسئلة في عقلها الصغير، كانت قد شردت للحظات، ثم استفاقت من شرودها على صوت السائق الذي كان ينادي عليها:

- يا آنسة.
- ها... ها نعم؟
- هذا هو المكان.

ثم أشار لها جهة السور الذي يفصل بين الشارع والبحر وقال:

- عليك الانتظار هنا.
- انتظار ماذا؟
- أنا أفعل ما يطلب مني، ولا دخل لي بالتفاصيل.

ثم ركب السيارة وذهب بعيدًا.

شعرت سيلينا بالخوف، ونظرت حولها فلم تجد أحدًا، كان الظلام حالكًا في ذلك اليوم؛ ففعلت ما طُلب منها، وهي تأمل أن يخرج أحدهم لينقذها من هذا المكان الموحش، الذي أصبح يخيفها رغم جمال طبيعته.

ثم بدأ القلق يتسلل إلى قلبها أن تكون كل هذه خطة مدبرة لاختطافها، أخرجت الهاتف فورًا حتى تتحدث لأميرة، ولكنها لن تنكر الراحة التي شعرت بها عندما تحدثت إلى عمها، زفرت بضيق: يا إلهي، ماذا يحدث؟

وكأن الإجابة كانت جاهزة، هطلت الامطار فوق رأسها، فرفعت رأسها ليتساقط المطر مداعبًا أنفها تارة، وفي منتصف عينيها تارة مما يجبرها على غلقها فورًا، أو داخل فمها الذي كان مفتوحًا وهي تهتف بصوت عالي: أيها الشتاء، أهلًا بعودتك، كم أحبك.

ولكنها لم تكن تحمل معها مظلة، فلم تتوقع سقوط الامطار أبدًا، ولم يتنبأ طقس هاتفها بذلك أيضًا، إذًا يجب أن تأخذ ملابسها نصيبها من الماء حتى تجد مخرجًا أو يأتي أحد لينقذها كما وعدها عمها.

وفجأة ظهر لون بنفسجي غطى أرجاء البحر فبدا أكثر جمالًا، دُهشت سيلينا لما ترى، بحر بنفسجي؟ وأخذت مجموعة من الألوان تتراقص حول اللون البنفسجي، واعتلى صوت نغمة هادئة قد انبعثت أيضًا من مصدر ما تجهله.

نظرت سيلينا حولها بسعادة، لم ترَ هذا المنظر الجميل في حياتها، ودمعت عيناها تأثرًا، وكأنها نست أحزانها كلها فجأة، وأخذت تنظر للبحر الذي تلون باللون الذي يأسر قلبها، إنه لونها الذي لاق بها دومًا.

وفجأة شعرت بأن الامطار قد توقف سقوطها على رأسها الذي تبلل بالكامل، وشعرت باقتراب أحد ما منها، التفتت سيلينا ونبضها يتسارع من القلق، وتقول في نفسها ربما ليس هو الشخص المنتظر، ربما أحد أراد أن يلحق الأذى بها، وكل تلك الأفكار تتصارع في رأسها.

وجدت شابًا يغطي ملامحه ووجهه بالكامل بمظلته، وقدم لها مظلة بيده الأخرى، شعرت سيلينا بالخوف ثم سارت خطوتين للخلف وقالت:

- من أنت؟

جاءها صوته الهادئ:

- لا تقلقي خذيها وحسب.

لا تعرف سيلينا ما الذي حدث لها عندما سمعت صوته، سكنت أطرافها فجأة، تلبكت معدتها، تشعر بأنها تعرف هذا الصوت، ولكنها لا تستطيع تمييز صاحبه، اضطرب نبض قلبها، ولا تنكر _وإن كان غريبًا_ أنها شعرت بالنشوة تعتري جسدها، وشل تفكيرها لبرهة من الزمن، وعلق بصرها على تلك المظلة التي وكأنها أرادت أن تقتحمها حتى ترى من ذاك الذي يقف خلفها، ثم وقف بعيدًا عنها وهو ما زال يغطي كامل ملامحه، لا تظهر منه سوى قدمه التي نظرت لها سيلينا لعلها تتعرف على شيء ما، ولكن لا فائدة ثم قال فجأة:

- سيلينا.

ابتسمت سيلينا رغمًا عنها، وأنعشها جمال صوته، تريد أن تطلب منه ألا يتوقف عن الحديث، وأن لا يتوقف عن ذكر اسمها وشردت قليلًا، لا تدري كم مضى، ولكنها عادت لوعيها، ثم تذكرت أنه نادى عليها وقالت:

- نعم أنا سيلينا من أنت؟
- سيلينا هل يمكنك الاستماع لي فقط؟ دون مقاطعة؟

قالت سيلينا في نفسها: وهذا ما أردته من البداية، وابتسمت وقالت:

- بالتأكيد.
- مرت الكثير من السنوات، لابد أنكِ أصبحتِ الآن أطول وأجمل كثيرًا مما كنت عليه.

أسرتها كلماته، نظرت له في شرود تام، سكنت كل الأصوات، ولم يبقَ سوى صوته يتردد في أذنها، ذلك المجهول الذي جاء على حين غفلة فحاز بكل الانتباه، فجأة لم تشعر بسقوط المطر، اختفى صوت النغمات الهادئة الجميلة المنبعثة من ذلك البحر الذي يشع بلونها المفضل، كان وقع جمال صوته على نفسها أجمل من كل ما هو حولها، فلم تحزن على توقفها ووقفت بانتظار أن يكمل.

استطرد:

نظرة منكِ لم تترك لي طريقًا آخر أسلكه سوى طريقك أنتِ فقط، أهديت لك عمري دون حتى أن أشعر أنا بذلك، كل دقيقة كانت تمر عليّ دونك كانت عبئًا عليّ، لم يكن لها معنى بالنسبة لي يا سيلينا.

آمنت في زمن ما من حياتي السابقة بـ"رب صدفة خير من ألف ميعاد"، عسى أن تجمعني بك الصدفة التي يتحدث عنها، ولكنه لم يحدث، فلم يعد يهمني لا القائل ولا العبارة ولا الصدف، فلتمت كل الصدف إذا لم تأت لي بك.

أعلم أنك تتساءلين الآن عن سبب إخفائي لملامحي عنك، لا أعلم... ربما هو أنني أخشى مواجهتك، لست مستعدًا لذلك بعد، وأشعر بالذنب تجاهك بطريقة ما.

تعلمين لطالما قرأت وسمعت عن جنون الحب؛ كونه يجمع المتناقضات مثل أن تمضي عمرك رغبة في رؤيتك حبيبك، ولكنك تخاف رؤيته أيضًا في آن واحد، تخشى ابتعاده عنك كثيرًا، ولكنك تخاف اقترابه أيضًا، كنت أرى هذا غباء، أراه بعيدًا جدًا عن منطقي وعن حياتي، وها أنا أعيشه، ولأضيف عليه... كم أن الحب رائع ومؤلم في آن واحد، من الرائع أن أشعر بقربك وحسب، وكم هو مؤلم غيابك ولابد من وقوع الاثنين...

تعلمين؟ لم أبُح كل تلك المدة بمشاعري المكنونة لك لأحد ما، كنت سري الذي خبأته في يسار صدري عن الجميع، كنت أعشق حتى اسمك يا سيلينا، أعدّه سرًّا لا يخص سواي، لم أرغب في سماع غيري ينطق به.

عاش كل حرف من اسمك معي كل ليلة، لا يكتمل يومي دون أن أتلذذ بذكره على لساني، ودون أن أتذكر ذلك اليوم الذي ابتسمتِ لي فيه، كنت سعيدة بهطول المطر في ذلك الشتاء، كنت تحبينه و الفصل الأخير من السنة كثيرًا، هل ما زلتي تحبينه يا سيلينا؟

ثم سادت لحظات من الصمت سوى من صوت المطر الذي يسقط على البحر البنفسجي اللامع الجميل، الذي أصبح يغطي كل ما هو حولها، وقد توردت وجنتا سيلينا وأخذت تنظر له بلهفة، ترجو بكامل جوارحها ألا يصمت أبدًا، ومحاولة التوصل لأي معلومات في رأسها عن المتحدث، تشعر بشيء ما لم تشعر به من قبل، ولكنه جميل على أية حال، ثم قالت في نفسها: لابد أن هذا هو شعور الحب، الذي أصبح الشغل الشاغل للناس في الآونة الأخيرة تفسير ماهيته الحقيقية وجمال الشعور الذي يجعلنا نعيشه.

استطرد:

- أتعلمين كيف يكون شخص ما الخيار الأول والوحيد في حياة شخص آخر؟ لم أتردد لحظة في خطو أية خطوة تقربني إليك، أعلم أنك لا تتذكريني وتحاولين الآن جاهدة فعل ذلك ولكن بلا فائدة.

ثم تحولت نبرته إلى نبرة أكثر حزنًا:

- ليتني كنت أستطيع أن أفعل شيئًا ما، لما كنت سمحت لأي مما حدث بأن يحدث، كيف أصبحت الآن يا جميلتي الوحيدة؟ يتملكني رغبة قوية في رؤيتك بعد أن كبرتي ومرت كل تلك السنوات، وأراهن أنك أصبحت أجمل فتيات الأرض.

أتعلمين؟ أتذكر ذلك اليوم الذي أخبرتني به أن لونك المفضل هو اللون البنفسجي، هل ما زال يروق لك ذلك اللون؟ وأتذكر ابتسامتك المحببة إلى قلبي عند رؤيتك إياه، حينها أود لو أني أنفق كل شيء مقابل بسمة منك، ولذلك وددت لو أن العالم بأسره يتلون به.

ثم تحرك قليلًا ناحية البحر وأكمل:

- لونت لك البحر به، أيعجبك؟ ولكن لا قدرة لي على تلوين قطرات المطر الساقطة، يكفي أن أرى ابتسامتك كي تزهري لي الربيع في قلبي في الشتاء،

ثم تحرك قليلًا خلف تلك المظلة التي غطت الكثير؛ مما ذاب قلب سيلينا حنينًا لرؤيته، ثم توقف هطول المطر معلنًا بداية يوم جديد، بدأت الشمس بالفعل بالظهور، ذلك المنظر الذي لا تمل العين من رؤيته، تنشق السماء بأضواء صفراء احتفاءً بشروق الشمس أخيرًا، وكأنها تولد من قلب البحر لتنير لنا الحياة وتنتهي إلى قلبه من جديد، ثم قال:

- ستشرق الآن شمس شهر ديسمبر الأولى، هذا الشهر الذي لطالما أحببتِه، تذكرتك مع كل قطرة مطر سقطت في شتاء كل تلك السنوات التي مضت دونك، وددت لو أن فصل الشتاء لا ينتهي أبدًا؛ وتظل صورتك المبتسمة عالقة في ذهني لا تغيب أبدًا.

أثناء أول فصل شتاء عرفتك فيه، عرفت ذلك الملاك الذي بداخلك، عرفت ما هو أغلى من كنوز الأرض، ألفت قلبك بسرعة حينها وصفاء روحك، لم تسعني الكلمات دائمًا في وصفك، ربما كرهت الكلمات أيضًا مؤخرًا لأنها لم تستطع استيفاء وصف حبي لك، أو تعجز عن ذلك تمامًا.

جئتك دائمًا من تلقاء قلبي يا سيلينا، بحثت عنك سنوات وسنوات دون ملل، والأمل يتجدد كلما استحضرتُ ابتسامتك الجميلة في مخيلتي، يدفعني للبحث عنك من جديد، يدفعني لشق البحور وخوض الحروب من أجل رؤيتك من جديد.

شهر ديسمبر... إنه ذلك الشهر الذي تتقلب فيه الأجواء، لا يستقر فيه صيف ولا شتاء، تارة يكون حارًا وتارة يكون باردًا، شعرت بأنه الأقرب لقلبي أنا أيضًا، إنه يشبه تقلب قلبي دون رؤيتك كل تلك السنوات التي مضت.

كانت مشاعري مختلطة ومضطربة، وحياتي لا تحمل أي معنى وأنت لست فيها يا سيلينا، والآن استقرت الأجواء بداخلي فجأة، سكنت جوارحي، وهدأ قلبي، وانتفضت عيني خشية من أن تراك، فاختارت الاختباء ثم صمت قليلًا.

تحت ذهول سيلينا التي تجمعت دماءها في وجهها، تشعر بسعادة لم تشعر بها من قبل، تداخل مشاعر كثيرة أصعب من أن تحتمله، وهي تنظر له وبجانبه ولادة الشمس للكون، ولكن جميع حواسها مأخوذة إلى ذلك الرجل المتخفي خلف تلك المظلة التي أصبحت تضيق بها، وجل ما رغبته بهذه اللحظة هو تمزيق تلك المظلة للأبد.

استطرد:

- لا أستطيع التنبؤ بما سيحدث إذا رفعت عن ملامحي هذه المظلة، ولأني أخشى نظرتك لي وكأني غريب عنك وأنت الأقرب إلى قلبي.

ثم اقترب منها بضع خطوات، شعرت سيلينا حينها برغبة دفينة في البكاء لا تعلم مصدرها، ثم قال:

- سيلينا أنا أمير، هل تتذكريني؟

شعرت سيلينا أن العالم قد توقف عن الحركة، شعرت بألم في رأسها، يحاول تذكر شيء ما، يحاول ربط اسم الشخص بصوته، تخشى أن تراه فتسقط مغشيًا عليها حتى يستطيع دماغها ربط كل ذلك وتذكر من يكون، إجهاد كبير تجمع عليها كأن حجرة ضخمة سقطت على رأسها.

ولكن هناك شيء آخر خفف عنها كل هذا، تشعر بتعكر معدتها وكأنها تدغدغها بلطافة، تشعر وأن قلبها ينبض للمرة الأولى بشكل مختلف، تذكرت تلك الليالي التي جلست فيها

وحيدة تكتب لذلك الشخص المختبئ خلف تلك المظلة، تتذكر تلك الليالي وكأنها تقول لها: بشرى لك، وجدتِ ما كنت تبحثين عنه طيلة تلك المدة، إنه أمير بذاته يقف أمام عينيك، إنه ليس أخاك كما كنت تظنين، إنه شخص ولع بك حبًا كل تلك السنوات، هل كان لديك حبيب حقًا؟ هناك الكثير من الأسئلة أود سؤاله إياها.

ثم تذكرت عندما اعتذر منها بعد قوله إنه يعلم أنها لا تتذكره، هناك شيء ما قد حدث بالتأكيد، ما هو؟ ما هو؟ ورأسها يزداد ألمًا من كثرة الأفكار، إنها تشعر بهذا الألم للمرة الأولى، تبًا لتلك الذكريات، لا راحة لتذكرها ولا راحة لنسيانها.
زفرت سيلينا في ضيق من نفسها وتزاحم الأفكار في رأسها وكأنه يتخبط هنا وهناك، ثم تذكرت أن أمير يقف ينتظر ردًا على سؤالها! فنظرت له، هل أسأله عما يدور في رأسي؟ الأحسن لي أن أشجعه على نزع تلك المظلة وليحدث ما يحدث بعدها، نظرت لتلك المظلة شاردة قليلًا ثم طأطأت رأسها وقالت:

- نعم أعرفك يا أمير.

اقترب أمير منها أكثر وأخذت الطيور البيضاء الجميلة تحلق حولهم، وكأنها هي أيضًا تحتفي بتلك اللحظة، وبهدوء أزاح أمير المظلة عن وجهه، نظرت له سيلينا مباشرة وقد بدا عليها اللهفة، أخذت تحدق به وكأنها ستخترق طبقات جلده لترى أعمق ما بداخله...
كان أمير حسن المظهر، وأكثر ما يميزه زرقة عينيه، وشعره الأسود اللون، طويل القامة، واسع المنكبين، مبتسم الثغر، واضح الجبين، يبدو لمن يراه للوهلة الأولى أنه أطيب الرجال خلقًا، وأحسنهم حديثًا، كان صوته هادئًا ورزينًا يبعث السكينة لمن يتحدث معه.
كان داخل عينيه بحر آخر غرقت فيه سيلينا كلية، إنها تنظر لعينيه فقط الآن بعد أن غرقت في كل تفاصيل وجهه وجسده الأخرى، لم يكن أمير أقل منها لهفة لرؤيتها، سكن مكانه ولبث ينظر لها بشوق واضح في عينيه، وكأن قدمه لم تعد تقوى على حمله، غرق في رقتها وهي غرقت في جماله.
بعد مرور زمن غير معلوم عند كل منهما _ولأن اللحظات الجميلة مهما طالت فهي قصيرة_ كانت سيلينا لا تشعر بشيء سواه، اقترب منها أمير فشعرت بالخجل وطأطأت رأسها، وبادرها أمير:

- سيلينا...

وأخرج علبة صغيرة بنفسجية اللون وفتحها بهدوء؛ فتلألأ خاتم فضي بجواره خاتم آخر ذهبي، قدمه لها وقال:

- أتزهرين لي هذا القلب؟ أتزهرينه لي دائمًا يا سيلينا؟ لا أعلم كم من الوقت مضى، ولا يهمني ذلك، فكل وقت لغيرك لا معنى له، أنت المعنى الوحيد في حياتي، توقفت كل الكلمات في حنجرتي عندما رأيتك، خانني ترتيب الحروف التي رتبتها قبل رؤيتك، وكأني أستعد لإلقاء محاضرة على ملوك الدول، ولمَ لا؟ فأنت ملكتي، ملكة كياني كله سيلينا، أترافقيني باقي عمري؟ جميلتي.. أتقبلين الزواج بي؟

تجمعت الدماء في وجه سيلينا، ورفعت رأسها لتلتقي بعينيه من جديد؛ ذلك البحر الذي لا شبع منه، وأخذت دقات قلبها تتسارع في عنف، ودون شعور منها _يبدو أن قلبها قد ملك الأمر هذه المرة_ قالت في تلعثم وخجل واضح:

- نعم أقبل.

تنهد أمير بارتياح وقد علت البسمة شفتاه وكأنه فاز بكل شيء يحلم به أي شخص بالعالم، ثم قال:

- إذًا يجب أن نحصل على موافقة البقية.
- من هم البقية؟
- ستعلمين كل شيء، ألا تودين العودة لعمك؟

ابتعدت سيلينا عنه فجأة وكأنها استفاقت لتوها وقالت:

- نعم.
- إذًا هيا، ولكن اقبلي مني هذه الهدية أولًا، لم أعلم ما الذي أصبح يروق لك الذهبي أم الفضي، كنت تحبين الفضي.

لمعت عينا سيلينا وقالت:

- أمير من أنت؟ كيف تعرف كل هذا عني؟.
- سأخبرك بكل شيء، هيا تنتظرنا السيارة هناك لنعود إلى عمك.

ثم مشى خطوات قليلة للأمام محفزًا لها أن تتبعه بعد أن ترك الهدية في يديها، أخذت تتحسسها وابتسمت رغمًا عنها، ثم تبعته بخطوات ثقيلة وهي مطأطئة الرأس حتى وصلوا، ثم فتح لها الباب:

- تفضلي.

دخلت سيلينا وجلست بهدوء، شل تفكيرها فجأة من جديد، لا تشعر بشيء حولها، الفراغ يملأ كل شيء... الفراغ فقط، تشعر أنها تريد النوم، أو أنها تهرب من تلك الصاعقة التي هبطت عليها عنوة، تلك الأحداث المتتالية السريعة، ما الذي يحدث لها؟ لم تشعر بوجود أمير الذي جلس على مقربة منها، كان يتحدث ولكنها لم تسمعه، ثم لم تدرِ سيلينا ما الذي حدث.

سقطت سيلينا على كتف أمير الذي كان قلقًا عليها، ازداد قلقه وتمنى أنها نامت فقط، وأخذ يتفحص أنفاسها، وتحققت أمنيته.

تنهد بارتياح وأخذ يتأملها والسعادة تغطي كل ملامح وجهه وهو يحدث نفسه: وجدتك أخيرًا يا سيلينا، وجدتك.

ودمعت عيناه فرحًا، لم يحلم حتى بذلك اليوم الذي تكون فيه قريبة منه لدرجة أن تنام على كتفه، ولكنه كلما نظر لها تذكر أنها لا تذكره، ولكن ربما تتذكر حبها له.

علم أنها كانت تحبه بعد مرور وقت طويل من تلك الحادثة، تلك الحادثة اللعينة التي غيرت كل حياتها، ووقفت أنا أمامها مكتوف اليدين، كيف لم أستطع حمايتك يا سيلينا؟! ليذهب كل شيء يقف في طريق حبنا للجحيم، وليمت كل شيء يحزنك.

تأخر الوقت على ذلك، لا أعرف كيف سأستطيع مصارحتك بكل ما حدث، ولكني سأبذل كل جهدي لحمايتك، لن أسمح لشيء بأن يؤذيك مرة أخرى.

وأخذ يبكي فرحًا وهو لا يريد لتلك الدقائق أن تنتهي، أصبح يخشى فقدانها من جديد، أمنيته أن يمسك بيدها فقط حتى الموت، ثم اقترب من أذنها وهمس برفق:

- سيلينا... أحبك.

وبعد مرور زمن غير معلوم استيقظت سيلينا، فتحت عينيها ونهضت من على كتفه وهي فزعة، ثم أخذت تتنفس باضطراب وخوف، وأخذ العرق يتصبب من جبينها، فقال أمير بنبرة قلق جلية:

- سيلينا ما بك؟

نظرت له سيلينا كثيرًا، ساد الصمت عدة دقائق وكأنها تراه للمرة الأولى، ثم قالت بلسان ثقيل:

- أمير.

ازداد قلق أمير عليها:

- ما الذي حدث يا سيلينا؟ نعم أنا أمير... أنا هنا لا تقلقي.

نظرت له سيلينا ببرود:

- من أنت؟ منذ متى تعرفني؟ ما القصة؟ من أنا؟ أين أنا؟ ...

وسيل جارف من الأسئلة علق في لسانها، وعجزت عن التعبير عنه فاكتفت بالصمت من جديد، ووضْع رأسها بين راحتيها.

طأطأ أمير رأسه وقال:

- ستعلمين كل شيء عندما نصل لعمك.

رفعت رأسها تجاهه من جديد:

- لماذا لا تخبرني أنت كل شيء الآن؟

لم يستطع النظر لعينيها، أخذ ينظر للخارج عبر زجاج النافذة شاردًا ولم يعلق.

نظرت سيلينا وقد انخفض صوتها قليلًا:

- أمير ما هذه الغرفة المظلمة؟

خطف أمير نظرة سريعة تجاهها وهو يقول:

- أين؟

أشارت سيلينا لرأسها وقالت:

- داخل عقلي، إنني أراها، أسمع صراخ أحد ما بداخلها، من هذا يا أمير؟

تجمعت الدموع في مقلتي أمير وهو معلّق بصره على النافذة في صمت، أثار خوفها فصرخت:

- أمير ما الذي حدث؟؟ رأيتك في ذلك الحلم؟ لم يكن حلمًا، أعلم ذلك، رأيتك تقف هناك ولكنك لم تحرك ساكنًا، من الذي كان يصرخ يا أمير؟ لماذا كنت صامتًا؟

التفت أمير برأسه، لم يستطع مواجهة عينيها التي بدا عليها الضياع والحيرة، ثم أنه كيف سيبرر لها ذلك؟!

- أمير لماذا تصمت؟

جمع أمير يده وأخذ يحركها في توتر، وبدت آثار الدموع على وجنتيه، وطأطأ رأسه بألم واضح ثم قال:

- أنا آسف يا سيلينا، لا أستطيع إخبارك بشيء، اخترت الابتعاد عنك حتى أبعدك عن هذا الألم، حاولت بكل جهدي أن أجعلك سعيدة بعيدة عن تلك الذكريات، لم أستطع حمايتك حينها، لم أحرك ساكنًا كما رأيتني يا سيلينا.

وأخذ أمير يبكي بمرارة، أشفقت عليه وقالت:

- أمير هل تعتقد حقًا أنني كنت سعيدة؟ إن كنت سعيدة لماذا أتيت إلى هنا لمعرفة حقيقة كل شيء، كنت لأظل هناك سعيدة وحسب، بعيدة كما أردت.

وضع أمير رأسه بين راحة يديه المضمومتين، ثم انسابت دموع على وجنتي سيلينا خوفًا مما ستلقاه، وأصبح من السهل تخمين مدى سوئه، ولكنها تريد معرفة حقيقة نفسها، حقيقة كل شيء، وساد الصمت لدقائق.

نظرت له سيلينا وقالت:

- أمير متى سنصل؟

قال بصوت منخفض ولم يرفع رأسه:

- لم يتبقَ الكثير من الوقت.

تجاهلته ثم شردت وهي تنظر للنافذة، يلاحق خيالها تلك الغرفة السوداء، إنها ترى أمير هناك بوضوح، وتسمع فتاة ما تصرخ، من هي تلك الفتاة؟ ولكن تلك الفتاة كانت تنادي باسم أمير، لا أحد يستطيع أن يخبرها سواه.

رفع رأسه ثم مكث ينظر لها وهي شاردة لبضعة دقائق، ثم التفتت له سيلينا فجأة:

- أمير هل تعرف تلك الفتاة؟

تظاهر أمير بالثبات وقال:

- لا أستطيع أن أخبرك بشيء يا سيلينا الآن.
- ولكن لماذا؟

أخفض أمير رأسه:

- لأنني أحبك حاولت جاهدًا أن أبعدك عنها، ولكن عمك أصر على ذلك، ومن الصعب عليّ أن أرويها لك كأنني أروي قصة ما قبل النوم، أرجو المعذرة.

التمعت عينا سيلينا وهي تنظر له وقالت:

- تحبني؟ منذ متى؟
- منذ رأيتك يا سيلينا.
- أين رأيتني؟

زفر أمير بضيق وحاول التحدث ولكنه لم يستطع.

- لماذا أصر عمي على إحضاري إلى هنا؟
- أراد أن يخبرك بكل شيء قبل موته.
- موته؟
- عمك مصاب بمرض خطير في قلبه، لم يتبقَ له سوى أيام معدودة في هذه الحياة، كنت أرافقه مدة علاجه كلها، كنت أطلب منه تأجيل موعد إرساله الرسالة لك عوضًا عن أني لم أرغب في تسليمها، أخبرته أني سأتكفل برعايتك في خفاء كما يفعل هو، ولكنه أصر على ذلك ولم أستطع منعه.

نظرت سيلينا بغضب وقال:

- ولكني لا أحتاج لمن يرعاني، لماذا أردت أن يحدث ذلك؟

- حتى لا يحزن قلبك يا سيلينا، كان ينفطر فؤادي شوقًا لك كل تلك السنوات التي مضت، ولكني اخترت ذلك على أن أراك حزينة، وقد وعدني عمك بأنه سوف يزوجني بك قبل موته بعد موافقتك بالطبع، لم يؤمن بحبي لك سواه، أو ربما لا أحد يعلم غيره.

تجمعت الدموع في عيني سيلينا ونظرت ناحية نافذة السيارة وقالت:

- ولكني أستطيع تجاوز ذلك صحيح؟

ارتفع حاجبي أمير وقال:

- لا أستطيع رؤيتك حزينة، ولكن لا أستطيع فعل شيء أمام رغبة عمك الملحّة، لا أعلم كيف سأواجهك بعد ذلك، ولكني أعتذر منك لأني لم أستطع حمايتك حينها.

لمعت عينا سيلينا، إنها بالرغم من كل شيء تشعر بشيء من الراحة لوجودها معه ثم قالت:

أستطيع تجاوزه بك فقط، تعلم لقد تجاوزت باسمك فقط الكثير، كنت أكتب لك، أشعر بالراحة لنطق اسمك فقط، علق في ذاكرتي، ولكن حرمتني ذاكرتي من تخيلك، ولكني وجدتك، وجدت ما خبأته ذاكرتي عني، لا أهمية لما حدث، المهم هو ما سيحدث -ثم نظرت له في خجل- اشتقت لك يا أمير.

نظر لها في حنان وقال:

- أعطيتني الدافع الوحيد كي أعيش، أرجو أن تنقطع حياتي وأنا ممسك بك أنت فقط.

أسندت سيلينا رأسها على ظهر المقعد ولكن كانت مستديرة ناحيته وقالت:

- هل كنت أحبك هكذا من قبل؟ كيف كنت يا أمير؟ قبل سنوات من الآن، لم أرك بوضوح، بت جميلًا أجمل مما كنت عليه.
- لم تعترفي لي بذلك صراحة، يبدو أنه منعك الغرور من ذلك -ثم غمز لها بعينيه- كنت جميلة، وأنت الآن أجمل.

وأسند رأسه كما فعلت واستدار بجسده ناحيتها، ضحكت سيلينا بسعادة قد غمرتها، وكان أمير شاردًا، قالت سيلينا فجأة:

- أمير.

استفاق أمير من شروده:

- تفضلي.
- أشعر بالسعادة للمرة الأولى، أتمنى لو أن تلك اللحظات لا تنتهي، أتشعر بالسعادة أنت أيضًا؟

ابتسم أمير بحب وقال:

- لو كانت للسعادة ميزان لوضعتك مكانه.

توردت وجنتا سيلينا وغرقت في زرقة بحر عينيه من جديد، فنظر أمير للنافذة القريبة منها وقال:

- كدنا نصل، هل أنت مستعدة؟
- نعم مستعدة.

ابتسم أمير، ونظر كلاهما عبر النافذة حتى وصلوا للمشفى، نظرا باتجاه بعضهما، وابتسم أمير لها بحنان ثم فتح باب السيارة ونزل منها ونزلت خلفه، ونظر باتجاه المبنى وقال:

- هل نذهب؟

ابتسمت سيلينا ونظرت له، بدا جميلًا أجمل مما كان عليه، وقالت:

- نعم.

ومشيا معًا بخطوات متناسقة باتجاه المبنى الضخم المقام أمامهم، كانت سيلينا سعيدة للمرة الأولى، عندما دخلت المبنى تذكرت لحظة دخولها له أول مرة؛ وشتان بين المرتين.

لم يمضِ بينها وبين تلك اللحظة سوى ساعات، ما الذي حدث؟ تشعر وكأنه حدث منذ عام مضى، ابتسمت سيلينا وهي تنظر لأمير؛ الذي كان ينظر باتجاه طريقه منهمكًا في البحث عن الغرفة المنشودة، وقالت في نفسها: أيشفى المرء من لقاء؟ شخص يحبه؟ هل أنا أنتمي لأمير الآن؟

نظر أمير لها عند وصولهم وهي غارقة في أفكارها، ابتسم عندما رأى نظراتها له فأطرقت رأسها خجلًا، ووصلا للغرفة، فتح أمير الباب بهدوء ثم أغلقه خلفه، نظر عمها لهما وشعر بالسعادة تملأ قلبه؛ حدث ما كان يتوقعه، وقال:

- أهلًا بكما، تفضلي يا ابنتي، تفضل يا بني بالجلوس.

مشت سيلينا ثم مشى خلفها أمير بخطوات بطيئة، جلست سيلينا ثم بادرها عمها:

- كيف كانت الرحلة؟

ابتسمت سيلينا ونظرت لأمير بخجل، وعقدت يديها أمام ركبتيها وقالت:

- كانت جميلة.
- هناك رحلة أخرى تنتظرك، ولكن عليك الاسترخاء الآن، كانت ليلة طويلة بالنسبة لك.
- نعم كانت كذلك، ولكن إلى أين هذه المرة؟

تجاهلها ونظر باتجاه أمير وقال:

- احجز غرفتين في فندق قريب من هنا، واسمح لي بأن أتحدث معها على انفراد.

نظر أمير له بقلق، وقال في حزن _وهو يعلم ما سيخبرها عمها به_ محاولًا الاعتراض، وعلامات اليأس بادية على محياه رغم ذلك:

- ولكن يا عمي...
- اذهب يا أمير، لا شأن لك بالباقي.
- عمي -ثم نظر باتجاه سيلينا- لا أستطيع التفريط بها.

نظرت سيلينا بعدم فهم، ما الذي يطلبه أمير منه؟ وما هو الباقي؟ الذي يقصده عمها؟

ابتسم عمها وأشار للباب:

- هيا اذهب كي لا تتأخر، ثم عد إلى هنا خذها واذهبا.

تنهد لأمير في ضيق وقال:

- حسنًا يا عمي سأفعل.

ابتسم عمها، ثم خرج أمير وطغا عليه الحزن والقلق، ولم يودع سيلينا ولم ينظر باتجاهها، حتى نظرت سيلينا لعمها وعلى وجهها الكثير من التساؤل:

- ماذا هناك يا عمي؟ ما الذي يطلبه منك؟

ابتسم عمها وقال:

- لم أرَ في حياتي شخصًا يحبك كما يحبك أمير، ولكن هذا ليس ما أريد أن أحدثك به.

لم تفهم سيلينا ماذا الذي يقصده عمها بالضبط، ولماذا يقول لها هذا الآن، فآثرت الصمت والاستماع.

استطرد:

- هل تذكرت شيئًا عندما رأيتِ أمير؟

نظرت له وقالت:

- هل ستخبرني بالحقيقة الآن؟
- بالتأكيد يا ابنتي دعوتك من أجل ذلك، ولكني أريد أن تبدأ ذاكرتك بالعمل قليلًا.

نظرت له وقد تذكرت ما حدث في السيارة، ونظرات أمير الحزينة بعد أن سألته، وقالت:

- نعم، ولكن لا أعلم هل هذا مرتبط بذاكرتي أم لا، إنها صورة لم تفارقني منذ أن رأيت أمير وسمعت صوته عن قرب.
- وما هي؟
- غرفة مظلمة وفتاة تصرخ بداخلها، وأمير يقف هناك ينظر بسذاجة، لم يبدُ على ملامحه أي مشاعر، هل هذا مرتبط بها يا عمي؟
- ربما يا صغيرتي.

ثم نظرت له سيلينا في حزن وقالت:

- ألن تخبرني بكل شيء.
- عليك الذهاب للرحلة التالية أولًا

تنهدت سيلينا في غضب وقالت:

- ومتى ستنتهي تلك الرحلات؟
- إنها مهمة من أجلك يا سيلينا، وأنت تعلمين ذلك.
- إلى من سترسلني هذه المرة؟

- إلى ما كنت تنتظرينه، سأفارق هذه الحياة بعد عدة أيام ليست بطويلة، ربما أسبوعان من الآن، من يدري، لم يعد لدي الكثير من الوقت في هذه الحياة يا ابنتي، عليّ إخبارك بكل شيء قبل فوات الأوان.

في هذه الأثناء فُتح الباب بعنف، وكان أمير يلتقط أنفاسه بسرعة واضحة وكأنه خارج من سباق للعدو، نظر له عم سيلينا وقال ضاحكًا:

- لم العجلة؟ لم أخبرها بشيء الآن، استرح.

نظرت سيلينا لأمير وقالت:

- لماذا لا تريده أن يخبرني بشيء؟

تجاهلها أمير وقال:

حجزت الغرفتين يا عمي، ولكن قبل ذلك أود أن أطلب منك طلبًا غاليا كثيرًا بالنسبة لك، ولكني أوده بشدة.

كتمت سيلينا غيظها من تجاهله إياها، رفع عمها حاجبيه وقال:

- وما هو؟

نظر أمير إلى سيلينا وابتسم:

- أريد الزواج من ابنتك، هل تعطيني إياها؟

ضحكت سيلينا وتذكرت عرضه للزواج عليها، تلك اللحظات التي تمنت ألا تنتهي أبدًا، ولكن تعلم أن تأثيرها لن ينتهي من قلبها أبدًا.

ابتسم عمها وقال:

- أوافق على إعطائك إياها، ولكن هناك شرط أنت تعرفه.

ابتسم أمير وقال بيأس:

- يا عمي اتركني أنا لأنهي هذا الشرط.

قال في نفاذ صبر:

- سئمت منك يا أمير، ستفعل ما أخبرك به وانتهى الأمر، هيا أريها غرفتها -ثم نظر لسيلينا التي بهت وجهها وهي تستمع إليهم- أخذت إحدى عينيّ، اعتني بها جيدًا.

ابتسمت سيلينا لعمها، إنها المرة الأولى التي تشعر فيها بأن لها أب رسمي يتحدث نيابة عنها، ولكن ما كان يشغل تفكيرها: ما هو الشرط؟ ولماذا يتحدثون بالألغاز أمامي؟

- في عينيّ يا عمي -ثم فتح الباب- هيا يا جميلة لأوصلك.

ذهبت سيلينا فورًا إلى يد عمها كي تقبلها ثم قالت:

- شكرًا لك يا عمي، لا تنسى وعدك سأعود إليك.

ابتسم عمها وقال:

- اذهبي يا ابنتي، فتح الله لك كل أبواب الخير.

ابتسمت سيلينا وقد غمرها دعاؤه بالسعادة، هل هذا هو شعور أن يكون لديك أب تقبله؟ وتودعه ويدعو لك؟ أن يكون لك أب يحبك بإخلاص؟ يحبك لأنك ابنته وحسب؟ هل كان يقصد حقًا أنه أعطاه إحدى عينيه؟

ابتسمت سيلينا لتلك المشاعر الجميلة التي تزورها للمرة الأولى، ثم خرجت وكان أمير ينتظرها بالخارج، ثم أعطاها مفتاحًا وقال:

- هذا مفتاح غرفتك، ستكون غرفتي مجاورة لك، إن احتجت أي شيء سأكون هنا، نامي واسترخي تمامًا، أرجو ألا تستوحشي المكان، طلبت لك غرفة تليق بجميلة مثلك، أرجو أن تنال إعجابك، ستقضين فيها بقية الوقت -ثم طأطأ رأسه بحزن- حتى نرى ماذا سيحدث.

نظرت سيلينا له بحب، إنها المرة الأولى التي يهتم لأمرها أحد ما إلى هذا الحد، وتناولت المفتاح وابتسمت له وقالت:

- شكرًا لك يا أمير أنا ممتنة لذلك.
- لا داعي للشكر.

ومشيا كلاهما خارج المشفى، نظر أمير لها وكان صامتًا طوال الوقت، شعرت سيلينا بانشغاله عنها بأمر ما، ولكنها خجلت أن تسأله عنه، وشعر بذلك ثم ابتسم، ووصلا إلى المبنى الفاخر الذي يبعد عن المشفى بقليل فقط.

دخلا إليه ورحب بهما موظف الاستقبال، حتى وصلا للطابق المنشود، التفت لها أمير وقال:

- نومًا هنيئًا.

قالت سيلينا في تردد

- أمير أرجوك أخبرني ما الذي يحدث؟ ما الذي تطلبه من عمي؟ وما هو الشرط؟ أخبرني.
- سيلينا... ستعلمين كل شيء، ولكني لا أستطيع أن أخبرك إياه دفعة واحدة.
- أهو شيء سيء إلى هذا الحد؟

قال متجاهلًا:

- استريحي الآن وأنا هنا، لا تقلقي.

شعرت سيلينا أنه لا مجال لإقناعه بأن يخبرها بشيء، واستحسنت أن تنتظر كما قال، ماتت رغبتها في المحاولة من جديد، ثم دخلت لغرفتها وفي نفسها شيء من الغضب منه لتجاهله لها، شعر أمير بذلك لأنها لم تودعه وقال:

- سيلينا لا تغضبي مني.

ابتسمت حينها وشعرت أن غضبها بدأ يزول منه بسهولة بالغة، إنها ترى نفسها للمرة الأولى، ما الذي يحدث لها؟ أهذا هو الحب؟ قالت:

- حسنًا، لست غاضبة منك، تصبح على خير.

ثم دخلت وأغلقت الباب خلفها، وما إن أغلقته حتى دهشت من جمال ما ترى، كانت الغرفة مطلة على البحر، كانت الإضاءة تنير باللون البنفسجي الهادئ، والسرير في منتصف الغرفة، سرير كبير ومريح فرش عليه فراشًا أبيض اللون، يوجد طاولة صغيرة وضع عليها الكثير من الشوكولا الداكنة والقهوة، ووضع عليها طعام شهي الرائحة.

لا شك أنه ترك لي الطعام، ولكن من أين له أن يعلم أنني أحب هذه الشوكولا بالذات؟ حسنًا.

ثم أخذت الطعام وجلست تتناوله وهي شاردة تمامًا، كانت تشعر براحة تملأ نفسها، رغم أن كل ما يحيط بها لا يوحي بشيء يستدعي الراحة أبدًا سوى وجود أمير.

لم تنسَ سيلينا أميرة صديقتها؛ اشتاقت لها كثيرًا، وأسيل وأم حسن، فاتصلت عليهم فورًا وحكت لهم الكثير مما جرى، ابتسمت أميرة وأطلقت زغرودة في الهاتف، وقالت ساخرة:

- عشت عمري يا ابنتي كي أراك بفستان زفافك تأتين إليّ، مبارك لك -ثم صرخت- مباااارك.

ضحكت سيلينا وقالت:

- أرجوك خذي أمرًا واحدًا بجدية.

وتحدثت معها أم حسن وأسيل أيضًا، كانوا يجلسون ثلاثتهم معًا في منزل سيلينا، أحبوا بعضهم في الآونة الأخيرة، وأصبحوا يمضون وقتًا أطول معًا، كأن غياب سيلينا قربهم من بعضهم أكثر.

ثم أغلقت سيلينا الهاتف، وأرادت أن تغط في نوم عميق ولكن للأسف زارها الأرق؛ فقد حلمت بنفس تلك الصورة التي لم تفارق خيالها وهي مستيقظة، فحاولت التغلب على ذلك حتى استغرقت في النوم، ثم استيقظت سيلينا في صباح اليوم التالي على صوت طرقات خفيفة على الباب، قالت بصوت متعب:

- من هناك؟

جاءها صوت هادئ:

- أنا أمير، هل ما زلتِ نائمة؟ هل يمكنك أن تفتحي لي الباب؟ أحضرت لك طعام الغداء، يمكنك تناوله حينما تستيقظين.

نهضت سيلينا فورًا وأخذت ترتب مظهرها، ثم فتحت الباب واستقبلته بابتسامة وقالت:

- لا أعلم كيف سأرد لك كل ذلك، أشكرك.
- لا داعي لأن تفكري في أن تردي لي ذلك -ثم غمز بعينيه- يكفي أن تلبسي الخاتم، وهكذا ترديه.

ضحكت سيلينا وتورد وجهها وقالت مغيرة الموضوع:

- متى سنخرج؟
- عندما تريدين ذلك.
- أليس هناك رحلة تنتظرني؟
- نعم أمرني عمك أن آخذك إلى هناك.
- هل ستأتي معي؟

نظر أمير بعيدًا وقال:

- حسنًا لن أرافقك في كل شيء وفقًا لأوامر عمك أيضًا.

حزنت سيلينا قليلًا، ولكن قالت في نفسها: لابد أن عمي يعرف الأفضل، وقالت:

- حسنًا أشكرك كثيرًا، سأكون جاهزة خلال ساعتين لنذهب.
- ألن تكملي نومك؟
- لا ذهب النوم من عيني.

ابتسم أمير وقال:

- حسنًا.

التفتت سيلينا حتى تغلق الباب، فقال أمير:

- ألن تودعيني؟
- حسنًا إلى اللقاء.

عقد يديه على صدره وقال:

- وافق عمك على طلبي.

ضحكت سيلينا وقالت:

- ولكني لم أوافق بعد -ثم لوحت له بيدها مودعة- إلى اللقاء.

وأغلقت الباب بسرعة، صرخ أمير بغضب وأخذ يطرق الباب:

- ما الذي تقصدينه؟ عودي إلى هنا ألا تريدين الزواج مني؟

ضحكت سيلينا وقالت:

- إلى اللقاء بعد ساعتين.

تنهد أمير في استسلام ثم ذهب لغرفته.

وتناولت سيلينا طعامها وارتدت ملابسها استعدادًا للخروج، ومرت الساعتان سريعًا، وخرجت سيلينا وخرج معها أمير وقال:

- هل تريدين أن نذهب لعمك أولًا قبل ذلك؟
- لا أعلم، هل سيكون هذا أفضل؟
- لن يضيف هذا شيئًا جديدًا.
- إذا لننطلق.

- يبدو عليك الحماس؟
- هل ستأتي معي؟
- نصف الطريق فقط.
- حسنًا هيا إذًا.

ركب أمير السيارة وركبت سيلينا بالمقعد المجاور له، وانطلقا ومرت الساعات وهما يسيران، وسيلينا تقرأ كتابًا كانت قد حملته معها، وأمير شارد الذهن يفكر فيما سيحدث وما ستلقاه سيلينا، يشعر بالخجل من نفسه لأنه لم يتمكن من حمايتها، لا يدري هل تستطيع استعادة ذكرياتها أم لا، ولكنه سيكون دائمًا قريبًا منها، وهو يرجو في نفسه ألا تستعيدها أبدًا.

ثم توقف أمير في الطريق فجأة، فانتبهت سيلينا ورفعت بصرها للمكان الذي توقف عنده أمير، أخذت تنظر حولها بتمعن، هذا المكان إنها تعرفه، تشعر بذلك يقينًا، ولكن لا تعرف ما هو.

نظر أمير وقد فهم التساؤل الذي يبدو على وجهها:

- سيلينا، عزيزتي عليك أن تترجلي الآن من السيارة، ادخلي إلى هذا الشارع من هناك -ثم وصف لها مكان منزل معين- اذهبي واطرقي الباب فقط.

ثم تغيرت نبرة صوته إلى نبرة حزينة وقال:

- اذهبي وقابلي والديك يا سيلينا.

اتسعت عينا سيلينا وهي تحدق به، لم تتوقع أن تقابلهم بهذه السرعة، تلعثمت ولم تعرف ما عليها فعله، لم تتوقع ذلك أبدًا، ونطقت أخيرًا بعد دقائق من الصدمة التي كست ملامحها وقالت:

- من هم؟ هل هذا المكان الذي كنت أعيش فيه؟ أمير لماذا تركني أهلي؟ اعتقدت أنهم قد ماتوا، أخبرني الجميع أن الأهل لا يتركون أبنائهم أبدًا.

غطّى الحزن وجه أمير وقال:

- ستعلمين كل شيء هناك، اذهبي واطرقي الباب، خذي رقم هاتفي... إذا حدث أي شيء اتصلي بي وسآتي لآخذك فورًا، أنا هنا في الجوار.

- أمير أرجوك أجبني، أشعر بالخوف من مواجهتهم، أشعر بالخوف من كل شيء.

ونظرت حولها، شعرت بانقباض قلبها فجأة، شعرت بخوف لم تفهم سببه، وكآبة طغت عليها.

تنهد أمير وقال:

- سيلينا، كان هذا قرار عمك، لم أرد أن آتي بك إلى هنا، كنت سأتزوجك ونذهب بعيدًا عن كل هذا، أنا آسف يا سيلينا، لا أفعل هذا بإرادتي، ولا تنسي أنك وافقتِ على المجيء وتلبية دعوة عمك.

كان يتحاشى النظر لعينيها وقد شحب لون وجهه.

- أمير هل هم سيئون؟ وأنت تخاف أن أصبح مثلهم؟

التمعت الدموع في عيني أمير، لا يدري ما يقول، ساد الصمت لدقائق ثم فتحت سيلينا باب السيارة، ثم نظرت باتجاهه:

- أنا بالفعل من وافقت على أن آتي إلى هنا، هذا قراري يا أمير وسأتحمل عواقبه مهما كانت، لا ذنب لك فيما يحدث هنا، لا تحزن، إلى اللقاء.

وأغلقت الباب ولم تنتظر رده.

مشت سيلينا إلى حيث أخبرها حتى وصلت إلى ذلك المنزل المنشود، كان المنزل صغيرًا يبدو عليه البساطة والقِدَم أيضًا، نظرت سيلينا حولها حتى وقعت عيناها على تلك الغرفة، إنها نفس الغرفة التي لاحقت مخيلتها، شعرت سيلينا بالخوف وتسارعت نبضات قلبها، ثم مشت بخطوات ثقيلة ناحية الغرفة المغلقة، يبدو أنه مخزن تُجمع فيه خردوات المنزل، ثم قالت بلهجة ثقيلة: منزل والداي.

أخذ مشهد الطفلة يتسع أمام عينيها شيئًا فشيئًا، حتى رأت تلك الطفلة بوضوح في هذه الغرفة التي أمامها، لم تكن طفلة... يبدو أنها في الثانية عشر من عمرها، إنها تصرخ.

هتفت سيلينا وفغرت فاها، فقد رأت الصورة بوضوح أخيرًا في رأسها: هذه أنا!... سيلينا!

ضربت سيلينا كفها برأسها: ما الذي حدث؟ لماذا كنت أصرخ؟ لماذا كان أمير هناك؟ نظرت حولها ترى أمير، ولكن يبدو أمير أصغر كثيرًا مما رأته، أقل طولًا، لم تنبت له لحية بعد، شعره جميل وناعم، وعيناه لم يختلف جمالهما عن الآن.

تراجعت سيلينا خطوتين للوراء، ثم نظرت للباب الفضي أمامها وقد بهت دهانه وفقد اللون لمعانه، وقررت أخيرًا بعد مرور عدة دقائق، مدت يدها وأخذت تطرق الباب بيد مرتجفة، وبعد دقائق جاءها الصوت خلف الباب:

- من هناك؟

اتسعت عينا سيلينا، ذلك الصوت، إنها تعرفه، ولكن... شعرت بتشوش وتداخل أصوات كل ما هو حولها، لم تعد ترى شيئًا سوى الأسود الذي غطى الأرجاء، وجاءها الصوت من جديد وعادت لوعيها حين سماعه:

- يبدو أن الطارق رحل.

وفجأة ظهر صوت رجولي ما إن سمعته سيلينا حتى ارتعد جسدها، شعرت بخوف لم تفهم سببه، يقول الصوت:

- ابتعدي عن الباب لأتحقق بنفسي.

ثم فتح الباب، وما إن رأت وجهه حتى انتفض جسدها وارتعدت أواصرها، إنها تعرفه، تعرف هذا الشخص، وعندما رآها نظر لها بازدراءٍ قاسٍ وقال:

- ماذا تريدين الآن أيتها العاهرة؟ هل تذكرتنا الآن؟ لست ابنتي ولا علاقة لي بك، وإن أتيت للاعتذار عما فعلته فلن أقبله، أين كنت كل تلك السنوات؟ في أماكن العهر التي تناسبك أليس كذلك؟ لم تكوني متفرغة للاعتذار، لا أتشرف بك كابنة لي ولا حتى ضيفة عابرة، جلبتي لي العار اذهبي من هنا.

ابتعدت سيلينا خطوتين للوراء واتسعت عيناها، لماذا يقول لي هذا؟ أهذا منزلي؟ هل هذا أبي؟ أين أمي؟ أخبرتني أميرة أنهم سيفرحون كثيرًا عند لقائي، وستضمني أمي لصدرها للمرة الأولى، وحينها سأتذكر كل شيء، أخبرتني بهذا بالأمس، يا إلهي!

علامات الصدمة وخيبة الأمل باتت واضحة على وجه سيلينا، وفجأة خرجت امرأة ترتدي حجابها كما ترتديه سيلينا، وفتاة ما إن رأتها سيلينا حتى فغرت فاها إثر الصدمة:

- جوليا!!!! أنت؟؟

ولكنها لم تنبس ببنت شفة، شفتاها ترتجفان خوفًا ووجهها باهت مكفهر، ثم قالت أمها:

- دعها تدخل لنرى ما لديها.

قال الرجل بحدة:

- اصمتي أنت يا امرأة -ثم نظر لسيلينا من جديد- لماذا لا تتحدثين؟ ما الذي كنت تفعلينه كل تلك السنوات؟ لم أستطع أن أرفع عينيّ في وجه أحدهم، ماذا سأقول لهم؟ ابنتي ذهبت وتركت المنزل؟ ذهبت خلف حب مراهقة طائش؟ كم شابًا نمتِ معه أيتها الحقيرة؟

دمعت عيناها من سيل الشتائم الذي انهال عليها وهي لا تعلم سببه، وانعقد لسانها فلم تملك أن ترد عليه، ولا تعلم لماذا يتهمها بهذه القسوة، هل حقًا كنتُ عاهرة؟ ونظرت لأمها في حزن على أمل أن تدافع عنها، عقدت أمها يديها أمام صدرها تنتظر ردًا من سيلينا، وبعد مرور دقيقة من الصمت رفعت سيلينا رأسها ونظرت له مباشرة وقالت:

- من أنت؟؟ لماذا تقول لي كل هذا؟

رفع أبوها يده عازمًا ضربها بقسوة، ابتعدت سيلينا خطوتين للوراء مبتعدة عنه، وفجأة أحست سيلينا بيد أخرى، وقال بصوت غاضب:

- لا يُسمح لك بلمسها بعد الآن، ثم إنك لم تتوقف عن نعتها بالعاهرة، كدت أصدق أنها كذلك عندما رأيتك، ولكني تراجعت عندما رأيتها.

ما إن سمعت سيلينا الصوت حتى علمت فورًا من يقف هناك، إنه أمير، تقدم كي يجنبها الضربة، ابتعدت سيلينا خطوتين للوراء وقد أصابها الخجل من الوضع الذي تركها فيه، ووقفت مبتعدة عن الجميع قليلًا وهي تنظر لأمير، وعلى وجهها الكثير من الحيرة مما يحدث حولها، تريد سؤاله عن كل شيء ولكن ليس الوقت المناسب بالتأكيد.

وقال أبوها:

- أمير اللعين، ما الذي جاء بك إلى هنا؟ بعد كل هذه السنوات حسبتك ميتًا -ثم اقترب منه عدة خطوات- لم أندهش كثيرًا من وجودك مع تلك العاهرة.

ابتسم أمير باستفزاز ورفع يده ليعدل شعره وقال:

- من تتحدث عنها هي زوجتي، أرجو أن تمسك لسانك قليلًا وإلا ستدفع ثمن كلماتك هذه غاليًا.

وفجأة جاء رجلان ووقفا على جانبي أمير، وأخرج أحدهما ورقة يقرأ ما فيها بصوت عالٍ:

- قانون ٣٩: من تمتد يده على زوجة أحدهم اعتداء منه عليها بغير وجه حق؛ يسجن لمدة ١٠ سنوات.

ثم أومأ الرجل الآخر برأسه موافقًا وقال:

- ما رأيته الآن يشبه ذلك بالفعل -ثم وجه نظره لأبو سيلينا- لا أحب أن أخالف القانون، كما أنني وإحقاقًا للحق عليّ التبليغ عنك، أعذرني ولكن عليّ فعل ذلك.

استطرد:

- لا بأس هذه المرة، زوجها يستطيع المسامحة -ثم نظر لأبيها نظرة تحدٍ- ولكن إن تكرر ذلك يعلم هو الباقي.

أخذت أم سيلينا تلطم خديها وهي تقول:

- فُضحنا، فُضحنا، قُضي علينا.

ولم تستطع أن تتمالك أعصابها فجلست على الكرسي وأجهشت في البكاء.
نظر أبوها لها وقال:

- منذ متى أصبحت زوجتك؟ لن تصبح زوجتك إلا بإذني، أنسيت أني أبيها، لا يوجد قانون يحكم العلاقة بين الأب وابنته، اغرب عن وجهي، واتبعيني يا سيلينا للداخل، فضحنا بالفعل... هيا.

ارتفع صوت أمير وقال:

- لم تأتِ سيلينا هنا كي تتبعك للداخل أيها المغفل، كنت قد أتيت لأطلب يدها منك، ولكن يبدو أن رأيك لم يعد مهمًا بالنسبة لي.

قال أبوها بانفعال:

- لن تصبح زوجتك إلا بإذن مني أنا، سأصبح أنا ابتلاءك على هذه الأرض، ستندم على تدخلك بيني وبين ابنتي.

ضحك بسخرية:

- ابنتك؟ ألم تتبرى منها منذ سنوات؟ والآن من جديد ما الذي حدث أيها الأب الحنون؟

صرخ أبو سيلينا:

- اتبعيني أيتها المصيبة منذ أتيت إلى هذه الدنيا.

ضحك أمير من جديد وقال:

- لا أسمح بذهابها معك، خفت عليها الآن أكثر من أي وقت مضى.

نهضت أمها فجأة وصرخت:

- لا شأن لك يا أمير، اغرب عن هنا واترك ابنتي.

ضحك أمير وقال:

- ابنتك؟
- نعم ابنتي.
- لماذا لم تكن كذلك منذ دقائق من الآن؟ -ثم صرخ بأعلى صوته- لا شأن لكم بسيلينا بعد الآن، سأصبح مختلًا عقليًا إن تركتها هنا وأنا مطمئن، سآخذها وأرحل كما أتيت بها، لا أنتظر موافقتك على زواجي منها، سيلينا زوجتي من الآن، وسيقام عرسنا فوق رأسك -وأشار لأمها- ورغمًا عن أنفك أنت أيضًا -ثم نظر لجوليا- ألن تأتي يا جوليا معها؟

تلعثمت جوليا وطأطأت رأسها ولم تجِبه، فقال:

- أسفي عليك يا جوليا، اعتقدتك أفضل من هذا -ثم نظر لسيلينا واختفت ملامح العداوة من وجهه فجأة- كل ذلك بعد إذن سيلينا بالطبع، سيلينا هي المتحكمة في قراراتها، هي التي ستقرر أين تذهب وأين تبقى، لا شأن لك -ثم أشار بيده للرجل الذي على يمينه- ماذا يقول القانون عمن بلغوا الـ١٨ عامًا؟
- أنهم أحرار في تصرفاتهم، ولا شأن لأهلهم فيها ما داموا لا يخالفون القانون.

نظر أمير له وقال بهمس:

- أظن أن زواجنا لا يخالف القانون، أليس كذلك يا عم؟

ثم نظر لسيلينا التي لم تنبس ببنت شفة، لم تعد تراهم أو تسمع صراخهم، أصبحت ترى أشياء أخرى، مشهد الغرفة المظلمة القذرة يتكرر أمامها، مد يده لها وقال:

- سيلينا، أتأتين معي؟ ولا شأن له بك، لا تخافي منه.

نظرت له سيلينا بعينين دامعتين، وقبل أن تنطق صفق أبوها بيديه وقال:

- انظري أيتها المغفلة في أي وضع قد وضعتني.

صرخت أمها:

- عودي لأمك يا سيلينا.

نظرت سيلينا باتجاههم، ثم نظرت باتجاه أمير الذي بدا أكثر جدية وحزم، وقطع والدها أفكارها قبل أن تتحدث، حيث اقترب من أمير وأمسكه من ياقته:

- أيها الوغد! من أنت كي تقول لي هذا؟!

ولكمه على وجهه بقوة لكمة أطاحت بأمير أرضًا، هرول الرجلان باتجاه أمير، ساعده أحدهما على النهوض، وأبرح الآخر والد سيلينا ضربًا، ونهض أمير وقد سالت الدماء من وجهه إثر ضربته الشديدة، وكذلك والدها، ونهض أمير يمشي في اتجاه والدها وصرخ:

- من أنت حتى تمد يدك علي؟ أنت الوغد الحقيقي هنا يا عديم الرجولة، واجهني هيا.

ولكمه في بطنه، فتأوه أبو سيلينا ألمًا إثر ضربته، وقاطع كل ذلك صراخ سيلينا:

- يكفيي! أمير أرجوك! يكفيي يا أمير! أبي اتركه.

تراجع أمير إثر صراخ سيلينا خطوتين للخلف، ثم رفع يده وقال:

- لم أشأ أن ألوث يدي بضربك، ولكنك بدأت بذلك.

هرولت أم سيلينا نحو زوجها لتعينه على القيام، ثم نهض أبو سيلينا وقال في صوت أخذه الضعف:

- لن أتركها لك رغم كل شيء، ادخلي يا سيلينا للداخل.

أومأت والدتها برأسها وقالت:

- هيا يا سيلينا، أتعبت والدك بما في الكفاية اليوم.

صرخت سيلينا فجأة وكأنها كانت في عالم آخر:

- تذكرت كل شيء، تذكرت تلك الغرفة، تذكرت كل ما حدث هنا.

التفت لها أمير باهتمام، وقبل أن تكمل أخرجت من حقيبتها بعضًا من المناديل ثم مدتها له:

- تفضل، أوقف نزيفك.

أخذها أمير وابتسم لها وقال:

- شكرًا.

عادت سيلينا تنظر إلى أبيها متجاهلة وجود أمير:

- تذكرتك وتذكرت كل ما حدث بتلك الغرفة، يتوجب عليّ أن أخبرك أنني لو كنت أعلم ما حدث قبل دقائق من الآن لما وطأت أرض بيتك القذر، تعجبت سلفًا من صراخ أمير عليك قبل قليل وكدت أهاجمه، ولكني تأكدت من صحة كلامه الآن.

ودون سابق إنذار صفعتها أمها على وجهها بقوة وصرخت:

- كيف تتحدثين مع أبيك بهذه الطريقة؟! لا تقللي التربية يا فتاة.

اقترب أمير من والدة سيلينا وقال بصوت أشبه من الهمس:

- أستطيع تحمل كل شيء إلا أن يؤذي أحد تلك الفتاة، ولكني لن أرفع يدي كما فعلتِ، فأنت امرأة -ثم نظر لوالدها الذي انشغل بألمه عن كل من هم حوله- فأنا رجل في كل الأحوال؛ لا أرفع يدي على امرأة، أليس كذلك يا عم؟

وضعت سيلينا يدها على خدها الذي تغير لونه للأحمر، وبقيت آثار الصفعة واضحة، ولم تنبس ببنت شفة.

وفجأة ابتعد أحد الرجلين وأجرى مكالمة هاتفية ثم عاد، وفي هذه الأثناء مد أمير يده لسيلينا:

- هيا يا سيلينا، أرجوك عودي معي، دعينا ننتهي من هذا.

وأم سيلينا من الجانب الآخر:

- لا تقللي التربية مرة أخرى، لا بأس... سامحتك على هذا، ادخلي للداخل لنتفاهم، هل كنت فاقدة للذاكرة؟

وسيلينا تجول ببصرها حول أمير وأمها، وسادت لحظات من الترقب والصمت، وعاد الرجل يحمل الهاتف:

- أمير، هناك شخص على الهاتف يريدك.

ذهب أمير خلفه وأخذ الهاتف، جاءه صوت عم سيلينا:

- أمير، اترك سيلينا وعد، كان هذا اتفاقنا منذ البداية، ليس من طبعك إخلاف الوعود يا بني، ما الذي حدث؟
- أظن أن سمير أخبرك بكل شيء.
- نعم أخبرني، عليك العودة حالًا واتركها معهم.
- لا أستطيع تركها هنا يا عمي، ماذا لو أذاها؟
- يجب أن تواجه قدرها بنفسها يا أمير، لا شأن لك بذلك.
- أنا كنت السبب يا عمي، أرجوك سآخذها ونتزوج ونعود إليك.
- عليك أن تحصل على موافقة هؤلاء كي تتزوجها.
- تعلم أن هذا لن يحدث يا عمي، أنت تعلم هذا جيدًا، لن يوافقوا بي.
- سيوافقون بك، لدي خطة أخرى لهذا أيضًا.

اتسعت عينا أمير من الدهشة:

- وما هي خطتك؟
- عد الآن لأخبرك بها.
- يا عمي لا أستطيع التفريط بها.
- غدًا سيتحسن كل شيء، عليها مواجهتهم بنفسها، وجودك هناك أفسد كل شيء.
- كان كل شيء فاسدًا قبل وجودي، كان سيضربها، كنت سأرى نفس المشهد يتكرر من جديد، وهل سأقف هذه المرة أيضًا؟
- أمير، أنا أخبرك عن الأفضل بالنسبة لسيلينا، عليك أن تتركها، كان لابد من حدوث هذا، لا يمكنك الزواج منها بإذني أنا فقط وإلا ستخالف القانون، وستضعها أيضًا في خطر أكبر من هذا الخطر، عليك أن تدرك خطورة الأمر،

عد أدراجك يا أمير وتعالَ إلى هنا، سأنتظرك، لن أتركها صدقني، غدًا صباحًا سننفذ الخطة وستعيدها لا تقلق.

- يا عمي أرجوك.
- هيا يا أمير، دعها ولا تتأخر.

ثم أغلق الهاتف، دمعت عينا أمير من فرط الألم الذي ألمّ به في قلبه وفي دمائه التي تسيل من وجهه، ونظر باتجاه الهاتف ووقف موَلّيًا ظهره لسيلينا بضع دقائق؛ التي صوبت عيناها نحوه بقلق بعد أن أنهت حديثها مع والدتها، التفت أمير تجاه سيلينا ثم اقترب منها، ونظر لأمها التي كانت تقف بجانبها:

- هل تسمحين لي بالتحدث معها على انفراد؟

أومأت أمها برأسها موافقة ثم ابتعدت عنهما، نظر أمير لها وسالت دموعه على وجنتيه بدون إرادة منه، دمعت عينا سيلينا ثم مدت يدها ومسحت دموعه، قال أمير:

- سيلينا، تعلمين أن الأمر سيكون أصعب مما نظن أنا وأنت، هل تبقي معي للنهاية؟
- سأبقى معك يا أمير.
- تحدث معي عمك، أنا مجبر على الرحيل يا سيلينا.
- كنت سأخبرك بذلك مسبقًا، سأبقى هنا، تذكرت بعض الأشياء، وأظن ينقصني أيضًا الكثير، سأدخل للداخل وأتذكرها.

بكى أمير بحرقة:

- لا أستطيع التفريط بك، ماذا لو تسببوا في أذيتك؟
- لن يفعلوا يا أمير طالما أنت معي.
- أتعديني أن تخبريني إذا أصابك أي مكروه؟
- أعدك.
- لا تخافي يا سيلينا، أنا هنا من أجلك دائمًا.
- اذهب إلى عمى وعد غدًا صباحًا.

نظر أمير بعزم:

- سأتزوجك غدًا صباحًا

بهت وجه سيلينا:

- ما الذي تقوله.
- سترين ذلك بنفسك، لم يعد لي سوى موافقتهم على ذلك.
- تعلم أنني لم أنتهِ من دراستي بعد.

ابتسم أمير وقال:

- هل توترتِ الآن؟

احمرّ وجه سيلينا خجلًا، وفهمت ما يرمي إليه، ثم تجنبت النظر إلى عينيه، فابتسم أمير وقال:

- لا تخجلي هكذا.

ابتسمت سيلينا وتحاشت النظر إلى عينيه من جديد، فتنهد أمير بارتياح:

- أتمنى ألا تختفي هذه الابتسامة من على وجهك أبدًا.
- هيا، عد إلى عمي، سأكون بخير.

ضحك أمير ثم تغيرت نبرته مؤكدًا:

- لا تترددي في الاتصال إن حدث أي شيء أرجوكِ.
- سأفعل يا أمير، لا تقلق... هيا.

ابتعد أمير عنها، ولم تفارق عيناه النظر لها حتى ركب السيارة، وأشارت له سيلينا بأن يتحرك، وذهب أمير...

نظرت سيلينا ناحية أبيها الجالس أمام تلك الغرفة يتأوه من الألم، وأمها التي تعينه على النهوض كي يدخلوا للمنزل، والتفتت ببصرها تبحث عن جوليا، ولكنها لم ترَها، وذهب الرجال خلف أمير بالتأكيد.

*****

اجتمعت أميرة وأسيل وأم حسن في منزل سيلينا بأمر من أميرة لهم؛ احتفالًا بعودة سيلينا لأهلها كما قالت لها، ثم قالت أميرة بنفاذ صبر واضح:

- اشتقت لها، ظننت أنها ستتحدث لنا فور وصولها إلى هناك، يبدو أنها اشتاقت لهم كثيرًا ونسيت أمرنا.
- يبدو أنها تبيت في أحضان أمها الليلة ونسيت أصدقائها.
- أرجو أن يجمعني الله بابني حسن.
- نعم صحيح... على ذكر حسن، هناك رسالة منه إليك.

صرخت أم حسن فرِحة:

- إنها الرسالة الأولى التي يكتبها لي ابني بعد عشرات الرسائل التي حاولت إيصالها له، أريني.
- حسنًا، مبارك لك.

ثم مدت يدها ممسكة بالرسالة لتقدمها لها:

- هيا اقرئيها.

كانت أم حسن قد عملت من أجل كسب المال منذ مغادرة سيلينا للمنزل، ولم تصرف من المال شيئًا أكثر من متطلبات العيش البسيطة، كانت تجمع المال لهدف وحيد وهو أن تشتري منزلًا تعيش فيه مع ابنها بسلام.

لم يهتم أبو حسن كثيرًا بالبحث عنها؛ فقد ألف شخصيتها الضعيفة وكان واثقًا بأنها ستعود إليه من جديد، فهي لا تقوى على تحمل الحياة وحدها، كما أنه يعلم أنها لن يستقبلها أحد من أهلها كي تعيش معه، وذهب ليسأل عن ابنه، وعلم ما جرى ولم يلقِ بالًا أيضًا، لذلك فقد لقي جزاءه حسبما يقول، وانشغل بأعماله، ولكن أصبح غياب أم حسن عنه كل تلك المدة يقلقه...

ذهبت أم حسن إلى زاوية الغرفة حتى تقرأها، فتحت الورقة بلهفة شديدة:

"أمي الحبيبة...

مر الكثير من الوقت أحاول أن أكتب لك مقدار خيبة أملي بسبب كل ما حدث بيننا، حاولت كثيرًا أن أعبر عن مشاعري ولكني لم أستطع، كانت رسائلك الترياق لعلاجي يا أمي، لم تشفني الجلسات العلاجية بقدر شفاء تلك الكلمات، أحبك يا أمي.

أيعقل ألا أقبل اعتذارك؟ اشتقت لرؤيتك الآن أكثر من أي وقت مضى، لرؤية أمي الجديدة، كما أنه لا داعي لأن تجهدي نفسك في العمل، سأخرج من هنا بالتأكيد، سأخرج وسترين ابنك الجديد أيضًا، سأعمل من أجلك يا أمي، ومن أجل أن نجعل حلمنا بالتحرر حقيقة نعيشها.

اشكري سيلينا كثيرًا يا أمي، كانت فتاة لطيفة، لم تستحق مني كل هذا، أعلم أنني سيء يا أمي، لا أحد يحبني في هذا العالم، كرهني الجميع، وحسبي أنك هنا تخبريني بذلك، لم يسأل شخص واحد عني في هذا المعزل الكئيب، وقد استحالت ابتسامات الطبيب لي إلى ابتسامات متكلفة تفرضها عليه طبيعة عمله.
يسأم الناس يا أمي من بعضهم البعض، أتفهم شعوره فأنا لست سوى مجرد مريض مقعد، لا أفيده بشيء سوى ألم الرأس، ربما كنت بحاجة للحب فقط يا أمي، لا أدري كيف أستطيع التعبير عن مكنون ما في صدري، ولكن يبدو أنه ليس كل شيء نشعر به يمكننا البوح به.
ساعدني الطبيب في كتابة هذه الرسالة لما لقيته من صعوبات، احتجت لواسطة بيننا هذه المرة، وأنا أرجو ألا تتكرر، ربما انتهيت من الكتابة الآن، ولكن لا تنتهي الكلمات أبدًا يا أمي؛ لأن المشاعر والأفكار مورد متجدد وفيض هائل يكتسح هذا القلب الصغير، وداعًا إلى رسالة جديدة ولقاء قريب، كوني بخير من أجلي يا أمي".
دمعت عينا أم حسن وهي تبتسم وتحتضن الورقة، ابتسمت أميرة لها وقالت:

- أدام الله دموع الفرح يا أم حسن، سررت من أجلك كثيرًا.

ثم احتضنتها وهي تربت على كتفها وتقول:

- رضي الله عنك، لقد كنت أمًا لنا أيضًا، إنه محظوظ بك.

ضحكت أم حسن وقالت:

- ما دفعك لقول هذا؟ لم يكن حسن محظوظًا أبدًا بي يا ابنتي، أرجو أن أخلق له واقعًا جديدًا يدفعه ليقول مثل ما قلتِ.
- ستفعلين بالتأكيد.

وربتت أميرة على كتفها، ثم قالت مغيرة الموضوع:

- وبم أن سيلينا قد انشغلت عنا؛ لماذا لا نفعل شيئًا ما معًا؟

تنهدت أسيل في ملل:

- مثل ماذا؟

- لا أعلم بالتحديد.

ابتسمت أم حسن وقالت:

- ما رأيك بابني حسن يا أسيل؟

توردت وجنتي أسيل وفهمت ما ترمي إليه أم حسن، تحت نظرات أميرة المندهشة.

- لا أعلم، لم أره من قبل.

- أظن أنه سيكون محظوظًا عندما يتزوج فتاة مثلك.

أطلقت أميرة زغرودة مفاجئة وقالت:

- سيتزوج أحد منا إذًا -وأمسكت بيد أسيل وهي تتمايل وترقص- مبارك يا عرووس.

نهرتها أسيل:

- ابتعدي يا أميرة، لا مزاج لي لمزاحك الآن.

نظرت أميرة لأم حسن وقالت:

- ولكن لا يجوز ذلك يا عمتي، عليك الذهاب إلى المنزل لطلب يد الفتاة.

- بالتأكيد عندما يخرج حسن من هناك لن أضيع الوقت، فقد رضيت أسيل له زوجة، بارك الله فيك يا ابنتي.

احمرت وجنتي أسيل وهي تتذكر، لم تره سوى مرة واحدة ولكنها لم ترتح لتصرفاته أبدًا، خاصة مع سيلينا وما فعله معها، ثم حاولت طرد تلك الافكار من رأسها ساخرة من نفسها، هل تفكرين الآن في أن حسن سيتزوجك؟

نظرت لها أم حسن بحب واضح ثم قالت:

- ولكني أود الحصول على موافقتك أولًا يا أسيل.

تدخلت أميرة قائلة:

- لا يجوز ذلك، فهي لم تره من قبل.

- أوافق أميرة الرأي.

- سيخرج ابني قريبًا، تغير كثيرًا، لا داعي للخوف منه، إنه طيب القلب.

قالت أميرة ساخرة:

- نعم، نعم طيب القلب.

نهرت أسيل أميرة بسبب سخريتها قائلة:

- أميرة! جميعنا معرضين لما حدث لحسن، كان كل ذلك تحت ضغط نفسي قاسٍ عانى منه سنوات طوال، هل نلومه الآن وحده فقط؟ جميعنا معرضين لإساءة السلوك، ثم إنه يتغير، لا أرى أن حسن هو المخطئ في كل ما حدث كلية.
- وعلى من نلقي اللوم إذًا في بقاء صديقتي البريئة شهرين في السجن؟
- على والده.

طأطأت أم حسن رأسها في حزن تتذكر ما حدث، فاستحسنت أميرة أن تغير مجرى الحديث، ثم حاولت الاتصال بسيلينا من جديد، والجميع يترقب وينظر للهاتف بلهفة، ولكن لا فائدة، لا تجيب.

*****

نهض والدها ببعض من التعب البادي عليه، وأشار بيده قائلًا:

- ادخلي للداخل يا سيلينا، أحسنتِ اختيار القرار المناسب في مجيئك إلى هنا، فُضحنا هنا بما فيه الكفاية -ثم نظر لأعلى- انظري... خرج الجيران يشاهدوننا من نوافذهم من شدة الصوت والجلبة التي أحدثناها.

نظرت سيلينا فوجدت بالفعل الكثير من الناس يشاهدونهم، فدخلت للداخل في صمت.

نظرت سيلينا لأثاث المنزل القديم وانقبض قلبها وشل تفكيرها من جديد، قالت أمها:

- هيا اجلسي.

ثم جلست سيلينا على الأريكة وجلست أمها، واختفت جوليا، نظرت سيلينا حولها، كان أبوها يقف خارجًا ينتظر دخولهما، ثم دخل أبوها وأغلق الباب خلفه بقوة محدثًا صوتًا ارتعد جسد سيلينا على إثره.

نظر والدها لها وقال:

- يا وجه الشؤم والمصائب، لو كنت غير موجودة لما أصابني ما أصابني الآن.

لم تجبه سيلينا، وأخذت تنظر إلى كل ما في المنزل بتركيز على أدق تفاصيله، تذكرت أيام مراهقتها كانت حياتها أسوأ حالًا من الآن بكثير، كانت تبكي دائمًا، تبكي حياتها وطفولتها الضائعة بل كل أيامها، لم تكن فتاة ذات حظ أبدًا، كانت تعيش فيما يشبه السجن، ورغم ذلك كانت غارقة في دراستها دائمًا.
ولطالما فُطر فؤادها لحالها مع أختها؛ التي كانت تنتظر خطأها بفارغ الصبر كي تنقله إلى والدها؛ الذي لم يكن رحيمًا في التعامل مع أقل أخطاءها.
لم تتلق التربية ولا الاحترام في هذا البيت، كل ما تلقته هو الإهانة والألم فقط، ما كان يخفف عنها هو حبها لجارها أمير، كان أمير يسكن جوارهم آنذاك، كانت تحبه كثيرًا ولكن لم تستطع أن تبوح له بذلك، كما أنها لا تراه كثيرًا، حتى جاء ذلك اليوم لم يكن أبوها في المنزل.
نزلت لتشتري بعض الأغراض ففوجئت بجلوس أمير أمام بابهم، فمشت على استحياء، كانت تستعيد نبض حياتها عندما تراه، نظرت له وابتسمت عنوة ثم أكملت طريقها، إلا أنه بحركة مفاجئة قاطع طريقها وقال: أود أن أتحدث معك عن شيء.

توقفت سيلينا لكي تستمع له، وعينها مصوبة تجاه الباب، تخاف دخول أبيها في أية لحظة، وكان أمير يقف متوترًا يفرك يديه ويرتب كلماته في رأسه، كان أمير حينها حديث السن، وكانت تلك الفتاة الأولى التي شعر تجاهها بشيء مختلف، وأصبحت فتاته الأخيرة أيضًا.
وأخيرًا بدأ يسترسل في ترتيب كلماته كي يبدي لها ما في صدره من مشاعر رآها دومًا تستحق أن تقال، ومقدار ما استطاعت أن تغيره في حياته برؤيته لها فقط، ولكن حدث ما كانت تخشاه سيلينا، دخل أبوها من الباب، ما إن وجدها تقف معه حتى صفعها على وجهها.

تذكر تلك الملامح التي كست وجه أمير، بهت وجهه وارتعدت أواصره، وعندما جرها أبوها ناحية تلك الغرفة اللعينة أخذ أمير يصرخ ويقول:

- اتركها، أنا السبب، أنا من أوقفتها لتتحدث معي.

لم يستمع له، وأدخلها الغرفة وأغلق الباب مهددًا لها بأنها ستنال جراء تمردها ذلك عقابًا أليمًا لم تشهده طوال حياتها، وأغلق الباب بالمفتاح واحتفظ به، مكثت سيلينا تقاوم وتصرخ وتضرب الباب بكل ما أوتيت من قوة، ولم يستجب أحد لها.

وبعد مرور ساعة نزل والدها وقد مسك بيده عصا خشبية ملأها مسامير حادة، وأبرح سيلينا ضربًا ثم رحل عن الغرفة بعد أن أغلقها من جديد.

علامات بارزة تركها على جسدها إثر هذا الضرب الوحشي، وسالت دماؤها، شعرت بالهبوط والاستسلام له بعد أن كانت تحاول مقاومة الألم وهجماته العشوائية، حتى سقطت مغشيًا عليها، وبعد مرور وقتٍ لا تعرفه استفاقت وقد وجدت القليل من الطعام موضوع في زاوية الغرفة.

استوحشت سيلينا المكان وظلت تبكي بحرقة وهي خائفة، ونوبات الألم تقضي عليها، وهي تتأوه وتهمس بين شفتيها باسم أمير لعله يسمعها ويأتي لينقذها من هنا، ولكن دون جدوى.

وفي اليوم التالي دخل أبوها في الوقت ذاته وانهال عليها ضربًا من جديد، وأمسك برأسها وضربه عدة مرات في الجدار صارخًا:

- جلبتِ لي العار، وأرجو موتك قبل أي شيء، ماذا لو رآك أحد الجيران تقفين معه؟ ألم تري كيف ينظر لك ذلك المعتوه؟ ولكنه تلقى جزاءه كما لقيتيه أيتها العاهرة.

صرخت سيلينا أثناء ذلك:

- ما الذي فعلته به؟

وأخذت تصرخ من جديد تؤكد سؤالها:

- أمير ماذا فعلت به؟

لم يجبها والدها، واستمر في ضربها حتى سالت دماؤها وسقطت مغشيًا عليها مرة أخرى.

واستفاقت في اليوم التالي وهي تسمع خطوات غير خطوات أبيها؛ التي ألفتها في الأيام المتتالية السابقة التي يأتي فيها ليضربها، كانت تبكي نهارها وليلها كله، لم تكن تعرف الفرق بينهما في الحقيقة.

كانت الغرفة موحشة وكئيبة دومًا، لا يوجد بها نافذة، وأحيانًا يتسلل شعاع من الضوء الذي كان مطفأً طوال النهار؛ لاعتماد سكان المنزل على الإنارة الشمسية التي لم تكن تصل لها أبدًا.

كانت ترى بعض الحشرات المروعة، ولكنها لم تعد تخافها الآن كسابق عهدها معهم، الآلام تصنع منا أشخاصًا مختلفين، أكثر قوة وصلابة، الأكثر إيلامًا لنا بالأمس يصبح شيئًا عاديًا مقارنة بالألم الذي يغطينا اليوم، نصبح أكثر تحملًا لأشد المصاعب.

كما أنها تعلّمنا أن المصائب التي كنا نشقى منها قديمًا ونكره حياتنا بسببها لم يعد لها تأثير جلي علينا كما كانت، ربما سحر مرور الوقت هو السبب، ولكنها كانت تملك الأمل في أن تحدث هذه المعجزة أن تخرج من هنا فقط.

وعندما فُتح باب الغرفة كانت سيلينا تجلس القرفصاء وسط دماءها التي سالت في كل مكان في الغرفة، ودموعها التي لم تتوقف، وارتجاف جسدها النحيل، وتأوهها من الألم الذي تحاول كبته وترجو أن يتوقف.

حملها بين ذراعيه، لم تكن سيلينا تعي شيئًا من كل ما يحدث، وأخذت تحاول تذكر ما حدث بعد ذلك، ولكن باءت كل محاولاتها بالفشل، لا تعلم هل ذكرى المشفى الذي تذكرته خلال رحلتها مع أميرة حدثت بعد ذلك أم لا، ولكن السؤال الذي أخذ يتردد في رأس سيلينا ملحًا عليها في العثور على إجابة تشفي غليلها، ما الذي حدث لأمير وقتها؟ ما هو الجزاء الذي قصده والدها؟

وكل ذلك رأته سيلينا ما إن وطأت قدماها باب المنزل ورأت تفاصيله، ولكن خانتها الذاكرة من جديد، لم تكمل بقية الأحداث بعد...

*****

توقف أمير بالسيارة للحظات مراقبًا ما سيحدث، وعندما دخلت سيلينا للمنزل ذهب أمير وتوقف بسيارته أمام منزلها، وحاول الاستماع لما يحدث بالداخل، كان شديد الخوف عليها، ولكن كان المكان هادئًا مما بعث في نفسه الكآبة، فأخذ ينظر لتلك الغرفة المظلمة، وفتح بابها بهدوء، وما إن فتح بابها حتى خر على الأرض باكيًا وهو يردد:

- سيلينا عُذبَت هنا في هذا المكان، أين كنتَ؟ ألم تستطع حمايتها؟

ومر بعض الوقت وهو ينتحب، حتى جاءه اتصال من عم سيلينا فلم يجب، وقرر العودة أدراجه مقدرًا ما سيلقاه من عمها بسبب تأخره، وعندما عاد أمير ذهب إلى عمها مباشرة، طرق الباب فأمره بالجلوس، وبادره:

- ما الذي فعلته؟ هل هذا ما أمرتك به؟

نظر أمير لأسفل وتنهد بحزن، وبدا عليه خشية إخباره، لم يجد ما يبرر به ما حدث، وبالأخص ضربه لوالدها، فهم عم سيلينا ذلك وقال:

- حسنا حدث ما حدث، عليك الاستماع إليّ الآن.
- نعم وعدتني أنك خططت لكل شيء.
- والد سيلينا يظن كل تلك السنوات ظنًا خاطئًا.
- ظن خاطئ عن ماذا؟
- يظن أن سيلينا هربت معك حينها، لا يعلم أنني المسؤول عن كل ما حدث وما يحدث الآن، وإلا لكانت تغيرت علاقتنا، ولم أشأ أن أغير ظنه من أجل تلك اللحظة.
- وكيف ذلك؟
- عليه أن يعرف الحقيقة بأن تحضره لي إلى هنا غدًا.
- وهل هذا سيجعله يقتنع بزواجي منها؟
- لا شأن لك بالباقي، كان يأتي لزيارتي من حين إلى آخر، إذًا سيعلم قبل وصوله إلى هذه الغرفة أنه قادم إلي.
- حسنًا وبعد ذلك؟
- هذه مسؤوليتي.

تنهد أمير في ضيق ونظر للأسفل مفكرًا.

- اذهب للنوم، غدًا أمامك يوم طويل، استيقظ صباحًا واذهب إليه وأحضره إلى هنا.
- لا أستطيع النوم يا عمي، أفكر فيما سيفعله والدها بها، أفكر كيف هي الآن، إنها فرصته لتلقينها درسًا، لا أستطيع تركها بمفردها هناك.
- لن يأكلها، هيا تحرك، كما أن سيلينا فتاة قوية كما عهدتها، تستطيع حماية نفسها، لا تقلق عليها.
- أعلم ذلك -ثم ابتسم ونهض- ألقاك غدًا.
- وستحضره معك بالتأكيد.

ابتسم أمير وقال:

- سأحضره يا عمي.

خرج أمير من الغرفة ومشى حتى وصل للفندق، وعندما وقف أمام غرفته المجاورة لغرفة سيلينا رق قلبه شوقًا لها، فآثر أن يدخل لغرفتها لعل قلبه يهدأ بوجوده في المكان الذي جلست فيه.
دخل أمير غرفتها فاستقبلته رائحتها، جلس على فراشها، كانت حاجياتها مبعثرة، لم تجد الوقت الكافي لترتيبها، نظر إلى حقيبة السفر الملقاة على الأرض وقد أُلقي عليها الكثير من أغراضها التي نست أن تعيدها مكانها.
أمسك أمير بوسادتها واحتضنها، ثم سرح بعيدًا وهو ينظر إلى أثاث الغرفة المبعثر، حتى لفت نظره مجموعة من الرسائل قد وُضعت في زاوية الحقيبة، نهض أمير من مكانه ليتفحصها، فوجد الظرف كُتب عليه إلى ذلك المجهول...
أمسك بالظرف الآخر فصدم عندما رأى "إلى أمير".
رفع أمير حاجبيه بدهشة وفضول، ثم ابتسم بخبث وقال:

- إذًا هي تخصني، لا يُعد قراءتها تطفلًا.

فجمع أظرف الرسائل ووضعها أمامه على الفراش، وأخذ ينظر لها مفكرًا من أين أبدأ، حتى وقعت يده على إحداها فأخذها، وأخذ يقرأها في سعادة، ومرت الساعات وهو يقرأ كلمات سيلينا، وكان يتخيلها وكأنه يعيش معها في كل مواقفها الصعبة التي حدثته عنها في

رسائلها، وعلم الكثير عما حدث معها في الماضي، وخصوصًا صديقتها أميرة، بدأت غيرته تشتعل منها، يبدو أن سيلينا تحبها كثيرًا، حتى نام على فراشها هادئ القلب مستأنس.

*****

بعد أن شردت طويلًا وهي تتذكر تلك المشاهد التي تشاهدها جلية أمامها، جلست أمها قبالتها وقالت:

- لماذا غادرتِ؟ كيف تجرئين على المغادرة دون إذن أبيك؟ وأين كنت كل تلك السنوات التي مضت؟

نظرت سيلينا لها وكأن السؤال لا يعنيها وقالت:

- أين جوليا؟

نظرت أمها حولها باهتمام واضح وقالت:

- لابد أنها في غرفتها، إنها تنام في هذا الوقت.

قال أبوها:

- لولا علّتي لأكملتِ باقي حياتك في نفس الغرفة التي هربتِ منها أيتها الحقيرة.

رفعت سيلينا حاجبيها وقالت في ثقة:

- إنه لمن الغباء أن تضعني في الغرفة التي هربت منها؛ لأنني سأهرب منها مرة أخرى وبطرق أكثر احترافية، عليك وضعي في غرفة لا أهرب منها.

صرخ والدها:

- وهل تهددني؟

ابتسمت سيلينا باستفزاز وقالت:

- لا أهددك يا والدي العزيز.

قالت امها:

- ألن تخبرينا أين كنت؟

- يؤسفني أن أبلغك يا أمي أنني أنا أيضًا وددت معرفة ذلك وبشدة، ولكن لا أذكر حقًا.

صرخ والدها غاضبًا:

- هل تمزحين معنا؟ هل الوقت يستدعي مزاحك؟ هل هذا ما علّمه أمير لك؟ هل نمتِ معه أيتها العاهرة؟

اقشعر جسد سيلينا من ألفاظه واتهاماته؛ وخصوصًا من إهانته لأمير، فنهضت وقالت:

- عليّ أن أعود لغرفتي، سأخلد للنوم.

صرخت أمها:

- هذا ليس أسلوبًا لائقًا للحديث مع والديك، كوني مؤدبة كما تعلمتِ أن تكوني دائمًا هنا.
- حسنًا أنا لم أتحدث أصلًا، استأذنت للنوم وهذا حقي.

نهض والدها بانفعال من مكانه ناويًا ضربها، ولكن أوقفته أمها وقالت:

- اتركها، ستؤذي نفسك، لتذهب للجحيم، المهم هو أنت يا عزيزي.

رفعت سيلينا حاجبيها، وفجأة تذكرت أم حسن، وابتسمت وهي تتذكر حديثها عن ابنها وكيف كانت تحبه، وعقلها بشكل لا واعي أدرج مقارنة بينهما، ونظرت لأمها بازدراء ولسان حالها يقول: أنت عار على الأمهات جميعًا.

ودخلت للغرفة، وكانت تتوقع أن ترى جوليا ولكن لم تجدها، حاولت التذكر... لا توجد غرفة أخرى هنا، تذكر أن بيتها صغير ومتواضع لا يحتوي إلا على غرفتين، كادت سيلينا تصرخ وتخبر والديها بالأمر، قلقت كثيرًا وهي تفترض أسوأ الاحتمالات قد حدثت لها، حتى رأت ورقة وُضعت على سريرها ففتحتها بسرعة...

"أعلم أنك ستقرئين هذه الورقة، سيلينا أشعر بالخجل منك، لا أستطيع مواجهتك، كنت أكثر شجاعة مني دائمًا، لم أتوقع أن يأتي أحد ليقهر أبي كما فعل أمير، تهانيَّ الحارة لك، تحررتِ أخيرا من سجن أبي، أنا من تسببتُ لك في كل تلك المشاكل، سأعترف لك بما حدث يومها...

رأيتك وأنت تقفين مع أمير؛ فانتهزت الفرصة واتصلت على أبي فورًا لأخبره، فعاد أبي ليعاقبك على ذلك، وحدث ما حدث.

أنا آسفة لأنني لم أدافع عنك، أنا السبب في كل ما حدث، وأنا السبب فيما حدث لأمير أيضًا.

لا أدري أين سأذهب، ولكني سأسير في الشوارع حتى أجد تربة نقية أستطيع دفن أخطائي في حقك بها، فُتح باب منزلنا لأول مرة، أو سأستخدم المصطلح الأدق والأكثر صدقًا: فتحتِ باب السجن تحررت المسجونة الوحيدة هنا.

لم أستطع أن أخبرك في الجامعة بأي شيء، أشعر بالخجل من نفسي من جديد، إلى اللقاء يا سيلينا.

السرير لك، فلتنامي نومًا هنيئًا، وعيشي حرة دائمًا... تصبحين على خير.

أختك جوليا".

انفعلت سيلينا وأخذت تجول الغرفة جيئةً وذهابًا، ما الذي عليها فعله الآن؟ لا تستطيع أن تترك جوليا، إنها أختها رغم كل شيء، ثم تذكرت ما كتب بالرسالة: "أنا السبب فيما حدث لك وما حدث لأمير"، تردد السؤال في ذهنها من جديد: ما الذي حدث لأمير يومها؟ ثم مشت وقالت:

- لا وقت الآن لهذا، أين ستكون قد ذهبت؟

ثم ارتدت ملابسها استعدادًا للخروج والبحث عنها فور نوم والديها، وانتظرت حتى يناموا، وفي خلال هذا الوقت تذكرت أيامها البائسة في هذه الغرفة، اختارت أختها التعبير الدقيق لهذا، ولكن لماذا كانت جوليا تبدو راضية دائمًا عن الحياة هنا؟ لماذا لم تصرح لسيلينا بهذا منذ زمن؟ لكانوا هربوا معًا.

نظرت سيلينا إلى فراشها في حزن، وتذكرت كلمات الحاج عمر عن الخوف: "إنه يُعيقنا عن فعل كل ما نريده في حياتنا".

كانت تخاف رغم أنها لم تظهر هذا أبدًا، كانت تبدو مقتنعة بكل ما يفعله؛ بل وتحفزه أيضًا، وتذكرت اعترافها في الرسالة وشعرت بالاشمئزاز منها، ولكن طردت تلك الأفكار وأخذت تردد:

- عليّ أن أجدها، أشعر أنها قريبة من هنا، لابد أن تكون قريبة من هنا، إنها تخاف، لا يمكنها الابتعاد؛ ألفت السجن حتى أنها أصبحت تخاف مغادرته، أنا الأعلم بها، يجب أن أعيدها إلى هنا.

ثم نام والديها، فخرجت بهدوء حتى لا يشعر بها أحد، ووضعت بعض الحاجيات على الفراش؛ والتي تعطي للرائي هيئة شخص ما نائم في الفراش، وأغلقت نور الغرفة حتى

يظنوا أنهن قد نمن، ثم خرجت تسير على أطراف أصابعها ببطء وأخذت تمشي في الشوارع القريبة ليلًا، حتى تملكها الخوف وقالت في نفسها:

- بالتأكيد هي تخاف أيضًا، أعلم أنها تخاف الليل، جوليا جبانة دائمًا منذ صغرها، عليّ إيجادها.

وأخذت سيلينا تمشي وتمشي، وتلتفت حولها في كل مكان، ويزداد الرعب في قلبها من سكون الشوارع ووحشتها، وتمر الساعات وسيلينا تبحث هنا وهناك، وترجو الله ألا تكون قد ابتعدت، ما الذي قصدته بتربة نقية؟؟ هل هذا تلميح للمكان الذي ذهبت إليه؟ ضربت سيلينا كفها برأسها:

- ولكن أين؟ إن أخبرت والديّ حتمًا سيجدونها، وستعاقب كما عوقبت، لا أرضى أن أكون سببًا في ذلك حتى وإن تسببت هي في ذلك، يا إلهي، ما الذي تقصدينه يا جوليا؟

توقف قلب سيلينا رعبًا عندما وجدت مجموعة من الرجال يرتدون ثيابًا سوداء متجمعين حول شيء ما، لم تستطع سيلينا معرفته؛ فاختبأت سريعًا خلف منزل قريب من مكانهم وأخذت تراقب ما يفعلون.

لم تسمع سيلينا صوتًا؛ كانوا يتحدثون بهمس، ولكن إحساس قلبها ينذرها بخطرهم، لم تستطع تمييز كلماتهم، ثم مكثت زمنًا حتى سمعت صوت شخص قادم يقترب منها...

*****

تأففت أميرة بنفاذ صبر وقالت:

- إذًا نعود لمنازلنا، متى يصلني خبر منها سنجتمع مرة أخرى.

استحسنت أسيل الفكرة، كما أنها تود الاستعداد للعودة لدراستها، ووافقت أم حسن، فقد غلبها النعاس؛ وذلك لأن عملها يتطلب الاستيقاظ مبكرًا، وهدأت الأصوات كلها، وخلد الجميع للنوم ما عدا عيون سيلينا الساهرة التي تبحث عن جوليا في كل مكان.

*****

كان الصوت هو صوت جوليا؛ مما أفزع سيلينا، وأخذت تتحكم في انفعالاتها، اقتربت جوليا من العصابة الواقفة وبادرتهم قائلة:

- مرحبًا بكم، أنا ليس عندي منزل أسكن فيه، مشردة في الشوارع، هل يمكنني الانضمام إليكم؟

رفع الرجل حاجبيه ونظر إلى أقرانه، وأخذ ينظر لها بتمعن وقال:

- من أنتِ؟
- كما قلت لك يا سيدي، أنا مشردة.
- وما الذي يضمن لنا أنك لست جاسوسة علينا؟
- أنني أود العمل معكم.

انتفض قلب سيلينا وازادت انفعالاتها وهي تردد:

- أيتها الحمقاء! ما الذي يجب عليّ فعله الآن؟ -وضربت كفها بوجهها- تبًا لكِ يا جوليا، تبًا لكِ، ما الذي سأفعله الآن؟ لا يمكنني تركها وحدها، إنهم خطرون، عليّ إنقاذها منهم، ما الذي عليّ فعله وأنا فتاة مع عصابة كهاته؟ آه يا جوليا آه.

قال الرجل:

- لا بأس، ستخففين حدة الرجولة في العصابة إذًا بكونك فتاة.

ثم ضحك وضحك من حوله، وابتسمت جوليا بدورها، وقلب سيلينا ينتفض وجسدها يرتعد من الخوف والألم، ثم تذكرت أمير:

- نعم أمير، سأتصل به، إنه الشخص المناسب، سوف يساعدني بالتأكيد.

اتصلت سيلينا بأمير كثيرًا ولكنه لم يجب، فقد غط في نوم عميق محضتنًا وسادتها ونسي هاتفه تمامًا، فاستجمعت سيلينا رباطة جأشها ثم خرجت أمامهم، نظر الجميع باتجاهها، واتسعت عينا جوليا، قالت سيلينا بحدة:

- جوليا، هيا تعالي معي، كُفّي عن هذا.

ابتسم الرجل باستفزاز ثم أشعل سيجارته:

- أصبحت تلك التي تدعينها بجوليا واحدة من عصابتنا، وعصابتنا لا تتلقى الأوامر من أي شخص، ولا سيّما شخص مثلك -ثم أشار بأصبعه لباقي الرجال- أليس كذلك؟

أومأوا موافقين وقالوا:

- بالطبع يا سيدي.

ارتعد جسد سيلينا خوفًا، ما الذي يجب عليها فعله؟ ثم قالت:

- هذه الفتاة أختي!

نظر الرجل ناحية جوليا وقال:

- هل هذه أختك؟

اومأت برأسها وقالت:

- نعم.
- إذا لمَ تكذبين وتقولين إنك مشردة؟

خشيت سيلينا أن يظن بأختها شيئًا وقالت:

- بالفعل كلتانا مشردتان، ولكن يجب أن نظل معًا.

قالت جوليا:

- سيدي، هل تسمح لي بالحديث معها.

عضت سيلينا شفتيها غيظًا وقالت بصوت لم يبلغه:

- وهل تطلبين الإذن منه أيتها الحمقاء وقد تعرفتي عليه لتوك؟
- حسنًا، ولكن إن اكتشفنا أنكما تتجسسان علينا بأي شكل سوف تندمان أشد الندم -ثم سحب نفسًا من سيجارته- خصوصًا أنكما فتاتان.

اقتربت جوليا من سيلينا، أمسكت سيلينا يدها وجذبتها لها بعنف وقالت:

- ما الذي تفعلينه؟ أجننت؟ هل أنت مدركة للموقف الذي وضعتنا فيه؟ جوليا أفيقي أرجوك.
- تدمرت حياتي منذ زمن ليس بقصير يا سيلينا، اذهبي وأكملي حياتك، أخبريهم أنني حفرت قبري بيدي وألقيت نفسي فيه، لا طاقة لي أن أعيش أكثر من ذلك.

- جوليا، يجب أن تعودي معي للمنزل فورًا، وغدًا سآخذك ونرحل من هذا البيت.
- سيلينا أنا لست بشجاعتك.
- بل تستطيعين فعلها.
- ليس لدي أمير ينقذني.

رفعت سيلينا حاجبها:

- جوليا، أتسخرين الآن؟! -ثم جذبت ذراعها نحوها بعنف- لن أتركك تذهبين، قضيت شطرًا من الليل في الأهوال والأوجاع خوفًا عليك، هيا تعالي.
- أنا حفرت قبري بالفعل يا سيلينا، وجئت إلى هنا وفعلت فعلتي تلك حتى أستحقر نفسي وألقي بنفسي في هذا القبر، ولينثر عليّ التراب أقذر الناس.

وأشارت بيدها للرجال؛ الذين أكملوا حديثهم ولكن عيونهم مراقبة لتحركات جوليا وسيلينا بالطبع.

ضغطت سيلينا على يد جوليا بقوة وقالت:

- أنت تهذين، بالتأكيد تهذين، لن أترك يدك هذه إلا ونحن في المنزل.
- تعلمين أنني أذيتك يا سيلينا، لماذا تساعديني؟
- لأننا أخوات يا جوليا، أنت أختي بالرغم من كل شيء، أرجوك عودي معي وتوقفي عن ذلك.
- وماذا سأقول لهم؟
- سأتولى الأمر، ولكن عليك أن تطردي تلك الافكار وألا تعودي لها من جديد، أرجوك يا جوليا، أرجوك، ممّ تخشين؟ أنا هنا، سيأتي أمير غدًا، أنا أثق بذلك، لن يتركني هنا وحدي، وأنا لن أتركك وحدك.
- لا أستطيع أن أذهب مع أمير إلى أي مكان.
- لماذا؟

وقفت جوليا منكسة الرأس محزونة ولم تجبها، جذبتها سيلينا من ذراعها من جديد وقالت:

- جوليا، لا عليك من هذا، الآن لا تنطقي بكلمة واستمعي لي وحسب.

ثم تقدمت ناحيتهم ونظرت لهم قائلة:

- سرّنا أن نلتقي بكم، نحن لسنا جواسيسًا أو شيئًا من هذا القبيل، سوف آخذ أختي وآوي إلى منزلي، أشكركم.

أشعل الرجل سيجارة أخرى وقال:

- وما الذي يضمن لي ذلك؟
- حسنًا لا أعلم حقًا ما الذي تريده؟

همهم الرجل مفكرًا في مزايا جوليا التي أعجبته، ثم قال:

- اتركي أختك معنا واذهبي من حيث أتيت.
- ولكنها أختي ويجب علينا المغادرة حالًا، لن أتركها بلا مأوى.

خرج رجل من خلفه وقال:

- إما أن تتركيها أو تُقتلوا هنا.

ارتعد جسد سيلينا وصوت بداخلها يصرخ: لن أتركها مهما حدث.

ثم همست في أذن جوليا:

- هل تجيدين الركض بسرعة والهرب؟
- نعم إلى حدٍ ما، لماذا تسألين عن هذا الآن؟
- إذن... -ثم صرخت- هيا.

وركضت وهي ممسكة بيد جوليا التي لم تجد لها حلًا آخر سوى مواكبة خطواتها السريعة والركض خلفها، صرخ الرجل وقال للرجال حوله:

- أمسكوهم.

ركضت سيلينا ممسكة بيد جوليا بقوة، التي ركضت خلفها باستسلام، وبالطبع لم تستطع التحرر من قبضة سيلينا، وخلفها الرجال يطلقون النار، وسيلينا تجنّب جوليا تلقّي تلك الطلقات، حتى قفزت سيلينا بسرعة إلى داخل غابة مظلمة، وهكذا فقد الرجال أثرهم، تنهدت سيلينا بتعب ثم وقفت جوليا أمامها وقالت:

- لماذا تفعلين كل هذا؟

- جوليا أرجوك لا وقت للكلام، علينا العودة للمنزل قبل أن يلحظ أبي غيابنا، ستصبح كارثة.

ثم سمعوا صوت الرجال يقترب منهم:

- ابحثوا عنهم في كل شبر من هذه الغابة، علينا حماية عصابتنا، هيااا.

أمسكت سيلينا بيدها من جديد وقالت:

- التزمي الصمت الآن، سنسلك تلك الطريق كي نخرج من هنا... ولكن هناك احتمال أن يمسكوا بنا حينها، أمسكي بيدي لندخل للغابة من جديد، وسنختبئ خلف الشجر حتى يذهبوا، ولن يلاحظونا لأن المكان مظلم وسيصعب تمييزنا.

نظرت جوليا بخوف وقالت في تردد:

- ولكن...
- لا مجال لفعل شيء آخر الآن، هيااا.

ثم أمسكت بيدها وركضت سريعًا في تلك الطريق الوعرة؛ التي تنبأت سيلينا أنها ستكون نهاية الغابة التي أشارت لها مسبقًا، ولحسن الحظ لم يقابلهم أحد، ولكن الرجال شعروا بحركتهم، وصرخ أحدهم:

- من هنا، إنهم هنا.

وخرجوا من الغابة في وقت وجيز، ثم نظرت سيلينا لجوليا وقالت:

- من هذه الطريق يقع منزلنا، أرجو أنني لم أخطئ في ذلك.
- ماذا لو أخطأتِ؟
- سنبحث عنه يا جوليا، أرجوك هيا، كثرت أسئلتك التي لا طائل من خلفها.

كانت ملامح الدهشة والبرود تكسو ملامح جوليا، تركض وحسب دون وعي لما يحدث حولها، خالية من المشاعر تقريبًا، أما سيلينا فقد تجمعت الدماء في وجهها خوفًا، تتذكر أمير وهي تخشى عليه، لماذا لا يرد عليها؟ ثم تجيب نفسها لتطمئن بأنه نائم وحسب، وواصلوا الركض حتى وصلوا لشارع منزلهم هتفت سيلينا بفرح:

- ها قد وصلنا.

ابتسمت جوليا ببرود وقالت:

- أنقذتني.
- كنا في خطر حقيقي، وأنقذنا بعضنا، هيا أرجوك لنعد بهدوء.
- وهل أحضرتِ المفتاح؟

ضربت سيلينا رأسها بكفها:

- نسيت ذلك، ولكني تركت الباب مفتوحًا، ظننت أنني سأجدك سريعًا، أرجو أنهم لم يلحظوا ذلك.

ثم ذهبا ناحية البيت، وظن الرجال أنهم ما زالوا في الغابة وأخذوا يستمرون في البحث فيها.

ثم قالت سيلينا:

- علينا أن نختفي من الأنظار بعد الآن، أظن أنك تدركين الحماقة التي ارتكبتها.

صمتت جوليا ولم تعلق.

وصلا للمنزل، وتنهدت سيلينا في ارتياح عندما وجدت الباب مفتوحًا كما تركته، دخلت الفتاتان وهما يسيران ببطء وقلوبهم وجلة، وأغلقت سيلينا الباب خلفهما، كان البيت هادئًا؛ مما بعث الطمأنينة والراحة بداخلهما.

دخلت جوليا وجلست على الفراش، ودخلت خلفها سيلينا وجلست على السرير المقابل لها، كان وجهها خاليًا من المشاعر، ثم قالت سيلينا:

- دليني على مكان دورة المياه.

نظرت جوليا لها ببرود ونهضت لتدلها حتى وصلت، ولكنها خشيت أن ترتكب جوليا أي فعل متهور أثناء ابتعادها عنها؛ فعادت أدراجها ثم قالت:

- جوليا، أرجوك لا ترتكبي أي حماقة من جديد حتى أخرج.
- ما الذي يهمك إلى هذا الحد؟ لا سبيل لمعرفة ما يريده كل إنسان حقًا، جعلتِني أدرك أن أكثر ما يؤلم السيئين هو مقابلة إساءتهم بالحسنة.
- حسنًا أنت لم تسيئي إليّ، لننسى ما حدث، كنت محطمة فقط وبائسة، أنا سأنساه.

ثم سخرت من نفسها، أتت كل تلك المسافة حتى تعلم حقيقة قررت نسيانها فيما بعد، ولكنها استطردت:

- سآخذك غدًا لتعيشي معي في منزلي.
- منزلك؟
- نعم.
- ومن أين لك به؟
- لا أعلم حقًا، ولكن يبدو أنه ملك عمي.
- عمي رؤوف؟
- حسنًا أظن ذلك، فأنا لم أقابله سوى مرتين، وقد وعدني أننا سنتحدث مطولًا، وقد قال أنه هو من أخذني في ذلك اليوم.
- أي أنك لم تهربي يومها؟
- لا لم أفعل، فقدت الوعي، وآخر ما شعرت به أن شخص ما حملني وأخذني للخارج، ولا أعلم ما الذي حدث بعدها، سأخبرك بكل شيء ولكن عديني ألا تتهوري من جديد.

تنهدت بضيق وقالت:

- حسنًا أعدك.

نهضت سيلينا إلى دورة المياه وفي نفسها شيء من الاطمئنان، ولكن ملأ قلبها الاضطراب رغم ذلك، فبدلت ثيابها سريعًا وخرجت إلى الغرفة، ونظرت فوجدتها تجلس مكانها واجمة يكسو ملامحها البرود التام والكآبة، جلست سيلينا بالقرب منها ثم قالت:

- هل تودين النوم؟
- نعم أرغب بذلك، هلا أطفأتِ المصباح؟

نظرت سيلينا لها بحنان وقالت:

- بالطبع.

ثم أغلقت المصباح، ونامت على السرير المقابل لها تنظر لما حولها بغرابة، لا شيء مألوف هنا، كل شيء غريب، كيف قضيت طفولتي هنا؟ ثم أخذت تفكر في جوليا التي خشيت أن تنهض من نومها، فأرّقها ذلك ولم تستطع النوم بسهولة، حتى غلبها النعاس عندما سمعت أنفاس جوليا تهدأ؛ وكأنها أخيرًا غطت في نوم عميق، وأشرقت شمس يوم جديد.

واستيقظ أمير مع شروق الشمس وأشعتها الدافئة التي تسللت عبر النافذة، فنهض من فراشها والابتسامة تعلو شفتيه عندما نظر حوله وتذكرها، ثم هب من منامه مسرعًا عندما تذكر حديثه مع عم سيلينا، حان الوقت لتنفيذ ما أمره به، واغتسل وتجهز للخروج صوب منزل سيلينا.

*****

الفصل السابع

"كل ابن أنثى وإن طالت سلامته *** يومًا على آلة حدباء محمول"

استيقظت أميرة من مرقدها وأخذت تتفحص هاتفها علّ سيلينا قد أرسلت لها شيئًا، ولكن لا جديد؛ مما زاد خوفها، ولكنها آثرت الانتظار من جديد.

بدأت أسيل أول يوم في دراستها، ورافقتها أميرة كذلك.

وذهبت أم حسن إلى عملها بنشاط وسعادة، فقد كان لرسالة ابنها تأثير كبير عليها ولطيف في نفسها؛ مما دفعها للعمل بجد.

وعلى الجانب الآخر نزل أمير وركب سيارته وانطلق تجاه منزل سيلينا، ثم وصل أمير للمنزل، لم تكن سيلينا ولا جوليا قد استيقظا، وكان أبو سيلينا قد استيقظ لتوه.

وفي الطريق كان أمير قد تفحص هاتفه، ورأى اتصال سيلينا عليه في هذا الوقت المتأخر، تسارعت دقات قلبه وبهت وجهه خوفًا عليها، ودار في ذهنه كل سيء يمكن أن يحدث، وزاد من سرعة السيارة وهو يحاول الاتصال بها، ولكن لم تجبه.

وحين وصل أمير للمنزل ترجل من سيارته سريعًا، وطرق بابه متمنيًا أن تكون سيلينا نائمة وحسب ولم يصبها مكروه، نهض والدها ليفتح الباب وقد توقع كل شيء إلا مجيء أمير في هذا الوقت.

فتح والدها الباب، واتسعت عيناه غضبًا عندما رأى أمير، مسح أمير براحة يده على شعره ثم قال:

- أرجو المعذرة منك يا عمي على إزعاجك في هذا الوقت، جئتك برسالة مهمة.

قال والد سيلينا غاضبًا:

- لا أكترث برسائلك، أغرب عن وجهي، ولا أود رؤيتك هنا من جديد.

صمت أمير قليلًا ثم قال:

- أخوك رؤوف _كما تعلم_ على فراش الموت، ويريد رؤيتك لضرورة قصوى، ويرجو ألا ترفض طلبه، وأمرني ألا أرحل عن هنا إلا وأنت معي.

تغير وجهه عندما سمعه، وأخذ يحدث نفسه باضطراب واضح:

- هل تعرف أخي؟ وهل أخي يعرفك؟ منذ متى؟ ما الذي يحدث؟

تشوش رأسه كثيرًا، لاحظ أمير ذلك واستطرد:

- ويجب أن تحضر سيلينا أيضًا بناء على طلبه.

وتجاهل سؤاله.

ساد الصمت للحظات، ثم تنهد والدها بضيق:

- حسنًا انتظر حتى أوقظها، سآتي أنا وهي فقط.
- بالتأكيد لا بأس.

طمأن ذلك قلبه لأنه علم أن سيلينا تنام بالداخل، ولم يستطع أن يخفي شوقه لرؤيتها، ثم ابتسم بسعادة فرمقه والدها باشمئزاز، ثم دخل للبيت وذهب ليوقظ سيلينا.

استيقظت سيلينا ونهضت من سريرها فزعة حين سمعت صوت والدها يوقظها بعنف، وهي تنظر حولها بحثًا عن جوليا، لم تستطع النوم البارحة، أرهقتها الأفكار والخوف على شقيقتها من أن تكرر فعلتها عندما تنام؛ فأرّق ذلك نومها، حتى غلبها النعاس منذ سويعات قليلة فقط، وعندما رآها نائمة تنهدت براحة، وبادرها والدها:

- هيا انهضي، عمك يريد مقابلتك، وأمير ينتظرنا بالخارج.

لم تفهم سيلينا شيئًا، ولكنها لم تعلّق، فضّلت أن ترى ما يحدث بنفسها، ثم نهضت من فراشها، وغادر والدها الغرفة كي يستعد للخروج.

ارتدت سيلينا ملابسها على عجل؛ تريد التحدث مع أمير قبل أن يخرج والدها، ثم خرجت فإذا بأمير يجلس في السيارة وينظر تجاهها، ولم يستطع إخفاء مشاعر الشوق والقلق والارتياح التي ظهرت على ملامحه دفعة واحدة عند رؤيتها.

ابتسمت سيلينا له، ثم ترجل أمير ومشى خطوات تجاهها، وبادرها:

- صباح الخير يا جميلة.

توردت وجنتي سيلينا عندما سمعت صوته، أيشفى المرء بسماع صوت من يحب؟

ابتسمت بحياء وقالت:

- صباح النور.

ثم تذكرت ما تود قوله، فقالت:

- أمير، لماذا يريد عمي أن يتحدث مع أبي؟

هتف بحماسة:

- إنها خطته الذكية، ستعرفين كل شيء، هيا... ثقي بعمي.

وقتها خرج والد سيلينا ثم نظر لها وقال:

- لماذا سبقتِني للخارج؟ أتنتهزين الفرصة للحديث معه وحدكما؟

عضت سيلينا على شفتها ولم تعلق، وقال أمير:

- هيا تفضلا.

ثم ركبوا السيارة وانطلقوا جميعًا تجاه المشفى، كان الصمت هو سيد الموقف في السيارة طوال الطريق، ثم وصلوا جميعًا للمشفى.

نزل والدها أولًا، وكان وجهه باهتًا مطأطئ الرأس طوال الطريق، لم يتوقع أن يخفي أخوه عنه معرفته بأمير، ولكن منذ متى يعرفه ذلك الوغد؟ حتى لو سألته لن يخبرني بشيء، من الأفضل أن أتحقق من ذلك من أخي نفسه.

أسرع والدها خطواته ونسي تواجد سيلينا معه، استغل بالطبع أمير الموقف عندما دخل والد سيلينا المبنى، وكانت سيلينا تتبعه بخطوات ثقيلة فيها بقية من النوم، اقترب منها أمير وقال:

- اتصلتِ بي البارحة في وقت متأخر، هل حدث شيء ما؟

تذكرت سيلينا ما حدث، وانقبض قلبها عندما تذكرت، ثم نظرت له بطرف عينيها:

- لا أستطيع إخبارك الآن، ربما في وقت لاحق، لا بأس... لم يحدث الكثير.

وقف أمير أمامها معترضًا طريقها، ثم قال والخوف قد ملأ عينيه:

- هل أصابك مكروه؟ ما الذي حدث؟

مشت للوراء بضع خطوات ولم تعلق.

ابتعد أمير من طريقها وسار بجانبها، وأكملت سيرها بنفس الهدوء، نظر أمير أسفله ثم قال:

- كنت نائمًا ولم أسمع الهاتف، آسف يا سيلينا.

ابتسمت سيلينا وقالت:

- لا بأس.

بدأ الغضب يتسلل إلى قلبه وقال:

- لماذا أنت بهذا البرود هكذا؟ أخبريني ما الذي حدث.
- لا أستطيع أن أخبرك الآن يا أمير، ربما في وقت لاحق.

عقد أمير يديه أمام صدره في حنق وقال:

- حسنًا كما تشائين.

وصلوا جميعًا للطابق المنشود، وبالطبع سبقهم والد سيلينا؛ الذي غفل عن كل أمره والأفكار تتضارب في رأسه كالسهام، سمح الأطباء لوالد سيلينا بالدخول، ثم دخل وكاد يغلق الباب حتى رأى سيلينا وأمير، فتذكر وجودهم معه، ابتسم العم رؤوف لهم وقال:

- أخي، اشتقت لك، كيف حالك؟

غضب والد سيلينا من بروده وهو يعلم أن الأسئلة قضت عليه عن كل ما يحدث، فهم العم رؤوف ذلك بسهولة من ملامحه وقال:

- تفضل بالجلوس -ثم نظر لسيلينا بعطف- تفضلي يا جميلتي اجلسي، وأنت يا أمير تفضل هنا.

جلست سيلينا في صمت، ولم تكن مطمئنة كثيرًا لما يحدث، وجلس أمير وهو يبتسم بخبث، بادره والدها وقال بسرعة:

- لماذا لم تخبرني أنك تعرف أمير؟ ما الذي يجري هنا؟

ابتسم العم رؤوف في هدوء وقال:

- تريّث ستعرف كل شيء الآن -ثم نظر لسيلينا- هل تظن أن سيلينا هربت مع أمير منذ ذلك اليوم؟
- نعم هي فتاة ساقطة، كل شيء متوقع منها.

- لم تهرب سيلينا مع أمير، أنا من أخذت سيلينا، لم ترَ سيلينا أمير سوى البارحة.

نزلت كلماته على والد سيلينا كالصاعقة، واختفت الكلمات التي بإمكانها التعبير عما في داخله؛ فاكتفى بالصمت، استطرد عمها:

- هيأت لسيلينا مكانًا لها في هذا العالم، ومبارك لك؛ ابنتك تدرس في كلية الصيدلة.

نهض أبوها من المقعد غاضبًا وصرخ:

- لماذا لم تخبرني منذ ذلك الحين وكلفتني البحث عنها في كل مكان؟ لو أنني كنت أعلم أنك من أخذتها لما تركتها.

قال أمير:

- في كلا الحالتين لا ينبغي عليك فعل ذلك.

اشتعل والدها غضبًا:

- لا شأن لك أنت، اخرج من هنا، نحن الكبار نتحدث معًا.

ضحك أمير وقال ساخرًا:

- لا فائدة منه.

قال العم رؤوف:

- اهدأ، لا داعي للغضب، لم تعد سيلينا ابنتك، لا يوجد إنسان يحمل قلبًا بين ضلوعه سيترك تلك الفتاة الجميلة معك، بالتأكيد لم أكن لأخبرك ولن يتغير شيء الآن، أردتك أن تعرف الحقيقة وحسب.
وإن كان لي طلب أخير منك وأنا على فراش الموت؛ فهو أن تزوّج تلك الفتاة -وأشار لسيلينا- بهذا الفتى الشهم -وأشار لأمير- وأن تدع سيلينا وشأنها لتكمل دراستها في مكانها الذي أعددته لها، لا ابنة لديك تسمى سيلينا، تبرأتَ منها واتخذت قرارك بيدك منذ سنوات، وأنا أخذتها منك لأتكفل بها، هذا طلبي الأخير، تكاليف الزواج أنا المسؤول عنها، ابتعد عن هذه الفتاة، تقبّل هذه الحقيقة، وقد رضيتُ لها أمير زوجًا.

احمر وجه والد سيلينا غضبًا، وصرخ بصوتٍ عالٍ جاء على إثره الطبيب والممرضات وأخرجوه خارجًا، ثم التفت وقال بانفعال وهو يشير بسبابته بتهديد:

- لا أريد أن أجعلك عدوي، أنت أخي، لا تثِر أعصابي لهذه الدرجة.

ابتسم العم رؤوف بخبث قال:

- ما بيننا سيمنع ثورانها.

ضرب والدها رأسه في الحائط وخرج من الغرفة برفقة الممرضات؛ الذين أحاطوا به خشية أن يقوم بأي عمل متهور، وجلس على الأرض أمام غرفة المريض يضرب رأسه مرارًا وتكرارًا في الحائط، ثم دمعت عينيه واستسلم لنوبة بكاء.

نظرت سيلينا لعمها رؤوف الذي أخذ يسعل بشدة فجأة، ثم أغمض عينيه وسكنت أنفاسه، قالت سيلينا:

- عمي رؤوف، أود أن أحدثك عن أمر ما.

ثم صمتت بانتظار إجابته، فلاحظت أنه لم يحرك ساكنًا، وبدا وكأنه مغشيًا عليه، صرخت سيلينا:

- أين الطبيب؟ أحضروا الطبيب إلى هنا، المريض مغمًا عليه.

ركض طاقم الممرضات ومعهم الطبيب إلى الغرفة، أخرجوا سيلينا وأمير، وبدأ الطبيب يفحص النبض، صرخ الطبيب:

- أحضروا الصعق الكهربي، نكاد نفقد المريض، أسرعوا.

ركضت الممرضات ليحضرنه، وأخذ والدها يتابع ما يحدث بقلق، ثم أغلق باب المريض، ودمعت عينا سيلينا خوفًا على عمها؛ الذي كانت تتمنى لو رأته منذ زمن، لعلمت معنى الانتماء الحقيقي، ولعرفت معنى الأبوة، ومعنى الحب والعطاء، وهي تتساءل:

- هل سيتركني قبل أن يجيب على الأسئلة التي تدور في رأسي؟

وضع أمير رأسه بين يديه وجلس على الأرض دون حراك، كان يعلم أن تلك اللحظة قادمة، ولكنه بالرغم من ذلك لا يستطيع التحمل، لم يوصيه عم سيلينا بشيء بقدر توصيته بسيلينا، هل سيستطيع أمير جبر كسرها بعد موت عمها؟ كيف سيواجه أباها الغاضب دائمًا؛ الذي لا يفرّق بين ما هو صواب وما هو خاطئ؟

كان دائمًا قويًا بعم سيلينا، كم جلس معه يشكو له مشاكله التي تواجهه الشباب في مثل سنه عادة، لم يجد صديقًا وفيًا معطاءً أحن عليه منه، بكى أمير عنوة وهو يتذكر الأيام التي جمعته به على التوالي، اللحظات المريرة التي مر بها، عندما تركه الجميع؛ حتى والده. كم تمنى لو رآه منذ زمن أبعد من هذا؛ لكانت حياته مختلفة بكل تأكيد، كان يغبط سيلينا أنها رزقت بعم كهذا، أوصله إلى سيلينا حبيبة قلبه بعد أن فقد كل الأمل، كانت أمنيته رؤيتها ولو صدفة، بكى أمير كما لم يبكِ من قبل.

خرج الطبيب من الغرفة بعد مرور نصف ساعة، ثم نظر لأمير وسيلينا التي ألجمتها الصدمة عن قول أي شيء، ووالدها الذي تصاعدت الشرارة في وجهه من شدة الغضب، نظر الطبيب لهم وقال:

- عظّم الله أجركم، نعتذر... فقدناه.

نهض والد سيلينا من مقعده وقد امتلأت عيناه بالدموع، ووقف على باب الغرفة وأخذ يضربه بيده ويصرخ:

- أخي أنا آسف، لم أعتذر منك على ما حدث، لم أتوقع أن تذهب الآن وتتركني يا أخي.

جلست سيلينا بجانب أمير، ثم اقتربت منه وأسندت رأسها على كتفه، لم يحرك أمير ساكنًا؛ كان يبكي بشدة، ثم توقف والدها عن الصراخ ونظر لسيلينا وقال:

- لا شأن لي بك بعد الآن، أنت السبب في كل ما حدث، اذهبي مع أمير، رحل من تكفل بك كل تلك المدة، لنرى ماذا ستفعلين الآن، لينفعك أمير أيتها الساقطة.

استشاط أمير غضبًا عندما سمع كلماته، ثم نهض فجأة وقال:

- لم يرحل من تكفل بها، ترك بقاياه هنا -ثم أشار لنفسه- والتي لا تبيح لك إهانتها بهذه الطريقة.
- العب دور البطل في هذه القصة دائمًا، لن أزوجك إياها مهما كلفني ذلك.

نهضت سيلينا فجأة وقالت:

- أبي...

لم يجبها والتفت ورحل.

نظر لها أمير ثم اقترب منها وأجهش في البكاء وقال:

- سيلينا، لا مكان لي في هذا العالم الآن، لا تخشي شيئًا، لم يوصيني عمك بشيء كما أوصاني بك، لا تذهبي معه، لا شأن لك بوالدك، سآخذك ونرحل، أعدك.

سقطت الدموع من عيني سيلينا بدورها وساد الصمت، ثم خرج الطبيب من الغرفة فجأة وقال:

- سيد أمير...

ابتعد أمير عن سيلينا ثم التفت له وقال:

- ماذا هناك؟

ابتسم الطبيب بمرارة وقال:

- كانت وصية الأستاذ رؤوف قبل موته أن أسلمك هاته الأوراق، حفظت وصيته ولم أفتحها أبدًا منذ وصاني بذلك، تفضل حان الوقت لأعطيك إياها.

أخذها أمير ووقف منكّس الرأس محزون ولم يعلق، ثم قال الطبيب:

- هيا، سأعده لنتخذ إجراءات الدفن، أكرر التعازي لكما.

وشرعوا بلفه في الكفن، ولكن أمير وقف واجمًا، لم يبدِ أية استجابة منذ ذلك الحين، ودموعه تنهمر وهو يمسك الورق ويتمتم بصوت خفيض:

- هذا ما بقي منك يا عمي.

أحاطت سيلينا بيدها على كتفه ومالت برأسها عليه، فقال:

- كوني معي.

أومأت سيلينا برأسها وقالت:

- بالتأكيد سأفعل.

وخرج الجميع ليصلوا عليه صلاة الجنازة، واتجهوا ناحية المقابر ليحفروا قبره، وكان معهم أيضًا والد سيلينا وجوليا، ولكن كان أمير في شغل عن هؤلاء وأولاء، وسيلينا لازمته حتى انتهوا من دفنه.

واتجه الناس لتعزية والد سيلينا؛ الذي كان يقف بجلد وقوة يستقبل التعازي، وجوليا التي كانت تقف بجانب والدها في صمت، كانت علامات الحزن واليأس ظاهرة على وجهها،

وبعد مرور ساعات رحل معظم الناس، وبقي والد سيلينا وأمير وجوليا وسيلينا واقفين، ثم اتجه أمير ناحية والد سيلينا وقال:

- تعازيّ لك، أرجو أن نتعاون على تنفيذ وصية أخيك الأخيرة في هذه الحياة.

قال والدها بصوت غاضب:

- لن أتعاون معك حتى أرى ما جاء في وصيته قبل موته، سأخرج الآن لأسأل الرجال عما ترك.

ابتسم أمير بسخرية وقال:

- لا داعي لذلك؛ فأنا معي وصيته.

اتسعت عيناه من الدهشة وقال:

- لماذا؟ من أين لك بها؟
- أوصى قبل موته بأن تكون معي.

زفر والدها بضيق وقال:

- ولكن هناك ما هو بيننا لا أحد يعلمه، بالتأكيد لم يترك ذلك بين يديك أيضًا.
- لا أعلم لم أفتح الأوراق بعد.
- ما الذي تنتظره؟ هيا افتحها.

فتح أمير أول ورقة سقط عليها بصره دون ترتيب، ثم وقف مبتعدًا عنه قليلًا ليقرأها، وقد كان من حسن اختياره أن يختار هاته الورقة بالذات، فقد كتب في بدايتها "أرجو أن تعطي هذه الورقة لوالد سيلينا يا بني، أما باقي الأوراق فهي لك ولسيلينا".

ابتسم أمير ولم يقرأ الباقي، ومد له الورقة وقال:

- هذه رسالة لك.

جذبها والد سيلينا إليه بعنف وأخذ يقرأ كلماتها، وبعد انتهائه زفر بانفعال ثم صرخ:

- أيها الوغد! هل تضعني تحت التهديد؟!

كانت سيلينا تراقب كل ما يحدث من بعيد، ثم اقتربت من والدها بعد ما سال السباب على لسانه، واشتعل وجهه غضبًا، وقالت:

- أرجو أن نذكر الميت بالخير يا أبي، فقد فعل لي ما فشلت أنت في فعله.

كاد والدها يهم بضربها، ولكن أمير جذبها إليه بسرعة وقال:

- هذا ما يثبت أنني دائمًا هنا لحمايتها منك.

نظر له باشمئزاز ثم التفت وقال:

- هيا يا جوليا اتبعيني للمنزل، لن أهدر وقتي مع هؤلاء الحمقى.

قالت جوليا بصوت ضعيف:

- حاضر يا أبي.

أمسكت سيلينا بيدها وقالت:

- جوليا، لستِ مضطرة للذهاب معه، تعالي معي، هو تركني وشأني الآن، يبدو أن عمي هدده، أرجوك تعالي للعيش معي بعيدًا عنه، ما الذي يمنعك؟

دمعت عينا جوليا وقالت:

- الخوف.
- ممَّ تخافين يا جوليا؟ أمير هنا، لا تقلقي... لن يستطيع فعل شيء لك.
- اذهبي وعيشي بسعادة يا سيلينا، لا مكان لي بينكم.

ثم أفلتت يدها ورحلت سريعًا، ولم تترك الفرصة لسيلينا بالتحدث أكثر من ذلك.

انقبض قلب سيلينا وشعرت بالأسى تجاه أختها جوليا، ورجت في قلبها أن تصبح يومًا ما أكثر شجاعة؛ لتتخلص من خوفها وترحل بعيدًا لتتذوق معنى الحرية، الآن علمت سيلينا معنى السجن الحقيقي الذي رأته أسوأ مما مكثت فيه من قبل.

ابتسم أمير لها وقال:

- لماذا أنت مصرة على إنقاذها؟

قالت سيلينا بنبرة حزينة:

- لأنها أختي، لا أستطيع تركها مع هذا الوغد، ماذا لو فعل بها مثلما فعل بي؟
- يبدو أنك لا تعرفين أنها السبب الحقيقي وراء كل ما حدث في ذلك اليوم.
- أعلم ذلك، وأبدت لي ندمها واعتذرت، وأنا سامحتها ولكن...

ثم تذكرت تلك الورقة التي كتبتها، تذكرت حديث أختها عن أمير، وعاد السؤال الملحّ: ما الذي حدث لأمير حينها؟

اعترتها الحيرة لفترة قصيرة حول هذا الأمر لكثرة ما حدث حولها، ثم قالت:

- أمير ما الذي حدث لك يومها؟ هل أذتك جوليا؟

قال مغيرًا الموضوع:

- هناك ما هو أهم لنتحدث به الآن يا سيلينا، ما رأيك أن نعود للفندق لقراءة هذه الأوراق؟
- حسنًا ولكنك ستخبرني فيما بعد.
- هيا يا جميلتي

قالت سيلينا بصوت طفولي:

- أمير لا تلهيني، ستخبرني.

مشى أمير ولحقته سيلينا، وابتسم ولم يعلق، ركبا السيارة حتى وصلا للفندق، قالت سيلينا:

- سنجلس في غرفتي، ما رأيك؟

تذكر أمير الليلة الماضية عندما نام في غرفتها، وابتسم لهذه الذكرى، وأومأ برأسه موافقًا، ثم دخلا معًا للغرفة، نظرت سيلينا إلى سريرها لم يكن مرتبًا كما تركته، نظرت سيلينا لأمير بحيرة وقالت:

- هل هناك من جاء إلى غرفتي الليلة الماضية؟

تلعثم لسان أمير وتغيرت ملامحه ولم يجبها، فلم يكن يعلم ما إذا كان سيحزنها إن علمت دخوله للغرفة وتجسسه أم لا، فآثر الصمت، فابتسمت سيلينا وعلمت أن هناك ما يخفيه، وقالت:

- هل أحضرت فتاة غيري إلى هنا؟

كل شيء قد خطر على بال أمير إلا أن تعتقد هذا الاعتقاد، فرد بعنف:

- بالتأكيد لا.

نظرت سيلينا بشك وقالت:

- إذًا أريد تفسيرًا واضحًا لما يحدث هنا وإلا سأرحل.

تنهد أمير في ضيق وقال:

- سيلينا اهدئي، هل يمكننا الجلوس؟ وسأشرح لك كل شيء.
- يمكنك أن تشرح وأنا واقفة، عقلي يعمل هنا أيضًا.

زفر أمير وقال:

- لا أعلم كيف أخبرك، ولكن أنا من بتّ الليلة الماضية هنا -ثم طأطأ رأسه- اشتقت إليك ولم أجد ما يشعرني بقربك سوى غرفتك.

ابتسمت سيلينا وقالت:

- أريد دليلًا كي أصدق هذا.

ضرب أمير رأسه بكفه وقال:

- يبدو أننا لن ننتهي.
- وهل تمل مني إلى هذه الدرجة الآن؟ يبدو أن وجودي أصبح ثقيلًا الآن، يستحسن لي الذهاب من هنا.
- لا تصعبي الأمور، تستطيعين رؤية غرفتي، إنها نظيفة، لم أطأها بقدمي الليلة الماضية لأنني مكثت هنا، أرجوك صدقيني ولننهي هذا.
- بالتأكيد أصدقك، لا حاجة لي برؤية الغرفة، هيا تفضل بالجلوس وسأعد الطعام.
- لا داعي لذلك سنخرج بعد قليل.

جلست سيلينا وجلس أمير بجانبها، ثم أخرج الأوراق وأخذ يقرأ ما فيها.

كانت وصيته أن ترك نصف ثروته المالية لسيلينا، وترك جزءًا آخر منها لأمير، ولكنه اشترط أن هذا الجزء لن يصرف إلا من أجل تكاليف زواج أمير بسيلينا، فإن لم يتزوجا يخرج هذا المال صدقات للأيتام، وترك مبلغًا من المال لأمير أيضًا.

وكانت الورقة التالية رسالة إلى سيلينا، والأخرى رسالة إلى أمير، أخذ كل منهما رسالته، وفتحتها سيلينا وأخذت تقرأ وأمير يقرأ معها...

*****

الفصل الثامن

"ويمر كل مر... ويبقى الله جابر الخواطر"

"ابنتي الجميلة سيلينا...
كم تمنيت أن أقضي معك وقتًا أطول، تمنيت لو أخبرك منذ زمن أنني عمك، وأسرد لك الحقيقة، سامحيني يا ابنتي، ولكني حينها وجدت عدم إخبارك بالحقيقة هو الطريق الصواب كي تعيشي حياة مطمئنة.
تركت لك نصف ثروتي، أرجو ألا تخبري والدك بذلك، تصرفي بها كما تشائين، وعليك أن تعملي أيضًا لكسب المال، وتؤسسي مستقبلك بنفسك، إنها فترة العمر الذهبية، استغليها يا جميلة.
أعلم أيضًا أن فؤادك انفطر شوقًا لأمير وحزنًا على فراقه كل تلك السنوات، للقلب ذاكرة قوية، أعلم أنك كنت تذكرينه، وأعلم كم كنت تحبيه، ولأنني حاولت التكفير عن ذنوبي؛ أحضرت لك أمير.
أرجو أن يكون لك قرة عين تسعدي بها ويسعد بك، لا تخافي شيئًا، أمير ولد شهم، لن يتركك لوالدك أبدًا من جديد، كما أنك حبيبته الأولى والأخيرة، أعلم أيضًا أنه أحبك بشدة، احمي حبكما، وأنا أشعر بالفخر بك يا ابنتي، وأعلم أنك تستطيعين تجاوز كل شيء وحدك، كوني بخير دائمًا.
والدك رؤوف".

دمعت عينا سيلينا، ثم ابتسمت ونظرت لأمير بحب، فابتسم لها وقال:

- هيا لنرى رسالتي.

"ابني العزيز أمير...

حسبتك دومًا شهمًا قويًا يُعتمد عليه، لا يترك يد المحتاج إليه أبدًا، أرجو ألا تخيّب ظني بك، لا تضيّع الوقت في نهاية هذا العام، اذهب لأميرتك الجميلة كما تسميها وتزوجها.

لا تحمل هم تكاليف الزواج؛ سأتكفل بها، ولا تخشَ من والدها؛ فهو تحت تهديد مني، لن يستطيع رفض هذه الزيجة، وإن رفضها فسيخسر الكثير، لا تشغل بالك به ولا تقلق منه.

حافظ على سيلينا، أوصيك بها خيرًا يا بني، لا تترك دمعة تنساب على وجنتيها إلا وجففتها بحنانك عليها، وحبك لها، لا تتعثر ابنتي ولا يصيبها اليأس وهي معك، أرجوك اعتني بسيلينا ولا تتركها أبدًا، وكن قويًا دائمًا، أعتذر لأنني تركتك مبكرًا، ولكن يقيني الآن أنك بتّ رجلًا يُعتمد عليه، لن أقلق عليك، أحبك.

عمك رؤوف".

نظر كلاهما باتجاه بعضهما وعيناهما مليئة بالدموع، ثم قال أمير:

- خذي ما تركه لك، وإن احتجتِ لأي شيء أنا هنا يا سيلينا، لا ترددي. سأعيدك الآن إلى منزلك، أكملي دراستك، ولتنهي هذا العام، ولقد وعدتك وعدًا ولن أخلف به -ثم كتب لها رقم هاتفه وأعطاه لها-هذا رقم هاتفي، لا ترددي في الاتصال بي إن احتجتِ لأي شيء، اتفقنا يا جميلتي؟

دمعت عينا سيلينا وابتسمت بفرح وقالت:

- اتفقنا يا أمير، سأذهب لأخبر صديقتي، لم أكلمها منذ أيام، يبدو أنها انفجرت من القلق علي.

اتصلت سيلينا بأميرة؛ التي كانت تجلس في محاضرتها بملل وهي تفكر دائمًا بسيلينا، لا تفارق ذهنها، وقررت أنها إن لم تصل إليها اليوم فستضطر للسفر لها غدًا لترى أين ذهبت وتطمئن عليها، ستبحث عنها وهي ترجو ألا يكون قد أصابها مكروه.

ثم رن الهاتف معلنًا اتصال سيلينا، قفزت أميرة فرحًا وأجابتها وهي تصرخ:

- سيليناااا، هل أنت مدركة مدى قلقي عليك؟ أين كنت؟ ألم تجدي خمس دقائق تتحدثي فيها معي؟

- حسنًا مهما قلتِ الآن أنت على حق، ولذلك سأخبرك بما سيسعدك.

قالت أميرة بنفاذ صبر:

- هيا أخبريني.

صرخت سيلينا وهتفت بحماس:

- سآتي لكم اليوم.

صرخت أميرة بصوتٍ عالٍ معلنة سعادتها انتبه له جميع الطلاب في المدرج؛ مما أغضب المحاضر، ثم قال بصوتٍ عالٍ:

- آنسة أميرة! ما الذي حدث؟

احمر وجه أميرة خجلًا مما فعلت، ثم قالت:

- لا، لا شيء.

- إذًا لم الصراخ في منتصف المحاضرة؟ هل نقول الآن ما يستدعي ذلك؟

قالت أميرة بانكسار:

- أنا آسفة.

قال بلهجة صارمة:

- إن تكرر ذلك مرة أخرى عدّي نفسك مطرودة من المحاضرة.

- حاضر يا دكتور.

سمعت سيلينا ما حدث ولم تسطع تمالك ضحكاتها، ثم عادت أميرة للهاتف:

- هل أعجبك ما حدث؟ ولكن هذا لا يغير أنني سعيدة كثيرًا بمجيئك جدًا، سنتقابل في منزلك إذًا.

قالت سيلينا وهي ما زالت تضحك:

- حسنًا، هيا ركزي وإلا عدّي نفسك مطرودة.

قالت أميرة بغضب:

- وتسخرين أيضًا؟ سأرد على ذلك عند مجيئك.

ضحكت سيلينا ثم أغلقت الهاتف وعادت لأمير، نظر لها أمير بحب وقال:

- ألن تخبريني ما حدث الليلة الماضية قبل أن نرحل؟

رفعت سيلينا حاجبيها وقالت:

- حسنًا، سأخبرك بشرط.
- وما هو شرطك؟
- أن تخبرني أنت ما حدث في ذلك اليوم، ماذا فعلت جوليا؟

ضحك أمير وقال:

- لم يعد شيئًا مهمًا، المهم أنني وجدتك بعد طول غياب.
- حسنًا وما حدث بالأمس غير مهم، المهم أننا نجلس الآن سويًا.

ضحك أمير وقال:

- إذًا يبدو أنه لا خيار آخر لي.

ضحكت سيلينا ضحكة انتصار وقالت بثقة:

- نعم لا خيار لديك.

نظر لها أمير وقال:

- إذًا لنبدأ بك، أخبريني أولًا ثم سأخبرك.

قرأت سيلينا الاحتيال في عينيه وقالت:

- لا أخبرني أنت أولًا.
- وما الفرق؟
- لا أثق بك.

ضحك أمير وقال:

- يبدو أنني سأخاف منك بعد الآن، حسنًا أستسلم.

ضحكت سيلينا ثم جلست بالقرب منه وقالت:

- إذًا هيا، أنا أسمعك.
- حسنًا، يومها عندما كنت أتحدث إليك لم ألحظ وجود جوليا؛ التي كانت تراقب كل شيء، كنت متأكدًا أن أباك لن يأتي في هذا الوقت؛ لذلك اخترته لكي أتحدث معك.

عرفت منذ البداية أنها هي من اتصلت عليه لتخبره، وأتى إثر اتصالها، وبعد ذلك أخذك لهذه الغرفة، وعندما أغلق الباب هممت بضربه وأنا أتوعد نفسي أيضًا على الانتقام من جوليا -ثم ضحك بمرارة- كنت مراهقًا ساذجًا،

لم أستطع حمايتك منه، كما أنني لم أجد خيارًا آخر لأنتقم، أو لم أفكر في حلول بديلة.

خرج أبي حينها، ولكنه خرج بعد فوات الأوان، فقد أصابني والدك بإصابة بالغة في قدمي تسببت في كسرها، مكثت حينها في المشفى شهرًا حتى شفيت قدمي واستعدتها بحمد الله.

وفي هذه الأثناء هدد أبي والدك برفع شكوى ضده لاعتدائه عليّ، ولكنهما اتفقا أخيرًا أنه سيعوض ما حدث بمبلغ مادي يؤمّن تكاليف علاجي طيلة هذا الشهر، ولكن عمي رؤوف -ثم أصبحت نبرة صوته حزينة- جاء حينها، واكتشفت بعد ذلك أنه هو من تكفل بالمال وليس والدك، وأخبرني أنه سينقذك، ولكن بعد ذلك قرر أبي الانتقال من البيت.

حاولت البحث عنك كثيرًا بعدها ولكني لم أجدك، حتى وجدني عمي رؤوف وأخبرني أنه نجح في إنقاذك، ومنعني من مقابلتك حتى هذا الوقت.

انقبض قلب سيلينا لما سمعته، وقالت في نفسها: لماذا يا جوليا؟

استطرد أمير:

- حسنًا، أخبرتك بكل شيء، هل ستخبرينني أنت أيضًا؟

قالت سيلينا بثقة:

- بالتأكيد، لست رجلًا حتى أخون العهد.

رفع أمير حاجبيه وقال:

- نحن من نخون العهد إذًا!

ضحكت سيلينا، ثم أخبرته بما حدث مع جوليا في الليلة الماضية، وعندما انتهت من سرد حكايتها قال أمير:

- أنا آسف، ولكني أعدك أنها المرة الأخيرة التي تحتاجيني فيها ولا أجيبك.

ابتسمت سيلينا:

- لا بأس.

نظر أمير للساعة التي بيده وقال:

- يبدو أننا تأخرنا، هيا استعدي كي أوصلك لمنزلك، يبدو أنك اشتقت إليه، وأتمنى أن يكون عمي قد حقق هدفه من هذه الرحلة.

نظرت سيلينا بحيرة:

- وما كان هدفه؟
- أن تواجهي الحقيقة بنفسك، وأن أراكِ؛ لتعلمي أن هناك من يحبك كما لم يحب شخصٌ شخصًا آخر.

ابتسمت سيلينا واحمرت وجنتاها خجلًا، وقالت لتغير الموضوع:

- هيا يا أمير، انتظرني بالأسفل، سأرتب أغراضي وألحق بك.

ضحك أمير ولم يرد أن يتسبب لها بمزيد من الإحراج، ثم خرج من الغرفة وتنهد في ارتياح، ونزل للأسفل ينتظرها.

انتهت سيلينا من ترتيب أغراضها، ثم نزلت وركبت السيارة وانطلقا إلى بيت سيلينا، شردت سيلينا في كل ما حدث في الأيام الماضية، حدث الكثير، تغيرت حياتها بالكامل حقًا، الآن ستدخل منزلها سيلينا أخرى تمامًا غير التي اعتادتها سيلينا حاملة معها ذكريات الماضي وهموم الغد باتت الآن تعيش طبيعية كبقية الناس.

نظرت سيلينا لأمير وقالت:

- لم أعرف عمي سوى من مدة قصيرة، لم يحزنني موته كثيرًا بسبب هذا، ولكن ما أحزنني حقًا أنني لم أعرفه منذ مدة أطول.

ابتسم أمير بمرارة وقال:

عرفته من وقت أطول منك بكثير، يعود له الفضل في وجودي بجانبك الآن، وله الفضل في الكثير من الأمور في حياتي التي حدثت من قبل، رحمه الله.

قالت سيلينا في حزن:

- رحمه الله.

ثم أسندت سيلينا رأسها على النافذة ونامت، نظر لها أمير وابتسم في لطف وقال في نفسه: يبدو أنها متعبة.

وأكمل الطريق حتى وصلا لمنزلها، رأت سيلينا أميرة تنتظرها أمام البيت، وكانت أم حسن وأسيل بداخله يرتبون المنزل احتفالًا بقدومها.

نزلت سيلينا من السيارة، وما إن رأتها أميرة حتى أسرعت إليها واحتضنتها بشوق، واحتضنتها سيلينا بدورها، ثم صرخت أميرة:

- انظروا من جاء.

فخرجت أسيل، وعندما رأتها اتسعت ضحكتها، تبعتها أم حسن، وأقبلوا جميعًا عليها فرحين بقدومها بعد طول انتظار، ولم ينتبه أحد لوقوف أمير خلفها، وبعد مرور عدة دقائق نظرت أميرة خلفها فإذ بأمير يقف، ثم قالت بصوت منخفض:

- سيلينا، هل تعرفين هذا الشاب؟

ابتسمت سيلينا وقالت:

- هذا أمير.

اتسعت عينا أميرة غير مستوعبة لما تسمع، بدأ أمير بالتحدث قائلًا:

- أهلًا بكم جميعًا، سررت برؤيتكم، أنا أمير؛ زوج سيلينا المستقبلي بإذن الله.

رفعت أميرة حاجبيها، وكتمت ضحكة ساخرة من تعريفه بنفسه بهذا الشكل، وقالت:

- أهلًا بك.
- أرجو أن تنتبهوا لها جيدًا، وأتمنى لكم يومًا سعيدًا.

قالت أسيل:

- بالتأكيد، شكرًا لك.

ابتسم لها أمير ثم ركب السيارة، لوّحت له سيلينا مبتسمة، وغادر وهو يشعر بالرضا؛ تركها وهي سعيدة، وهذا ما يهمه.

قالت أميرة:

- هيا ادخلي للداخل، يبدو أن هناك الكثير مما حدث.
- الكثير والكثير، سأخبرك بكل شيء، سيأتي الغد وأنا لم أنتهِ بعد.

هتفت أميرة بحماسة:

- إذًا أنا مستعدة، يبدو أننا سنستمع إلى قصة ألف ليلة وليلة اليوم.

ضحكوا جميعًا ثم دخلوا للمنزل، وحينما رأت سيلينا الحلوى والزينة التي عُلقت _مما أضفى للمنزل شكلًا جماليًا رائعًا_ احتضنتهم جميعًا في امتنان وقالت:

- لا أعلم كيف أعبر لكم عن شكري، أنتم عائلتي التي عُوّضت بها، أحبكم كثيرًا.

فربتوا على كتفها مشجعين لتبدأ في سرد حكايتها، وشرعت تحكي لهم وهم مستمعون لها، الدهشة تسيطر عليهم تارة، والحزن يغشاهم تارة أخرى، والمرح والسعادة أحيانًا كثيرة.

كانت سيلينا تضحك كما لو أنها لم تضحك من قبل كلما حكت عن أمير، مرت تلك اللحظات العصيبة؛ وها هي تسردها وكأنها حكاية قرأتها في كتاب.

دائمًا كل شيء يمر مهما كان صعبًا، إن جمال الحياة يكمن في حتمية انقضاء كل شيء فيها، ينتهي الألم كما تنتهي السعادة، وكلاهما مهم لوجود الآخر، فلا سعادة بدون ألم؛ ولا ألم بدون سعادة، إن نقيض الشيء هو ما يبرز معناه الحقيقي.

وقطع أحاديثهم فجأة اتصال طبيب حسن في وقت لم يتوقعه أحد، قطعوا جميعًا أحاديثهم، ثم رفعت أم حسن الهاتف وبادرته:

- السلام عليكم، كم يسعدني أن أتحدث معك أيها الطبيب، كيف الحال؟
- وعليكم السلام، كنت أود أن أبلغك شيئًا عن ابنك حسن.

بدأ القلق يتسلل إلى قلبها، وقالت في فزع:

- ابني حسن؟ ما باله؟ ما الذي حدث؟
- لا أعلم هل أهنئك أم أحزن من أجلك، ولكن دعيني أخبرك ابنك حسن قد شُفي تمامًا بفضل الله، ولكن شق عليّ أن أخبرهم حتى لا يعيدوه للسجن، لم يعد مجرمًا؛ كان مريضًا وحسب، وعلينا وضع حالته النفسية حينها أيضًا تحت الاعتبار، ولكن القانون لا يعترف بذلك.

انقبض قلب أم حسن وقالت بلهجة حزينة:

- أرجوك أعد لي ابني، لا تخبرهم أنه شُفي.
- كم أود ذلك، ولكن سيعرضني ذلك لمشاكل لا يُحمد عقباها.

سقطت الدموع من عينيها في صمت، نظر الجميع باتجاه أم حسن وتوقفوا عن الحديث، ثم قالت أميرة:

- ما الذي حدث؟ -ثم مدت لها يدها- أعطني الهاتف لأتحدث مع الطبيب.

أخذت منها الهاتف وقالت:

- أيها الطبيب ماذا هناك؟

ثم فتحت مكبر الصوت حتى يسمع الجميع.

أخبرها الطبيب بالأمر باختصار، فقالت:

- لابد من وجود حل، ولكن كيف سيعرفون أنه شُفي؟
- لست الطبيب الوحيد هنا، ربما يبلّغ أحد الأطباء أني أتركه عندي بلا داعي بعد أن شُفي، وربما يأتي أحد رجال الشرطة إلى المشفى في أي وقت ليفحصوه، خصوصًا أنه يضم أكثر من حالة شبيهة بحسن.

قالت أسيل:

- وما الذي سيغفر له ما فعل أمامهم؟

قالت سيلينا:

- هل يمكن أن نزوّر تقريرًا طبيًا بحالة مرضية تستطيع أن تعفو عنه.

صمت الطبيب قليلًا وأخذ يفكر، ثم هتف:

- أحسنت يا سيلينا، فكرة صائبة، سأغلق الآن لأبحث عن الحالات المرضية التي قد يعفو عنها القانون وسأخبركم بها.

ضربت أميرة كف سيلينا وهتفت:

- أحسنت.

قالوا جميعًا:

- حسنًا، عمل موفق.

وأغلقوا الهاتف.

ابتسمت أم حسن وقالت:

- شكرًا لكم.

ابتسموا جميعًا وقالوا:

- لا داعي للشكر، انسي هذا الآن ولنستمع لباقي حكاية سيلينا حتى ينتهي من عمله.

هتفت أم حسن في حماسة:

- إذًا هيا أكملي.

وأكملت سيلينا سرد حكايتها لهن...

وبعد مرور الساعات والجميع مصغي لسيلينا شاردين عما حولهم، قاطعهم اتصال الطبيب من جديد، رفعت أميرة الهاتف وأجابته، قال الطبيب بحماس:

- أخيرا وجدتها، سأكتب تقريرًا بأن حالة حسن كانت مستعصية؛ أي أنه أصيب بالجنون قبل ارتكابه تلك الجريمة، فلم يكن بوعيه الكامل، ولكنه تعافى بعد ذلك.

هتفت أميرة:

- وهل هذا يمكن أن يعفيه؟

قال الطبيب في حيرة:

- حسنًا إنه محتمل، لأنني قرأت بعض القصص لحالات أثبت أنهم فقدوا عقلهم تمامًا وقد عُفي عنهم.

هتفت أسيل بحماسة:

- هذا رائع، إذًا هناك أمل.

ابتسمت سيلينا وقالت:

- نعم، دائمًا هناك أمل بالتأكيد.

ابتسمت أم حسن مشاركة ولم تعلّق، وعيناها معلقتان على السقف وذهنها قد تخطاه لأبعد من ذلك؛ وهي ترجو الإله _عز وجل_ أن يعيد لها ابنها حسن.

- سأرفعه اليوم لهم، وسأتصل بكم لاحقًا لأعلمكم بالتفاصيل.
- نعم بالتأكيد، شكرًا لك كثيرًا.
- لا شكر على واجب.

وشعرت سيلينا أنها بين عائلتها الحقيقية؛ فبفضلهم لم تعد تشعر بوحشة أن تكون وحيدة، أخيرا أصبحت حياتها مليئة بهم دائمًا، وها هي الآن عرفت عائلتها، أما الذين أخذوا هذا اللقب وحسب تمنت أنها لم تعرفهم، ولكنها حمدت الله أنها تعرفت عليهم في الوقت المناسب لها تمامًا.

وأقبل الليل، فاضطر الجميع للعودة لمنازلهم؛ لأخذ قسط من الراحة استعدادًا للعمل اليوم التالي، وكذلك سيلينا.

وأشرقت شمس يوم جديد، استيقظت سيلينا وهي تنظر إلى ما حولها بغرابة مؤقتة: متى جئتُ؟؟

بدا كل شيء يحدث في الآونة الأخيرة غريبًا وسريعًا، إنها تلك اللحظات الأولى التي نستيقظ فيها من النوم، كنا في عالم آخر، أو لم نكن أحياء من أساسه، حتى بدت حياتنا الواقعية غريبة عنا ثم تصبح لا شيء في موتتنا الكبرى، أُجهد عقلها في الأيام الأخيرة كثيرًا حتى باتت تشعر أنه توقف عن العمل تمامًا.

نهضت وأخذت تستعد للذهاب للجامعة، وعلى الطرف الآخر أميرة، واتفقا على أن تمر أميرة لأخذها ليذهبا سويًا، أخذت سيلينا تفكر في أختها جوليا وكيف سيكون اللقاء بينهما في الجامعة، هل ستتحدث معها من جديد؟ هل تراها غيرت رأيها الآن؟.

وانتهت سيلينا من ارتداء ملابسها، وكذلك استيقظت أسيل استعدادًا ليوم دراسي جديد، واستيقظت أم حسن وقلبها مليء بالشوق لابنها، باتت تستشعر قربه دومًا كأنه حولها من فرط حبها له والأمل في رؤيته قريبًا، ولكنها سعيدة لأنها نجحت في تجميع المبلغ المطلوب لشراء منزل جديد لهما، ولكنها لم تخبر أحدًا بعد بذلك، ثم نهضت واستعدت وخرج الجميع.

وعلى الطرف الآخر أمير عاد لحياته العملية، ولكنه لم يعد كما كان؛ بدا أكثر نشاطًا على غير العادة، شارد الذهن باستمرار، مما أثار شكوك مَن حوله به، ولكنه لم يخبر أحدًا بالتأكيد رغم سؤالهم عن حاله مرارًا.

*****

ذهبت سيلينا للجامعة برفقة أميرة، وعند دخولها استقبلها الكثير من زملائها، وهمّوا باحتضانها جميعًا مرحبين بها، وقد اشتاقت لهم واشتاقوا لها، دون شرح لسبب الغياب.
حضرت بنشاط غير معتاد، ودافعية قوية للتركيز، وكذلك أميرة لم تكن أقل منها نشاطًا، حتى لمحت جوليا تدخل للمحاضرة وتجلس خلفها مباشرة، استدارت سيلينا ناحيتها على الفور وقالت:

- كيف حالك يا جوليا؟

نظرت جوليا بحزن وقالت:

- أنا بخير، أرجو أن تكوني سعيدة بعودتك.

قالت سيلينا بأسى:

- نعم، ولكن تمنيت لو أنك لم ترفضي طلبي.

ابتسمت جوليا بمرارة وقالت:

- أتمنى لك حياة هنيئة، هيا استديري كما كنت حتى لا يلاحظنا المحاضر.

ابتسمت سيلينا واستدارت برأسها من جديد ناحيته وتابعت ما يقول.
نظرت أميرة بطرف عينيها لهما، وفضلت التركيز ولم تعلق، حتى انتهت المحاضرة وخرج الجميع، ولكن جوليا خرجت سريعًا دون أن تلاحظ سيلينا خروجها متعمدة ذلك، تخشى أن يدور حوار آخر بينهما يجعلها تواجه نفسها، وقد نجحت بصعوبة أن تهرب من الأفكار المجنونة _كما تسميها_ التي غزت عقلها في أن تذهب مع أختها وتترك المنزل، ستلعب دومًا دور الابنة المطيعة ولن تتمرد أبدًا.
خرجت سيلينا وأميرة قاصدين المقهى الذي يجلسون فيه دائمًا، ونسيت سيلينا أمر جوليا.
جلست سيلينا مقابلة لأميرة وقالت:

- أميرة، استحوذت رأسي فكرة بالأمس قبل أن أنام عليّ إخبارك بها، بعد كل ما حدث معي كما تعلمين.

رفعت أميرة رأسها وقالت:

- أخبريني.

- حسنًا، ألا تلاحظين أمرًا على كل من دخلوا إلى حياتنا مؤخرًا؟ أو على حياتي ذاتها؟

لم تفهم أميرة ما تقول:

- لا أفهمك، وضحي أكثر؟
- حسنًا، في الآونة الأخيرة تعلمت كيف أن الأهل قد يسيئون لأبنائهم كثيرًا، عن قصد أو عن غير قصد، كيف كنا نحفظ ونردد دومًا أنهم أكثر الأشخاص حبًا لنا، إن ذلك يسبب لنا انفصالًا حقيقيًا عن الواقع، إذ ترى أن من ظننت به أنه مأمنك وأنه يحبك كثيرًا يعتدي عليك!!

قالت أميرة مفكرة:

- وما شأن أم حسن وأسيل والبقية بما تقولين؟
- جميعهم عانوا بسببهم كثيرًا، حسن كاد يودي بحياته، وأسيل ضيعت الكثير من السنوات من عمرها وهي تحت ضغطهم، كم أن الأمر مؤسف، ومؤسف عليّ أنا أيضًا.
- معك حق، كأنهم وُجدوا في حياتكم ليجعلوها أكثر صعوبة وبؤسًا.
- تمامًا كما تقولين، عانينا من أهلنا أكثر من أي شخص آخر في حياتنا، ألا يفترض أن يكونوا هم سندنا في مواجهة مآسي هذه الحياة؟ ولكنهم أصبحوا هم مأساتنا، مرضت أسيل بسببهم، انتهى الأمر بحسن بأن يصبح قاتلًا بسبب سوء تعامل والده ونسيان والدته حينها أن لها ابن، انظري إليّ كنت الضحية الكبيرة هنا، فقدت ذاكرتي إثر تعرضي للضرب المبرح المستمر، وجوليا أختي تملكها الخوف من كل ما حولها، عصي عليها أن تشعر بالأمان سترين أنه ليس لها أصدقاء أبدًا، أصبحت خائفة دائمًا من كثرة الصراخ والعنف، من المسؤول عن كل هذا يا أميرة؟ أَنَسوا معنى أن يكون لهم أبناء؟

قالت أميرة مفكرة:

- ربما لم ينسوا، ربما هناك خلل ما.

رفعت سيلينا حاجبيها:

- وما هو هذا الخلل؟
- حسنًا لا يوجد شك في حبهم الأكيد لنا لأننا جزء من...

قاطعتها سيلينا بحدة:

- بل يوجد، أيعقل أن يحب أحد شخصًا ويعذبه بهاته الطريقة؟
- حسنًا معك حق فيما قلته، ولكن ربما الخلل يكمن في عدم قدرتهم على التعبير عن ذلك، وكما أن عدم تحمل المسؤولية وإلقاء اللوم على أبنائهم، أصبح أسلوب حياة لديهم في الآونة الأخيرة.
- إنه تمامًا كما تقولين، لذا عليّ فعل شيء ما.
- حتى أنني ألاحظ باستمرار أنهم لا يهتمون حقيقةً بما نشعر تجاههم، لا أذكر المرة الأخيرة التي حدثت فيها أمي عن رأيي في تعاملها معنا مثلًا، أو في أي شيء آخر.
- إذًا علينا توصيل آراءنا، ربما لا يلاحظون بالفعل الكم الهائل من التدمير النفسي الذي يحدثوه في نفس أبنائهم.
- هناك أبعاد كثيرة لهذه المشكلة، علينا دراستها.

هتفت سيلينا بحماس وقالت:

- وتوصيلها لأكبر قدر من المربيين، على الأقل الموجودين في هذه المدينة -ثم انفعلت بحماس- أو هذا البلد، أو العالم بأسره.

ابتسمت أميرة وقالت:

- إذًا أنا معك، علينا دراسة هذه المشكلة، وبما أنك أحد الضحايا فسيسهل علينا دراسة الأمر من ناحيتنا، من ناحية الأبناء أقصد، وأن نرى التدمير الناشئ عيانًا.

شردت سيلينا قليلًا ثم قالت:

- ما رأيك بإقامة مؤتمر؟

أعجبت أميرة في بداية الأمر، ثم قالت بأسى:

- هذا يتطلب مبلغًا كبيرًا من المال.
- ترك لي عمي نصف ثروته أظن أنها ستفي بالغرض.
- هل عمك كان ثريًا؟

أومأت سيلينا برأسها موافقة.

- إذًا لم لا؟

اشتعلت الحماسة في نفس سيلينا، وامتلأ قلبها بالأمل، ها هي تواجه أقسى لحظاتها بمساعدة الجميع على تخطيها كما فعلت.

هتفت أميرة بحماس:

- إذًا لنخطط كل شيء اليوم، ما رأيك؟

ابتسمت سيلينا:

- بالتأكيد، لنفعلها.

قالت أميرة مفكرة:

- ماذا عن البقية، هل نخبرهم؟
- ما رأيك أن نتركها مفاجأة لهم، وسننظم بطاقات الدعوة للمؤتمر ونرسل لهم بطاقات مميزة عن البقية.

ضحكت أميرة:

- حسنًا، الآن سأخبر أخي ألا يأتي لأخذي اليوم، سنذهب أنا وأنت لأكبر الأماكن التي تقام بها المؤتمرات هنا، ما رأيك؟
- أظن أنها فكرة جيدة.
- وبالتأكيد سنتناقش بشأن سعر التكلفة، وسيتم توزيع منشورات الدعاية لهذا المؤتمر قبل ذلك بعدة أيام، ولكن أتعلمين؟ حضرت الكثير من المؤتمرات من قبل، لم يصادفني شيء من هذا القبيل، دائمًا ما يتم دراسة الأمر من جانب الآباء فقط، وهذا أمر طبيعي؛ فمن يلقي المحاضرة يكون أبًا أو تكون أمًا.

ابتسمت سيلينا:

- إذًا علينا وضع عرض استثنائي، إنها المرة الأولى التي يتحدث فيها الابن، أليس كذلك؟

أومأت أميرة برأسها:

- نعم بالفعل هو كذلك.

هتفت سيلينا بحماس:

- إذًا هيا لننهي محاضراتنا وننطلق بعد الجامعة.

ثم خرجا من المقهى، واتصلت أميرة بأخيها لتعلمه بقرارها ووافق، وانتهى اليوم الدراسي.

خرجت أميرة وسيلينا في اتجاه المبنى الضخم الذي يقام فيه المؤتمرات والاحتفالات الكبيرة، ثم دلفا للداخل وشرعا في السؤال عن التفاصيل.

لم يكن السعر مرتفعًا جدًا كما ظنت أميرة، فاتفقوا على توزيع منشورات الدعاية ابتداءً من اليوم، والتي اشترطت سيلينا أن يُكتب فيها أن المحاضرة ستقدمها ابنة وليست أم كما هو المعتاد، وأيضًا الحث على دراسة الأمر من جانب الأبناء لكل من يهتم بماذا يشعر ابنه نحوه، وسيكون أخيرًا صوت ابنه مسموعًا للجميع.

وبالفعل طبعوا المنشورات اللازمة كما طلبت سيلينا، وصمموا دعوتين خاصتين لأم حسن وأسيل، واتفقوا على حجزها لمدة ثلاث ساعات فقط، _وهذه هي مدة المؤتمر_ بعد خمسة أيام من الآن، وهو الوقت الكافي لتهيئ سيلينا نفسها، وكما قالت أميرة: ولتدرس الموضوع أيضًا.

وخرجت سيلينا وتبعتها أميرة، وأكملوا طريقهم مشيًا قاصدين منزل سيلينا.

ومرت الخمسة الأيام سريعًا، وسيلينا بين الكتب والمحاضرات وهي تدرس الأمر على الأشخاص حولها، وعلى نفسها، وعلى أسيل التي كثرت أسئلتها لها، وصادف هذا اليوم أن يكون يوم الجمعة الذي وعدها أمير بأنه سيأتي ليطمئن عليها فيه.

وكان أيضًا اليوم الذي سيأتي فيه قرار المحكمة بخصوص حسن، فاتصلت أم حسن بلهفة شديدة على الطبيب ليخبرها بمستجدات الأحداث.

رد الطبيب وقال:

- أهلًا بك يا أم حسن، أرجو أن تكوني بصحة جيدة اليوم.

ابتسمت أم حسن وقالت:

- شكرًا لك، هل وصل قرار المحكمة اليوم؟

ابتسم الطبيب:

- نعم.

قالت بلهفة:

- وماذا قالوا؟ بشأن ابني؟

*****

الفصل التاسع

"لا تربوا أولادكم كما رباكم آبائكم؛ لأن زمان أولادكم مختلف عن زمانكم".

- هنيئا لك يا أم حسن، يمكنك أن تأتي لأخذ ابنك الآن.

اغرورقت عيناها بالدموع من فرط السرور الذي اجتاح كل خلية في كيانها، ووضعت يدها على قلبها وأخذت تردد:

- ابني حسن، اشتقت لك كثيرًا.

وأجهشت بالبكاء، فابتسم الطبيب وقال:

- ابنك حسن في انتظارك، إنه يشتاق لك أيضًا، وهو دائمًا في لهفة لرؤية أمه الجديدة.
- اشتريت المنزل يا حسن، أخيرًا اشتريته بعيدًا عن منزلنا السابق، أنت وأنا فيه فقط، منزل لا يسع غيرنا ولا يليق إلا بنا.

قال الطبيب بود:

- هيا تعالي بنفسك وأخبريه.

أغلقت أم حسن المكالمة، وهبت من مجلسها، واستعدت للخروج.

اتصلت في طريقها بسيلينا وأميرة وأسيل، حان الوقت لتخبرهم بأمر المنزل، وسعدوا جميعًا من أجلها وباركوا لها وهم يحثونها على التقدم دائمًا من أجله.

ووصلت للمشفى ودخلت مسرعة بلهفة لم تستطع أن تخفيها لافتة أنظار من كانوا يجلسون في قاعة الانتظار بالعيادة، استقبلها الطبيب وقال:

- مبارك لك، ابنك في هذه الغرفة.

هرولت أم حسن ناحية الغرفة دون أن تجيبه، حتى رأت ابنها حسن يجلس على كرسي منكس الرأس، ثم رفع رأسه حين شعر بحركة حوله فوقعت عينه عليها، فنهض من مكانه، ودمعت عيناه فرحًا، وركض ناحيتها، لم يجد ما يقوله سوى الانخراط في البكاء، وارتمى في حضنها.

تلك اللحظات العظيمة التي لا نستطيع التعبير عنها بكلمات موجزة ولا مطولة، نغمض أعيننا ونحن بأحضان من نحب، نكون في عالم آخر بعيدًا عن عالمنا وعن أنفسنا، عندما يضيق بنا كل شيء ولا يسعنا سوى حضن من نحب، وعندما ينهكنا الضعف والمرض؛ فنجد كتفه دائمًا يسعنا لنستند إليه، وأذنيه صاغية لنا ولترهاتنا، ولأسخف التفاصيل وأدقها التي نشاركها، قال حسن بصوت خافت:

- كم أنا توّاق لرؤية أمي صاحبة تلك الرسائل.
- ليس بوسع الكلمات أن تعبر عن مدى حزني لما حدث، كم تمنيت أن أحتضنك هكذا منذ سنوات، لم أحبك بالشكل الذي يليق بك، أنا السبب في تدميرك وبقائك هنا.

ابتسم حسن:

- لست السبب في شيء يا أمي، تعلمت هنا ألا ألوم أحدًا أبدًا، وأن أتوقف عن فرض الأمور وتمنيها أن تحدث كما أرغب، وأن أحمد الله دائمًا على هذه الحياة بكل ما فيها دون إضافات أو تبديلات، عرفت معنى الرضا الحقيقي يا أمي وذقت حلاوة الصبر رغم اشتداد البلاء، وربما لم أكن لأتعلم ذلك إلا بين أقضاب السجون الحادة والجدران الكئيبة؛ التي ظلت تحاصرني طوال الوقت، فحسبتها وحشًا رابضًا قد ينهال عليّ في أية لحظة.

كنت أتمناه وأخشاه في آن واحد، كنت أتمسك بحياة زلقة لا تستقر على شيء، سريعة التغير، وكنت أضع يدي عليها وأظنها الحقيقة، أتعلق بالوهم.

إلا أنني ما زلت أتنفس، حتى أنني أبكي الآن، مضى الكثير على بكائي آخر مرة، الآن فقط أدركت أني بخير، لست حزينًا يا أمي لما حدث، ولست خائفًا مما سيحدث.

أنا كبرت للتو، لم أكبر معكما طيلة تلك السنوات التي مضت، كان جسدي يكبر في الحجم وداخلي مهترئ، شق عليّ الأمر في البداية، ولكني أحببت كل ما هو هنا.
وجرعة الإدراك _معرفتي بك وكأنني أراك للمرة الأولى، وإدراكي كم أنا مجرم_ المثقلة التي تناولتها، والتي أثقلت كاهلي، تصعب عليّ السير؛ فبت أتنقل على كرسي متحرك أحركه بيديّ.
ولكني حقًا بأفضل حال الآن، أترين؟ أنا أقف أمامك متوازنًا.

ثم حرك يده لأعلى وأسفل وهو يبتسم، والتفت للطبيب الذي جلس على مكتبه يتظاهر بالانشغال بتنظيم بعض الورق المتناثر أمامه وقال:

- الكلمات لا تساعدني في وصف مدى امتناني لك، كنت أنت أبي، كبرت معك.

تسللت دمعة من عين الطبيب عنوة، ونهض من مقعده واقترب منه، ثم ربت على كتفه قائلًا:

- لم أرَ مَن هو في قوتك يا حسن، اذهب يا بني، سأراك وأنت تنتصر على العالم كله يومًا كما انتصرت على هذا المرض الذي أشقاك، اعتني بأمك يا حسن.

ابتسم حسن وأومأ برأسه وقال:

- سأفعل، لن أنساك ما حييت.

قالت أمه:

- شكرًا لك كثيرًا أيها الطبيب، بفضلك اجتمعت بابني من جديد بعد أن أُغلقت أمامي كل الأبواب، لا أعلم كيف سأسدد لك فضلك الوافر عليّ.

ابتسم الطبيب وقال:

- لا شكر على واجب.

أمسك حسن بيد والدته وخرجا معًا غارقة في سرور، ذكّرها بيوم ولادتها لحسن، وكم فاضت حبًا وحنينًا لذلك المولود الذي كانت تشعر به كل يوم، وتعيش على أمل رؤيته دائمًا.

ضحك حسن بصوتٍ عالٍ وهو يستقبل ضوء الشمس، مر الكثير من الوقت على رؤيته له، عاد أخيرًا يستنشق الهواء حرًا، ونظر للأعلى وفتح كلتا يديه وأخذ يصرخ:

- ها أنا عدت للحياة، أنا هنا، أنا حيّ للمرة الأولى، ها قد غدت أحلامي حقيقة.

بكت أم حسن وهي تنظر لابنها، وكأنها تراه للمرة الأولى بالفعل، أشرق وجهه للمرة الأولى بعد الكثير من السنوات التي غطتها الكآبة والضباب.

*****

كانت سيلينا تجلس رفقة أميرة، سيحين الوقت بعد أربع ساعات من الآن، ستخرج سيلينا أمام عدد هائل من الناس، ستتحدث عن نفسها، عن قصتها، وعما يدور في خلدها من خواطر، وكانت أميرة تساعدها بالطبع في ترتيب أفكارها والكلمات التي ستلقيها.

وفجأة دق جرس الباب، مشت سيلينا ناحية الباب وذهنها شارد، لم تتوقع القادم؛ فتحته وحسب، فإذا بأمير يقف خلفه، ابتهج حين رؤيتها وقال:

- كيف حالك يا جميلتي؟

تلعثمت سيلينا وكأنها لم تتوقع هذه الزيارة أبدًا وقالت:

- أمير، كيف حالك؟

ضحك أمير:

- سألتك أولًا، ما بك؟ ألم تتوقعي مجيئي؟ اتفقنا على أن آتي لك أسبوعيًا كي أطمئن عليك، أم أنك نسيت ذلك؟
- لا لا بالطبع لم أنسَ، أرجو المعذرة منك.

بدأ القلق يتسلل إلى قلب أمير:

- هل حدث شيء يا سيلينا؟

قالت بسرعة:

- لا لا يا أمير، لا تقلق، سأخبرك بكل شيء.

جاءها صوت أميرة من الداخل:

- سيلينا، من هناك؟ من القادم؟
- إنه أمير.

قال أمير:

- من هذه؟
- إنها صديقتي أميرة، يمكنك الدخول، أهلًا بك.

دلف أمير للداخل، وأغلقت سيلينا الباب برفق وتبعته، أشارت لغرفة مكتبها وطلبت منه أن ينتظرها، ثم ذهبت لأميرة وقالت:

- جاء أمير، سأجلس معه وأخبره بما أخطط له وسأعود لك لاحقًا، اتفقنا؟
- اتفقنا على ألا تخبري أحدًا، لماذا ستخبرينه؟
- يجب أن يعلم، سأخبره وسأدعوه ليأتي.

زفرت أميرة بضيق:

- حسنًا اذهبي.

عادت سيلينا لأمير وهي تحمل له العصير والماء والمقبلات والحلوى، فابتسم أمير وقال:

- لا داعي لذلك، لمَ أتعبت نفسك.

ابتسمت وقالت:

- هذا لا شيء، تفضل وحسب.

ثم جلست على مقربة منه وقالت:

- في الواقع إن سبب تخبطي ونسياني للموعد هو أنني قد قررت أن أقوم بشيء ما اليوم.
- وما هو؟

فأخبرته بكل شيء، فابتسم وقال:

- أحسنت يا سيلينا، أعجبتني الفكرة، وهل يليق بك غير ذلك؟ تلك هي سيلينا التي أراد عمي لها أن تكون، سأتكفل أنا بالمصاريف المادية، ولا تحملي همها.

أنا أثق بك، ستبلين بلاءً حسنًا بالتأكيد، كما أنك لا تعلمين كم ستساعدين الكثير ممن يعيشون في هذا البؤس ذاته، افتحي لهم طريق الحرية.

سرت سيلينا لتشجيعه لها وقالت:

- تكفلت أنا بالمصاريف سابقًا؛ فلا داعي لذلك، وبالطبع أدعوك للحضور.

ضحك أمير وقال:

- لا أنتظر منك دعوة، ستجديني أول الحضور.

عقدت سيلينا حاجبيها تريد افتعال مشكلة ما:

- أهمك الموضوع إذًا، هل لديك أبناء تخفيهم عني؟

ضحك أمير وقال:

- وهل يعقل ألا يهمني وأنت من ستقدمينه؟

همهمت في سرها:

- لم يفشل أبدًا في قمع كل محاولاتي.

ثم طأطأت رأسها وقالت:

- أمير...

ضحك أمير على خجلها الدائم منه وقال:

- تفضلي...

ابتعدت سيلينا عنه قليلًا، وتوردت وجنتاها وكأن دماء جسدها كله تجمعت في خديها، وقالت بصوت أقرب للهمس:

- أحبك.

ضحك أمير ببهجة، ولكنه لم يشأ إحراجها أكثر من ذلك وإلا ستنفجر، ثم ابتسم وقال:

- حسنًا لا داعي لكل هذا الخجل.

ضحكت سيلينا ثم نظرت إليه وقالت:

- سأحضر لنا طعام الغداء.

قالت أمير بحدة:

- لا داعي لذلك، أنا سأنتظرك في المؤتمر، عليك أن تستعدي له الآن، وسأخرج لأشتري الطعام من أي مطعم مجاور.

رضخت سيلينا لرغبته بعد مناورات لا طائل منها، فهي تعلم أنه لا فائدة من محاولة إقناعه، سيفعل ما بدا له مهما حاولت أن تمنعه، خرج أمير ليحضر لهما الطعام، وبالطبع لأميرة أيضًا، وعادت سيلينا إلى أميرة بالغرفة وأخبرتها بما حدث، قالت أميرة:

- إذًا سيوفر علينا مجهود إعداد الغداء، أدامه الله إذًا.

ضحكت سيلينا، وأخذا يختاران ما سترتديه، وعاد أمير بعد ساعة حاملًا لهما أكياس الطعام، ولكنه رفض تناوله معها، فرضخت سيلينا مجددًا لرغبته، وذهب أمير إلى المؤتمر منتظرًا افتتاحه.

وبالطبع لم ينسوا إرسال بطاقات الدعوة لأسيل؛ التي ما إن رأتها حتى قفزت فرحًا وحماسًا، وتملكها بعض من الغضب على علمها بذلك متأخرًا، وكذلك أم حسن؛ عندما رأتها قررت الذهاب مع ابنها، ووافق حسن بالتأكيد.

حتى حانت اللحظة المنتظرة، ارتدت سيلينا أفضل ما لديها من ثياب، وبالطبع كانت أميرة معها، لم تكلّ عن رفع معنوياتها باستمرار، حتى وصلا للمؤتمر.

*****

كانت الصالة مليئة بالأشخاص الذين أتوا من شتى بقاع الأرض، وقد لفت انتباههم عنوان المؤتمر الذي لم يروا مثله من قبل، وبالأخص مقدمته الشابة، وهذا ما لم تحتسبه سيلينا سوى بأحلامها، فظنت أن عدد الحضور سيكون أقل من ذلك.

جلس أمير في المقدمة، وبالطبع أسيل وأم حسن وابنها وأميرة، وكانت سيلينا تستعد خلف الستار، والقلق قد أخذ منها مأخذه، وهي تحاول التقاط أنفاسها لاهثة لتهدأ، حتى أُغلقت الأضواء البيضاء وأُظلمت القاعة، ورُكزت كل الأضواء ذات الألوان المختلفة: البنفسجي، والأزرق، والأحمر، ومزيج من الألوان الأخرى على المكان الذي ستقف فيه سيلينا استعدادًا لظهورها، ونهضت أميرة من مقعدها وهي تصفق، فشجعت جميع من هم خلفها على التصفيق أيضًا لخروج سيلينا، ومن فرط حماسة أسيل أخذت تصفر، وضحكت أم حسن بسعادة، وجلس حسن وأمير بهدوء ينتظران خروجها.

حتى خرجت سيلينا تحت هتاف وتصفيق حار، وقفت في مكانها المخصص ونظرت للجميع بتوتر؛ فقد كان المكان مزدحمًا أكثر مما يجب، حتى رأت من لم تتوقع مجيئها

أبدًا؛ والدتها بصحبة جوليا، ولكن لم يكن والدها معهما، كانا يجلسان في الصفوف الخلفية، ولكنها قررت ألا تعيرهم اهتمامًا، لا ينقصها تشتت ذهن آخر، يكفي قلقها.

ابتسمت لجميع الحضور وهي ترحب بهم:
"تغمرني السعادة لتواجدي هنا معكم جميعًا، أرحب بكم في هذا المؤتمر المتواضع، وأرجو أن أقدم لكم كل ما يفيدكم فيه، وأسرد عليكم أفكاري التي بُنيت من دراسات كلفتني جهدًا ووقتًا لا بأس بهم، ولا أنسى أن أقول أنها كلفتني سنوات عمري، فأنا هنا من قلب حدث المعاناة التي سأتحدث عنها، ربما لست أسوأها، نختلف في الأشكال والقصص ولكن المضمون يكاد يكون موحدًا، ولم أقتصر على دراسة الكتب فقط بالطبع في أمر كهذا، فتعلمت من الأشخاص الذين عشت معهم مأساتهم لحظة بلحظة ما لم أستطع إيجاده بين طيات الكتب، ودائمًا كنت وسأظل ممتنة لوجودهم، شكرًا لحضوركم جميعًا، وأكرر ترحيبي الحار بكل من هم هنا، أهلًا بكم، بحضوركم نكتمل".
صفق جميع الحضور، ومن ضمنهم أمير؛ الذي شعر بالفخر وكأن ابنته هي من تلقي هذا الخطاب، وعندما هدأت الأصوات بدأت سيلينا بالتحدث:
"في البداية أنا كنت ضحية أشخاص ظنوا أنهم مربيين، ولم يكونوا سوى مصدر المعاناة الحقيقية، أعلم أنني لست الوحيدة هنا من تعاني من هذا الأمر، ربما نقضي الكثير من حياتنا ظانين أننا على صواب، وأننا نبلي بلاء حسنًا، ولكن هذا في الحقيقة يظل اعتقادًا لا يمس الواقع بصلة، لا يمكن أن تساغ النزعة النفسية للسيطرة والإجرام على أنها تربية سليمة وتأديب للطفل، وهنا أتحدث صراحة مع الآباء الذين يظنون أنهم شمعة تحترق من أجل أبنائهم؛ وماهم سوى شعلة من النار أحرقت حياتهم".
ثم سردت سيلينا حكايتها التي تأثر بها معظم الحضور، وغالب أمير دموعه، وهربت دمعة يتيمة من جفني سيلينا؛ والتي مسحتها فورًا كي تستطيع الإكمال.

وانتهت من سرد قصتها، وعلت شفتيها ابتسامة حينما ذكرت أمير بطل قصتها المأساوية، وأميرة بطلة كل حكاياتها، فصفق الجميع لها بحرارة، وأعلنت البدء عن شرح ما خططت لشرحه مسبقًا:

"يجب ألا تنسوا دوركم الخطير والمهم في تشكيل الإدراك النفسي لأبنائكم؛ باعتباركم أول الأشخاص الذين يقابلونهم أثناء رحلتهم الطويلة في حياتهم القادمة، أنتم أبطالهم، وحسب ما تفعلونه في البدايات ستحصدونه في النهايات.

أبناءكم مرآتكم، فإن لم تستطيعوا أن تواجهوا أسوأ ما في أعماقكم وتتقبلوه وتتعاملوا معه؛ فلن تقبلوهم أبدًا، بل وستحدثون آثارًا خطيرة على نفسيتهم كما سنعرض لاحقًا، علينا التعامل مع المخاطر النفسية كما نتعامل تمامًا مع الضرر الجسدي، بل وأشد منه، لا تعتقد أن ابنك سوف يصبح هادئًا وأنت عصبي وتصرخ عليه طوال الوقت، فيجب أن نضع في الحسبان أن...".

ثم فتحت شاشة العرض خلفها، فمشت قليلًا على الناحية الأخرى وأظهرت شريحة كتب عليها، وأخذت تقرأ:

"أنه:

- إذا عاش الطفل في جو من التشجيع؛ يتعلم الثقة بالنفس.
- إذا عاش الطفل في جو من التحمل؛ يتعلم الصبر.
- إذا عاش الطفل في جو من المديح؛ يتعلم الرضا والمحبة.
- إذا عاش في جو من المشاركة؛ يتعلم العطاء والكرم.
- إذا عاش في جو من المحاسبة والانتقاد؛ يتعلم الكذب.
- إذا عاش في جو من الإحباط والعنف؛ يتعلم العدوان.
- إذا عاش في جو من السخرية؛ يتعلم الخجل.

أنتم المسؤولون عن تكوين أجواء أسركم وبيوتكم، إذًا أنتم المسؤولون عن سلوكهم، إذًا لماذا هم ليسوا مثلكم كما تعتقدون؟

سيتميز ابنكم عندما يكبر بشخصية مستقلة عنكم، ولكن عليه التخلص من ندوب وآثار تدميركم له عندما كان صغيرًا؛ بأي طريقة تناسبه.

أو ربما سيعيش بها يحملها على كاهله طوال حياته يتأوه ألمًا، وسيتميز وفقًا لهذا، فهو قد أصبح عبارة عن مجموعة من ردود الأفعال على أفعالك السابقة، فأظن أن الأجدر بالحساب هو أنت وليس هو.

هناك نوع من البر المنسي، وهو بر الآباء بأبنائهم وهم أطفال، وبذلك فهم يعينوهم على برهم كبارًا، وبذلك أيضًا تتحقق حياة سوية لكلا الطرفين، فإن هضمت حقوق غيرك فلا حقوق لك".

قامت أم من الحضور للحديث كانت تجلس خلف أسيل، وقالت:

- هذه مهزلة، أنت لم تجربي مقدار العناء الذي تشعر به الأم، فنحن نفعل المستحيل من أجلكم وأنتم لا تعلمون ذلك، بل وتنكرونه، وعليكم أن تكونوا ممتنين ومقدرين لما نفعله.

ابتسمت سيلينا لها، ثم وجهت نظرها للجمهور، وخصوصًا لتلك المرأة وقالت:
"في آخر نصف ساعة من المحاضرة ستكون المناقشة متاحة لنناقش آراء الجميع هنا ولاستقبال أسئلتكم.
لنكمل، إن محبتك لابنك _والتي يترتب عليها تضحيتك من أجله_ ليس بالضرورة أن يدركها ابنك، إنه لا يدركها أساسًا، عليك أن تتعلم أساليب إيصالها له، كيف عليه أن يدرك أن الشخص الذي يضربه كل يوم يحبه؟ أو أنه يضربه من أجل مصلحته مثلًا؟ لا سبيل لجمع المتناقضات للاستدلال بواحدة منها على الأخرى، أنت لا تربيه بهذه الطريقة؛ وإنما تقهره".

ثم التفتت إلى شاشة العرض من جديد وقالت:
"إليكم الآن بعض أفعالكم التي ترجون أن يفهموا مقصدكم منها، وإليكم الفكرة التي تصل لهم منها...".
عرضت سيلينا شريحة أخرى وُضع فيها جدول، كُتب في أحد أركانه: السلوك، والركن الآخر: الفكرة الواصلة منه، ثم قالت:
"لم أكتب دوافع سلوككم هنا؛ لأنني لم أجد دافعًا مقنعًا يوضع في عين الاعتبار، ومعظمها تقيؤات نفسية نظرًا لضغوط الحياة الخارجية على الوالدين، ولتعلم أن ابنك لا شأن له بذلك، وليس مسؤولًا عن حزنك، أنت المسؤول عن مداواته، لا تجعل الآخرين يدفعوا ثمنه معك، كما أن الدوافع تختلف من شخص

لآخر، وبالنسبة للأخطاء التي يقوم بها ابنك؛ فهو لا يراها أخطاء كما تراها أنت بالفعل، سأتحدث عن ذلك فيما بعد.

- أولًا الضرب: أنا أؤلمك جسديًا وأعتدي عليك، ومن ثم لا يجد الطفل بدًا إلا أن يتقبل هذه الأذية، ويضمر في نفسه شعور الانتقام منك حتى يحين وقته، فيتولد في نفسه كرهًا للمعتدي عليه.
- اللوم: يشعر أنه دائمًا لا يفعل الصواب، مما يمهده بالفعل لعدم فعله.
- المقارنة: يشك في مكانته، فبالتالي يتبنى موقفًا عدائيًا ضد الإهانة.

حسنًا لنفترض أنه هو المتفوق في هذه المقارنة، سيدرك أن الحياة غابة، وأن عليه التنافس دائمًا ليحصل على أعلى مراتبها، أو أن يفوز في المقارنة ببساطة".

قاطعتها نفس الأم غاضبة:

- هل اختفى العقل؟ ألا يفهمون؟

ابتسمت سيلينا بهدوء وردت عليها:

"ليس على طفل في الخامسة من عمره أن يفهم الأمور المعقدة التي تدور في ذهنك، هذا يشق عليه، ولكني أرى أنه من السهل أن تفهمي أنت نفسك، ولكن من الصعب أن تحتملي مسؤوليته، ولكني هنا لمساعدتكم جميعًا".

ثم استدارت لتكمل، وشعرت الأم بالحرج والتزمت الصمت، فقد كانت سيلينا على حق بالفعل، علت نبرة سيلينا من جديد وهي تقول:

"

- رابع سلوك تقومون به هو السخرية: يشعر طفلك حينها بالدونية والغضب المكبوت منك.
- إحراجه أمام الناس: إذًا أنت تخبره أن شكله الاجتماعي لا يهمك، إذًا شكلك الاجتماعي لا يهمه أيضًا بدوره.
- الاستمرار بإخبار أبنائكم أنهم سبب همومكم وأنهم عبء عليكم: ربما هذه الرسالة تودون أن توصلوا خلالها أن يقدروكم، ولكن هاته المرة يفهمونها حرفيًا أنهم عبء، وأنكم تتألمون بسببهم!".

التفت سيلينا ناحيتهم، وأغلقت شاشة العرض من جديد، وقالت:

"إن أفضل شعور تعطيه لابنك في أي مرحلة من مراحل حياته هو التقبّل،
حسنًا، ربما يقع ابنك في خطأ أنت لم تقع فيه، لا بأس... محال أن تصنع إنسانًا يشبهك، ستفشل في ذلك لا محالة، وستسلب منه هويته، عليك تقبل ذلك، ابنك ليس ملاكًا، وسيشعر أنه مقبول حينها دون شروط، وسوف يتحسن أداؤه،
وعليك أن تعلم أن ابنك لا شأن له برغبتك بالحصول على طفل مثالي، لا وجود للمثالية في هذه الحياة، وأنت لست مثالي؛ فكيف تريد هذا؟

حسنًا، ماذا عن الأخطاء التي يقوم بها ابني باستمرار؟
عليك أولًا أن تفرّق بين الأخطاء والسمات العمرية التي يمر بها الطفل -ثم الفتت مرة أخرى إلى شاشة العرض- وإليكم بعضًا منها:
السمات المرحلية للأعمار ما بين ٢-٧:

- كثرة الحركة: هذه سمة من سمات هذه المرحلة العمرية، ولا يحتاج إلى مهدئات كما تزعم.
- التقليد: طفلك في هذه المرحلة يتعلم بالمحاكاة، ومما لا شك فيه أنك أول من يقلد، وهذا لا يجعلنا نعتبر أنه ضعيف شخصية كما تظن أنت.
- حدة الانفعالات: تراه يغضب لأسباب تافهة، ليس لأنه تافه أختي/أخي العزيز/ة، لا يكتمل نمو المشاعر لديه في هذه المرحلة، فهو ينتقل من شعور لآخر دون إدراك مقدار الحزن والألم الذي يجب عليه أن ينتابه، وما يجب عليه أن يحزن كثيرًا لأجله أو قليلًا.
- التفكير الخيالي: ربما يخبرك بأشياء غير واقعية، وأنت تؤثر وصفه بالجنون بدلًا من أن تصف نفسك بالجهل بحقيقة ما يمر به وطريقة تعبيره عنه".

قالت أميرة ساخرة:

- أي أسلوب تتبعه للإهانة تلك الفتاة؟!

كتمت سيلينا ضحكتها وأكملت:

"

- الميل إلى الفك والتركيب: حسنًا، إنه لا يحطم الأشياء، إنه يريد اكتشافها فقط ببساطة.
- الشجار: من سمات هذه المرحلة أيضًا أنه يفتعل المشاكل مع كل من يختلف معه.
- عدم التمييز بين الخطأ والصواب: مهما توجهه لا يفهم ذلك، أو ربما يؤثر قول لا، ولكن ليس عنادًا بل لإثبات نفسه بهذه الطريقة، إذًا لا بأس بالتوجيه المستمر وعدم الملل منه.
- الذاكرة الآلية: إنه يسجل كل شيء كحقائق...

ثم التفتت سيلينا ناحية الجمهور من جديد:
ماذا إن أخبرتكم أن كل حرف تنطقونه وكل حركة تقومون بها مسجلة في شريط فيديو، سوف يعيش وفقًا لهذا الشريط إنسان، سيفعل كل ما جاء فيه وسيصدق بقوة كل ما يقال، كيف سيكون شعوركم؟؟
أراهن أن معظمكم سيكون أكثر حذرًا في كل كلمة يقولها، هذا هو التشبيه الصادق لما تخبروا به أبنائكم في مثل هذا السن، جميعكم تجنون حصاد ما قلتوه لأولادكم يومًا، ربما لا يُظهر أطفالكم إدراكهم لما تقولون في هذا الوقت، ولكنه مُسجل على أية حال، سيتذكر ذلك عندما يتقدم في السن قليلًا.

- عدم تقبُّل مشاركته أغراضه الشخصية مع شخص آخر: وهذه ليست أنانية كما تعتقدون أنها سمة مرحلية.

إذا مما سبق نجد أن معظم ما عاقبتم عليه أبنائكم هو سماتهم المرحلية الطبيعية، التي لا دخل لهم في إنشائها ولكم الدخل في تقويمها بأساليب أكثر حكمة من العقاب.
حسنًا، لماذا أنا أتحدث عن هذه المرحلة العمرية بالذات رغم أنني شابة؟
إن هذه المرحلة هي مرحلة تكوين كل معتقداتي ومعتقداتكم جميعًا، هي المرحلة التي تتشكل فيها أفكارنا واتجاه تفكيرنا وسلوكياتنا، وفقًا لهذا _ومن رحمة الله عز وجل بنا_

أننا نستطيع تغيير تلك المعتقدات والحقائق _التي رسخت في نفوسنا بفضلكم_ عندما نتقدم في السن، ونتعافى من الآثار المدمرة لسلوكياتكم فيما بعد.
عليكم أيضًا معرفة أنكم أنتم المسؤولون عن مواهب أطفالكم، وعن الكثير مما يؤمنون به، ولكنكم تقتلون ذلك بسوء معاملتكم لهم".

ابتسم حسن بمرارة وأومأ برأسه موافقًا، وابتسمت سيلينا وقد استحسنت أن تلطف الأجواء قليلًا ثم قالت:
"إن أطفالكم هم البشرى التي تبشَّرون بها في حياتكم، لا ثروة في الحياة أهم من ابنك، ربما فُطرتم جميعًا على حب أبنائكم رغم اختلاف أجناسكم وشخصياتكم، ولكنكم لم تُفطروا على الطريقة الصحيحة لتربيتهم.

لا تكمن بطولتك في تأديبهم _قهرهم_ وإنما تكمن في جعلهم يحبوك، وكم هذا صعب عليكم، ليس عليك الغضب لكل خطأ يقوم به ابنك، أعلم أنها شكوى مشتركة بينكم جميعًا، دائمًا ما تقولون: "نحن نوجههم كثيرًا ولكن لا فائدة، نلومهم ونعاقبهم ولكن لا فائدة".

حسنًا سأخبركم بالسبب، إنها في الحقيقة عدة أسباب، سأطلعكم على ما تيسر منها...
طول فترة لومك يؤدي إلى انفصال ابنك عن سماعك، ومن ثم لا داعي لإطالة لومك، ربما يكون بسبب انشغال الابن في استفزازك بدل من أن يشعرك بأن اللوم أتى بهدف، أي أن رغبته في الانتقام منك أكبر من استعداده لسماع لومك، والكثير من الأسباب الأخرى التي تكون أنت المسؤول عنها.
لا يوجد ما يسمى ابني عنيد بطبعه منذ صغره، ابنك ليس عنيدًا، أنت من اضطررته لتبنّي هذا الطبع، ربما أخبرته بذلك مرارًا فصدقه وفعل ما بوسعه لكي يصبح هكذا بالفعل، أو رد فعل لأمر دائمًا ما تقوم به معه دائمًا دون أن تلحظ ذلك فجعله عنيدًا.
عليكم جميعًا مراجعة سلوكياتكم مع أبنائكم، وعليكم أن تعلموا أنه لا يبقى منكم لهم شيء سوى الكلمات، الكلمات فقط التي تعيش بداخلهم في كل ظروف حياتهم اليومية.

عليكم تقديم الاحتواء النفسي والحضن لأبنائكم، مهما اختلفت أعمارهم ومهما اختلفوا، فذكاؤك كمربي أن تتعامل مع الجميع بالعدل، وليس مع أبنائك الذين يشبهونك فقط...

وعندما لا تخبروا أبنائكم أنهم مهمون، فمعنى ذلك أنهم غير مهمين بالفعل، وسيتصرفون وفقًا لذلك، وذلك لأن الاهتمام حاجة نفسية يحتاجها كل الأشخاص مهما اختلفت أعمارهم، وجميعنا ندرك أن الأبناء هم أساس الوجود، وهم زهور المستقبل.
ربي ابنًا يرفع من شأنك، ربي ابنًا يحبك، يتقبلك كما تتقبله، يحترمك كما تحترمه، ولكنكم _ويؤسفني قول ذلك_ تحاولون الهرب من أنفسكم بدلًا من مواجهتها، تحاولون الهرب منها بانتقادكم المستمر لأبنائكم، أبنائكم يحتاجون للأمان، وأنتم لن تستطيعوا تحقيق ذلك لهم وأنتم بهذا الاضطراب، متى كانت المرة الأخيرة التي قررتم فيها أن تكفّوا عن الشكوى من أبنائكم وطباعهم الصعبة، وتنظروا لأنفسكم نظرة المسؤولين عن أنفسكم وعنهم؟ وتنظروا نظرة التقبل لهم ومحبتهم بلا شروط؟".
وفجأة دخل أحد من الرجال إلى المؤتمر، نظرت سيلينا فإذا به أبوها، وشرارة الغضب تملأ عينيه كعادته، صمتت سيلينا قليلًا ثم تجاهلت وجوده، وحاولت الحفاظ على هدوء أعصابها حتى تكمل ما بدأته وتنهيه على أكمل وجه
نظر أمير لها ثم نظر إلى الخلف ناحية ما تنظر له، حتى رأى أباها يقف وينظر باشمئزاز واضح لابنته، ابتسم أمير ثم صفق فجأة مشجعًا الجمهور أن يصفق معه، وكانت أول من استجاب أميرة، وصفق الجميع من جديد، فابتسمت سيلينا ثم أكملت:
"في النهاية أعلم أن الجميع يسأل: كيف لنا أن نعيش حياة سعيدة مع أبنائنا إذًا؟ وهل هناك أمل في تقبلهم لنا من جديد وأن نصلح ما بدر منا؟".

وزعت سيلينا للجميع نظراتها وقالت:
"بالتأكيد، دائمًا هناك أمل في تحسين ما حدث، عليكم أولًا التصالح مع أنفسكم، عليك تقبل النقص الذي تشعر به، وتقبل أخطائك مهما كانت، ومسامحة نفسك على ذلك، فإن كنت تعرف أكثر من ذلك لفعلت، أليس كذلك؟ كونوا أكثر مسامحة لأنفسكم لتتمكنوا من مسامحتهم.

وحين تدركون أن أيامكم مع أبنائكم محسوبة وليست كثيرة، وباعتبارهم أهم ثروة تمتلكونها، إذًا لا تهدروها في الصراخ عليهم، بل في أن تفهموهم، لأنكم ستشعرون بالأسف حين تغادرون الحياة ولم تحتضونهم قط حينها أيضًا ستدركون أن أبنائكم أهم من درجاتهم الدراسية التي لم يحققوها لهم، ولذلك انفرط عقد علاقتكم بهم للأبد.
عليك أن تعلم أن هناك أمور في ابنك من الأمور التي لا تعجبك، وستتحسن بحسن معاملتك له.

عليكم فصل الآخرين عن حياتهم بأن تكونوا المرآة التي يرون فيها نجاحاتهم، وليس مقارنتهم المستمرة بمن هم أفضل منهم، كونوا مؤمنين بهم، لا تضعوا لهم مقياس للنجاح، دعوهم ينطلقون ويضعوها لأنفسهم، وحين يفعلون ذلك شاهدوهم وهم ينتصرون على العالم.
توقف عن الصراخ عليهم باعتبارك تربيهم، التربية هي عملية توجيه مستمر وتقويم للسلوك؛ لخلق الطفل بأفضل صورة يمكن أن يكون عليها، وصعوبته تكمن في الاستمرار عليه، أرجع سبب غضبك لسببه الحقيقي؛ وستجد أن ابنك لا ذنب له.
لا تعيبوا أطفالكم؛ فإنكم مليؤون بالعيوب، وما الأطفال إلا مرآة لكم.
املؤوا رصيد المحبة بينكم وبين أولادكم، لا تهدروا المزيد من الوقت، ابدؤوا من الآن، أصلحوا كل ما حدث، ربما ستجدون استجابات عنيفة في بداية الأمر، ولكن عليكم بالصبر، إنها أخطاؤكم... فلتصلحوها".

نظرت سيلينا لأمير ثم قالت:
"سأوجه الآن كلامي للأبناء...
عليكم معرفة قدر أنفسكم الحقيقية، وعليكم الصبر على زلات والديكم، فهم أيضًا يخطئون ويصيبون، ربما من الصعب تصديق أنهم يحبوكم، ولكن -ثم ابتسمت بمرح- سنشعر بما يشعرون به يومًا ما، حينها سنعيش تلك العبارة: "فاقد الشيء يعطيه بسخاء؛ لأنه ذاق مرارة حرمانه".
أرجو أن أكون قد قدمت كل ما يفيدكم، وكل هدفي هو تحويل بيوتنا الكئيبة إلى بيوت أكثر سعادة، يملؤها الحب لا الغضب، تملأها الأحضان لا العنف والضرب، حتى يخرج

من صلبكم أبناء تحبكم وتنتمي لكم، وبهذا تحققون استمرار وجودكم الحقيقي، أشكر جميع من استمع إليّ بقلبه، واستشعر ما أقول.
والآن سأترككم في النصف الساعة المتبقية تجيبوني على هذا السؤال وتكتبوا إجابته في ورقة، ستكون مدة الإجابة عشرة دقائق فقط، وباقي الوقت مفتوح للمناقشة".
عرضت سيلينا السؤال على الشاشة:
"هل السعادة تنبع من داخلنا حقًا؟ أم مما نظن أنه يجلب لنا السعادة؟!".
ردت الأم بتهكم واضح:

- وما شأن هذا بموضوع المؤتمر؟!

التفتت أسيل لترد عليها بالنيابة عن سيلينا وقالت:

- ألم تسمعي هدفها منذ البداية؟ تريد للجميع السعادة.

قالت الأم وقد ملأتها الحيرة:

- حسنًا وما الداعي لهذا السؤال؟

ابتسمت أسيل بمكر:

- ربما هو اختبار ذكاء أو استطلاع رأي مثلًا.

ثم نهضت أميرة ومعها أسيل لتوزيع الورق المخصص للإجابة على كل الحاضرين، ذهبت سيلينا للداخل كي تستريح قليلًا، وبالطبع ذهبت معها أميرة وأسيل، كان أمير يراقب كل ما يحدث بفخرٍ بادٍ على محياه.
قالت أميرة بمرح:

- لا أستطيع إخفاء مدى فخري بأني صديقتك، أبليتِ بلاء رائعًا، أحسنت يا سيلينا.

ثم قفزت لاحتضانها، احتضنتها سيلينا وهي منهكة ثم قالت:

- هل رأيت أبي؟ إنه هنا.

قالت أميرة بانفعال:

- ماذا تقولين؟! ماذا سنفعل الآن؟

قالت أسيل:

- لا يستطيع فعل شيء، كما أن أمير هنا.

ثم ابتسمت بمكر.

ضحكت سيلينا وقالت:

- شكرًا لكم، أشعر أنني دائمًا أفضل بوجودكم بجانبي -ثم أمسكت بيدهما- أرجو ألا نفترق أبدًا، أحبكم كثيرًا، هيا تمنوا لي الحظ في المناقشة.

ضحكت أسيل وقالت:

- سأتكفل بالتي خلفي، يبدو أن لديها الكثير.

ضحكت أميرة وقالت:

- وأنا أيضًا لدي الكثير لإيقافها عند حدها.

ضحكت سيلينا وقالت:

- يبدو أن المشاكل ستظهر من هنا وليس من أبي كما خشيت.

ضحكوا جميعًا، وانقضت العشر دقائق سريعًا، والجميع كتبوا إجابة السؤال الذي أثار دهشتهم وحيرتهم جميعًا، وكانوا ينتظرون أن تعلن سيلينا الإجابة بفارغ الصبر، يبدو وكأنهم نسوا موضوع المؤتمر الأساسي، جمعت أسيل وأميرة منهم الورق، ثم ابتسمت سيلينا وقالت:

"لم أكن أقل دهشة منكم عندما رأيت السؤال لأول مرة، يعد ذلك استطلاع رأي، وسأعلمكم بالإجابة التي لا أجزم بصحتها؛ إنها آراء، وربما أجد بين هذا الورق رأيًا يغير مسار كل شيء وأكثر منطقية مما سأذكر".

ثم ابتسمت:

"سأختار الاختيار الأول، إذ أن السعادة تنبع من داخلنا، أما الاختيار الثاني "مما نظن أنه يجلب السعادة" فأقول أننا نحن المسؤولون عن الظن، فالظن بالسعادة ينبع من داخلنا، لا سعادة لمن لم يقرر من أعماقه أن يصبح سعيدًا، ويطوّع كل ما حوله لجعله سببًا في زيادة سعادته، فالسعادة قرار.

لمن يسأل: ما شأن ذلك بموضوعنا؟ شأن ذلك أنكم عندما تعتقدون أن أبنائكم سبب سعادتكم في الحياة، تدركون أهميتهم الحقيقية: أثمن كنز يمكن امتلاكه، وتكونون ممتنين لهم لمشاعر الحب الرائعة التي تنتابكم تجاههم، بدلًا من اعتبارهم سبب لهمومكم وتحملكم المسؤوليات، لن تختفي المسؤوليات ولكن ستفعلونها بحب هذه المرة

وستخف مرارتها وعند ذلك ستطوعون كل ما يقومون به وفقًا لهذا المبدأ، فتسعَدون وتسعِدونهم معكم.
والآن لنفتح المناقشة، أرجو من الجميع الالتزام بالهدوء".

رُفعت أول الأيادي، ولم تصدق سيلينا ما ترى، كان والدها هو أول من رفع يده للسؤال، شعرت سيلينا بالقلق قليلًا، ولكنها لم تجد حلًا آخر إلا أن تتعامل مع الأمر وكأنه شخص غريب.

بدأت الأيادي ترتفع، ولكنها أشارت لأبيها:

- تفضل أسمعك.

قال مباشرة:

- تركت ابنتي منذ زمن باعتبارها ليست كذلك، ولا أشعر بالندم حيال هذا الأمر، هل هذا طبيعي؟ أي هل أنا مضطر حقيقة للعيش بسعادة معها مثلًا؟

نظرت جوليا باشمئزاز واضح من وقاحة أبيها ووضاعته، ونظرت سيلينا له ثم قالت:

- حسنًا، لأنك اعتبرتها ليست كذلك، نتيجة متوقعة ألا تشعر بالندم حيال الأمر، راجع أولوياتك، وكل ما تعتبره ستتصرف وفقًا له، وقبل كتابة الأولويات أرجو النظر للحقيقة الوحيدة التي لابد لها وأن تحدث، ألا وهي أننا جميعًا ميتون مهما عشنا، تلك النهاية الحتمية لكل شيء فماذا تريد أن تترك خلفك؟ من المهم أن تعرف إجابة هذا السؤال لتتصرف وفقا له.

لم تترك له سيلينا الفرصة ليرد عليها، وأشارت إلى أم كانت قد رفعت يدها وقالت:

- تفضلي، أسمعك.

شعر والدها بالغيظ ولكنه لم يعلق

قالت الأم:

- لدي الكثير من الأبناء، ولكن يشق عليّ أن أعدل بينهم، دائمًا أميل إلى واحد منهم، ربما لأنه أكثر استماعًا لي، وربما _كما قلتِ_ أنه أقرب لي في الشخصية، أعلم أن هذا يولد الغيرة والحقد بينهم، ما الذي عليّ فعله؟

ابتسمت سيلينا وقالت:

- حسنًا، عليك تقبل أبنائك الآخرين، ربما يبهرونك باختلافهم وانحرافهم عما أنت متوقعة منهم، وتذكري دائمًا أنهم هم أغلى ما لديك، عودي للمنزل الآن واحتضنيهم، وواعدي نفسك أن يتغير كل شيء بعد ذلك.
وعندما تشعرين بميلك لهذا الابن تذكري فورًا بقية الأبناء، وأن هذا يحزنهم، وأنت لا ترضين رؤية الحزن يعتريهم، فأحبيهم دون اشتراطات.

ابتسمت الأم وبدا عليها الحماس والاقتناع بما قالت، فعقبت:

- سأفعل، شكرًا لك كثيرًا.

ابتسمت سيلينا وأشارت إلى أم أخرى كانت قد رفعت يدها، قالت الأم:

- ضربت ابني كثيرًا، وشاركني والده ذلك، وكان هدفنا الأول هو تأديبه، كان الضرب وسيلة التأديب الوحيدة، لم ندرك خطأنا، ربما سأخبرك أنني لم أدركه حتى هذه اللحظة، ولكن ابني ترك المنزل في يوم ولم يعد، حاولنا البحث عنه، وعندما وجدناه أخبرنا ألا نتدخل في أموره الشخصية، وأنه من الآن فصاعدًا سيعيش منفصلًا عنا، هل تركه للمنزل كان بسبب العنف المستمر الذي مارسناه عليه؟ أم أنها سمة من سمات مرحلة الشباب وهي محاولة الشعور بالاستقلالية؟

أدركت سيلينا مدى صعوبة العقلية التي ستتعامل معها الآن، ولكنها قالت:

- إن كانت هذه سمة من سمات مرحلة الشباب، لماذا لا نترك بيوتنا جميعًا إذًا؟ لم تنتشر ظاهرة الهرب من البيت سوى عندما بدأت ظاهرة العنف والتأديب بالضرب بالانتشار، وكما علمتِ الآن مدى التأثير السيء للضرب عليه، ضُغط نفسيًا ولم يجد حلًا سوى الرحيل عن المكان الذي يؤلمه.
راجعي الأمر أنت وزوجك، أنتم أخطأتم في حقه كثيرًا، لا يوجد شخص حي يقبل الإهانة والضرب المستمر، ولا مبررات لذلك، لم يكن الضرب أبدًا

وسيلة للتأديب، ولن يكون، إنما هو يدل على حب الآخر للاعتداء والعنف كرد فعلٍ على عنف قديم تم ممارسته عليهم في الماضي، ولم ينتقموا من الفعل حتى الآن.

نصيحتي لك أن تعيدي النظر، وأن تعتذروا له مرارًا، وتواعدوه على التعامل معه كإنسان، وهذا أبسط حقوقه، ولو لم يقبل ذلك اتركوه زمنًا معينًا، ثم اوعدوا أنفسكم قبل أن توعدوه أن تحسنوا معاملتكم له في المرة القادمة، قتلتم فيه الكثير، فأحيوا ما يمكن إحياؤه، وأنقذوا ما يمكن إنقاذه بينكم.

شعرت الأم بالضيق، وذلك لأنها شعرت بصحة كلامها، إنها المرة الأولى التي تواجه فيها نفسها وتقول أنها أخطأت في حقه، دائمًا ما تقول أنه يستحق ذلك لكي يتأدب.

شكرتها الأم ثم حملت أغراضها وغادرت، ابتسمت سيلينا ثم أشارت إلى أم كانت قد رفعت يدها أيضًا، ونظرت فإذا بها نفس الأم التي كانت تجلس خلف أسيل، قالت سيلينا:

- تفضلي.
- كيف يعلم أولادنا مدى محبتنا لهم؟ مهما فعلنا لا يشعرون بذلك.

ابتسمت سيلينا:

- عن طريق ملء رصيد المحبة بينكم بالأعمال الدالة على ذلك، مثلًا إذا شبهنا الأمر بأن معك علبة تجمعين فيها النقود، تضعين كل يوم مبلغ حتى يزداد رصيدك في نهاية الأسبوع، وضع النقود هو عمل يختلف في فئات النقود التي تضعينها، وكلها كسلسلة تؤدي إلى نتيجة واحدة، وهي زيادة ما بداخل الحصالة.

ما رأيك أن نضع علبة للمحبة؟ ونملأها كل يوم إما بقبلة أو حضن أو اعتراف صريح بالمشاعر التي تختلج في صدرنا، بالتأكيد في النهاية سيؤدي لتحقيق الحب بينكم، ثم لنرى كم بلغ رصيد المحبة في نهاية الأسبوع، وسيظهر ذلك بالتأكيد عليه بعدها.

سيكون أمرًا رائعًا، أودعي اليوم في علبة المحبة كلمة بسيطة: أحبك.

أخبري ابنك بذلك اليوم، واحتضنيه غدًا، وأخبريه بعد غد كم هو مهم بالنسبة لك أن تجلسي معه كل يوم، وأنه لا يكتمل يومك بدونه، ولنرى رصيدك في نهاية هذا الأسبوع.

ابتسمت الأم وقالت:

- شكرًا لك، هذه فكرة رائعة.

رفعت جوليا يدها، مما أثار دهشة سيلينا، ثم قالت:

- نعم تفضلي.
- أنا فتاة ولست أمًا، ما مقدار الخوف الذي يستطيع الأهل زرعه في نفوس أبنائهم؟ وإلى أي مدى يستطيعون تدميرهم؟ وكيف يتخلص الأبناء منه؟

صمتت سيلينا قليلًا، وكأن السؤال لم يبدُ كما سألته، ثم قالت:

- هو مقدار قدرتك على التخلص منه، ليس علينا أن نبقى سجناء ما سبّبه لنا أهلنا من عقد نفسية، مثلًا خوف دائم من المجهول أو من أي شيء آخر، علينا التحرر دائمًا منه.

أيًا كان مدى التدمير الذي وصلتِ إليه؛ فأنت المسؤولة عن تعافيك منه، دون انتظار اعتذار منهم، أو تعطيل عملية التعافي بانتظار أن يتغيروا، انسي ذلك وابدئي في التحسن فورًا.

رفعت أم حسن يدها، قالت سيلينا:

- نعم تفضلي
- على ذكر الخوف، قررت أن أتحدث، تعرض ابني أمامي للضرب المستمر، ولكني كنت خائفة، لم أستطع الدفاع عنه، لم أستطع أن أحتضنه لأنهي الألم الذي امتلأ به صدره، لن أسامح نفسي أبدًا، لهذا أحاول إصلاح ما حدث، هل سأنجح؟

نظر لها حسن وقال بغضب:

- ولكن ليس لما تقولينه داعٍ يا أمي، اتفقنا أن ننسى كل ما حدث سويًا، وأنت أصلحتِه بالفعل، لماذا تقولين هذا الآن؟

ابتسمت سيلينا وقالت:

- إجابة ابنك كافية، سامحك، والأحرى بك أيضًا أن تسامحي نفسك، انتهت أخطاء الماضي، فلتبدئي رحلة جديدة الآن.

ابتسمت أم حسن وشكرتها، ثم قبّلت رأس ابنها وجلست.

رفع أمير يده، فابتسمت سيلينا وقالت:

- نعم تفضل، أسمعك.

قال أمير بنبرة هادئة:

- كيف على الإنسان أن يختار زوجته لكي يربي أبناءه بالشكل الصحيح وتعينه هي على ذلك؟

توردت وجنتا سيلينا وفهمت ما يرمي إليه، ولكنها يجب أن تحافظ على ثباتها، ردت أميرة عليه بانفعال:

- عليك سؤال أمك عن هذا، ستختار لك المناسبة أيضًا.

ضحكت أسيل بصوت مسموع، وشعر أمير بالغيظ ولكنه احترم وجود سيلينا ولم يعلق.

قالت سيلينا:

- عليك أن تختار من يناسبك بينكما، ثم تضعان أسس للتربية يلتزم بها كلاكما، وحافظا على علاقة مستقرة أساسها الود والرحمة بينكما، أما الاختلاف وكثرة الشجار والمشاحنات يؤدي لخلق جو من الكراهية وعدم الاطمئنان في المنزل، مما يؤدي لنفور الأبناء منه، والكراهية ستكون هي دافع كل الأفعال التي تُمارَس فيه.

  كما أن موضوع اختيار الشريك يحتاج الكثير من الشرح بعيدًا عن صلب موضوع المؤتمر، وأرجو أن أكون قد قدمت ما يفيد، وإن كان ضئيلًا...

ولم تترك له الفرصة لنقاش أطول.

رفعت أم أخرى يدها.

- تفضلي.
- لي ابنة لا تحبني مهما فعلت لها، ما العمل؟ تأخذ مني موقفًا عدائيًا دائمًا.

ابتسمت سيلينا وقالت:

- أحبيها أنت أولًا، وكما قدمتُ... املئي رصيد المحبة بينكما بالأفعال، وراجعي نفسك، فكري في طريقة حديثك وتعاملك معها، ولاحظي ما تقومين به بدقة، وربما ستجدين ما يؤدي تلقائيًا لجعلها تكرهك بسبب شيء ما فعلته باستمرار دون أن تلحظي ذلك، مثلًا هل أنت كثيرة النقد لها؟
- أنا لا أخبرها سوى بحقيقتها، ولا أتعمد نقدها.
- حقيقة كل شخص فينا لا أحد يعرفها، وأحيانًا حتى الشخص ذاته، كل منا بداخله من الجمال الكافي الذي يوفر له استحقاقه أن يحبه أحدهم، ومن السوء ما يستحق تقويمه بالتوجيه المستمر والنقد البناء، فقط توقفي عن نقدها كثيرًا وأخبريها بحقيقة أجمل ما فيها، أحيانًا يكون لذلك تأثيرًا غير متوقع من قِبَلها، فتبدأ هي بالبحث عن السيئات فيها ومحاولة تعديلها، نقدك المستمر على شخص يكره ذاته يجعله يشعر بأنك عدوه، فتوقفي عن ذلك، كوني صديقة أكثر تقبلًا.
- شكرًا لك سأفعل ذلك.

دق الجرس معلنا انتهاء المؤتمر، ولكن بقيت أسئلة الكثيرين، فعرضت سيلينا إيميلها الشخصي على شاشة العرض، وأوضحت أنه سيسرها استقبال كل أسئلتهم عليه والرد عليها.

ثم ابتسمت سيلينا وقالت:

- لا أعلم كيف أعبر لكم عن مدى استمتاعي اليوم، وبالأخص أنني كنت متواجدة مع رائعين أمثالكم، أرجو لكم السعادة ما حييتم، وإلى اللقاء.

صفق جميع الحضور، وسمعت الكثير من كلمات المديح التي أطلقوا بها ألسنتهم لها؛ مما جعلها أكثر سعادة وراحة، وتبدد التوتر الذي كانت تشعر به أخيرًا، وخرج الجميع بانتظام، واستأذنتها أم حسن وابنها بالخروج، وبقيت أسيل وأميرة معها، وانتظرها أمير كذلك.

خرج أمير خلف والدها مسرعًا مريدًا التحدث معه، ثم هتف:

- يا عم.

وقف والد سيلينا، ثم قال لجوليا وزوجته:

- اذهبا للسيارة وسآتي إليكما بعد قليل.

استجابا لأمره ورحلا، ثم نظر باتجاه أمير وقال:

- ما الذي تريده؟
- جئت لأعلمك أنني سآتي لخطبة ابنتك اليوم، ونتفق على أن يتم الزفاف بعد انتهاء عامها الدراسي، أرجو ألا تردني خائبًا يا عم، فهذه وصية أخيك الأخيرة لك، كما أن سيلينا لم تبدِ رفضًا، ما رأيك الآن؟ لتأتي سيلينا معك، وسآتي أنا وأمي وأبي احترامًا لك بالطبع ونأتي لخطبتها.
- لست راضيًا عن هذه الزيجة في كل الأحوال، ولكن يبدو أن هذه هي الطريقة الوحيدة للتخلص منها ومنك، أردتها أن تتزوج شخصًا آخر أفضل منك، بحث عنها كثيرًا أيضًا، ولكن عندما علم بأمر هروبها من المنزل تزوج بفتاة أخرى أكثر احترامًا حتى لا تجلب سيلينا له العار، فيبدو أنه لا خيار آخر لي سوى الموافقة على زواجك منها، فلن يقبل غيرك بتزوجها.

كتم أمير غيظه وغضبه من حديث والدها عنها بهذه الطريقة، فهو هنا من أجل إقناعه لا من أجل الشجار، ثم اصطنع أمير الابتسامة وقال:

- شكرًا لموافقتك، الآن سأتصل بأبي وأخبره، وسنلتقي في منزلكم.

دخل والد سيلينا للقاعة، ثم نادى بصوت غليظ فزعت له أميرة وأسيل قائلًا:

- سيلينا، هيا فلتعودي للمنزل معي الآن.

نظرت أميرة وقالت:

- سيلينا لن تعود لأي مكان، منزل سيلينا هنا، أظن أنك تعرفه.

قال والدها وكأنه كان ينتظر ذلك:

- إذًا كما تشائين يا سيلينا، سيأتينا ضيوف تخصك...

دخل أمير فجأة قاطعًا حديثه وقال:

- سيلينا، سآتي أنا وأمي وأبي لخطبتك، ولكن لا يجوز ذلك بالتأكيد _كما تعلمين_ إلا في وجود أهلك أيضًا، تعالي معنا.

ابتسمت أميرة وقالت:

- إذا كان الأمر كذلك فلا بأس.

وضحكت أسيل من سخرية أميرة الخفية.

نظرت سيلينا لهما بنفاذ صبر، ثم ذهبت ناحية والدها وقالت:

- ما الذي جعلك توافق الآن يا أبي؟

شعر أمير بالغيظ منها، هل تحاول إرجاعه عن قراره الآن؟!

- لأتخلص منك، لا أحد يريد أن يتزوج بك ويجلب لنفسه العار.

ابتسمت سيلينا بخبث وقالت:

- ولكني أرى هنا شخصًا يريد أن يتزوج بي، أترينه يا أميرة؟

ضحكت أميرة وقالت:

- أرى الكثيرين وليس شخصًا واحدًا.

ضحك أمير بصمت، واشتعلت نار غيرته، وتساءل:

- الكثيرين؟! من هم؟

قال والدها بغضب:

- لا تطيلي الحديث -ثم أشار بيده للخارج وارتفع صوته- هيا أيتها الحقيرة، اذهبي أمامي للسيارة.

نظر أمير باشمئزاز وقال:

- هيا يا جميلة تعالي لأوصلك لسيارته.

ضحكت أسيل ملء فاها، وابتسمت أميرة بدورها، ثم احتضنتها مودعة وقالت بصوت مسموع:

- أرجو ألا يأكلوك هناك يا عزيزتي، سأشتاق لك، لا تتأخري، عودي لنا سريعًا.

نظر والدها لهما وقال:

- لن تتأخر، سأرميها حالما تنتهي هذه المقابلة السخيفة.

قالت أميرة:

- من يرمي هذه الجوهرة الثمينة يا عمي العزيز؟

أصاب سيلينا القلق من تطاول أميرة في الحديث، فأنقذها أمير قائلًا:

- هيا تأخرنا، أبي ينتظرني.

خرجوا جميعًا، وودعت سيلينا أسيل كذلك، وركبوا جميعًا حتى وصلوا إلى منزل سيلينا. دخلت سيلينا المنزل وتبعتها جوليا، استعد أمير للخروج مع والديه على الفور، فقد كان أشد ما يكون قلقًا على سيلينا، ولا سيّما بعد أن تحدثت معه بهاته الطريقة، ربما انتظر أن يصلوا حتى يلقنها درسًا قاسًا جراء ما فعلته.

وصل أمير ووالداه سريعًا، ولم يتحدث معها والدها منذ وصولهم، جلست هي على الأريكة في الغرفة بانتظار الضيوف وحسب، ثم طرق أمير الباب، فتح لهم والدها الباب وقال بضيق واضح:

- تفضلوا أهلًا بك.

دخلوا للمنزل، واستضافتهم والدتها بتكلف ظاهر، قالت والدة أمير:

- أخبرنا أمير الكثير عن ابنتكم، وقد جئنا لنراها، وهذا يسعدنا كثيرًا.

ابتسمت والدتها وقالت:

- بالتأكيد، سآتيكم بها.

خرجت سيلينا بهدوئها المعتاد، وكانت قد بدلت ثيابها، وابتسمت لجميع الجالسين وجلست مقابلة لهم، ضحكت والدة أمير وقد راقت لها وقالت:

- ها هي الجميلة قد جاءت، أهلًا بك يا عزيزتي.

ابتسمت سيلينا بخجل وقالت:

- أهلًا بك يا خالتي.

وفجأة نهض والدها من مجلسه مستأذنًا منهم وخرج، وشرعوا يتحدثون عن سيلينا وأمير، ويعبرون عن إعجابهم بمدى ملاءمتهم لبعضهم البعض، ويخططون لموعد الزفاف، وكانت سيلينا تشعر بخجل واضح طوال حديثهم، وقلّت مشاركاتها معهم في الحديث حتى انتهت الجلسة، واتفقوا على أن موعد الزفاف سيكون في نهاية العام.

وخرجوا فودعتهم والدة سيلينا، وكان من الغريب أن والدها لم يعد منذ استأذن، فاستحقر أمير ذلك في نفسه، ولكنه لم يبدِ اهتمامًا؛ فقد حدث ما يحلم به أخيرًا.

نظرت والدة سيلينا لابنتها، وكانت المرة الأولى التي تتحدث معها على انفراد، وقالت:

- كان كلامك بليغًا اليوم، أحسنت.

كست الدهشة ملامح سيلينا وقالت:

- شكرًا.

ابتسمت والدتها وقالت:

- كما أن كلماتك أقنعتني، نعم نحن أخطأنا في حقك كثيرًا، وأرجو أن يعوضك أمير عن كل هذا.

ابتسمت سيلينا وقالت:

- وهل وقع على عاتقه تصحيح ما فعلتموه الآن؟ -ثم نهضت من مجلسها- عليّ العودة كما كنت، لا مكان لي هنا، أرجو المعذرة، سأستعد للخروج.

دخلت سيلينا غرفتها، وكانت جوليا مستلقية على السرير تعبث بهاتفها.

- جوليا، إنها فرصتك الأخيرة، سأرحل الآن، هيا تعالي معي.
- اذهبي، ليحفظك الرب، سأنتظرك في زفافك.

قالت سيلينا بنفاذ صبر:

- جوليا أرجوك، إنني أعرض عليك الآن، وربما لا أعود من جديد، ستندمين إن فقدتي الفرصة هاته بعد ذلك.

ابتسمت جوليا وقالت:

- طلبتِ مني ذلك كثيرًا، ولكني رفضت في كل مرة، هل اعتقدتِ أنني سأوافق هذه المرة؟
- لا أفقد الأمل.

ابتسمت جوليا:

- أشعر بالفخر أن لي أخت مثلك.

ضحكت سيلينا:

- إذًا هل أعربتِ عن قرارك؟

- وأبي؟
- لا عليك منه، لا يستطيع فعل شيء، أمير هنا، هيا يا جوليا.

ابتسمت جوليا برضا وحماس اتقد من عينيها فجأة، ثم نهضت وبدأت في ترتيب أغراضها، وتوهج قلب سيلينا فرحًا، لا سيّما أنها تخلصت من خوفها أخيرًا، أو واجهته بعبارة أدق.

دخلت والدة سيلينا عليهما الغرفة فجأة وقالت:

- إلى أين أنت ذاهبة يا جوليا؟
- سأترك لك هذا المنزل يا أمي، أرجو لك السعادة فيه.
- لا يمكنك المغادرة دون إذن من والدك، لن أسمح بذلك.

حينها كانت جوليا قد انتهت من ترتيب أغراضها واستعدت للخروج، قالت سيلينا:

- إذًا انتظري أنت الإذن منه.

ثم أمسكت بيد جوليا وقالت:

- هيا.

ثم نظرت لوالدتها التي اعترضت طريقهم وقالت:

- أرجو أن تفسحي لنا المجال لنعبر.

مشت والدتها ناحية غرفتها، وأخذت تحاول الاتصال بزوجها، ولكن دون فائدة، لا يمكن الوصول له.

خرجت سيلينا وجوليا، وفوجئوا بوقوف أمير قريبًا من منزلهم، هرولت سيلينا بسرعة إليه وقالت:

- ما الذي تفعله هنا؟

ابتسم أمير متجاهلًا سؤالها وقال:

- أهلًا بك يا جوليا.

شعرت سيلينا بالغيظ من تجاهله لها وقالت:

- أمير أنا أتحدث معك.

ابتسم أمير وقال:

- بالتأكيد لأعيدك لمنزلك، ولكن المفاجأة وجود جوليا معك.
- حسنًا لا شأن لك بجوليا الآن، اذهب لبيتك وسنذهب معًا لمنزلي.
- لا يمكنك، هيا ستأتين معي.
- سأذهب وحدي.

قال أمير بنفاذ صبر:

- سيلينا... هيا.
- أمير، اذهب، عليك أن تعيد والداك لمنزلهم.
- أوصلتهم للمنزل سابقًا.

قالت جوليا:

- هيا أطيعي كلام زوجك يا سيلينا.

نظرت سيلينا ناحيتها بغيظ، وضحك أمير وقال:

- حتى جوليا تقول ذلك.

ضحكت سيلينا وقالت:

- أنا أختك يا جوليا، هل تقفين ضدي الآن؟
- أشهد بالحق فقط.

ضحك أمير وقال:

- إذًا هيا.

قالت سيلينا بغيظ:

- حسنًا لا بأس لنذهب.

ركبوا سيارة أمير، وخيّم الصمت على المكان طوال الطريق، ثم ودعها أمير.

ودخلت جوليا لمنزلها، وبدأت في استقبال حياتها الجديدة في منزلها الجديد، كانت تشعر بالسعادة للمرة الأولى، تشعر بالتحرر، كما أنها أحبت أميرة كثيرًا رغم ما حدث بينهم، وأسيل أيضًا، وسعدت سيلينا كثيرًا من أجلها.

وتغيرت حياتها كثيرًا وهي في منزل سيلينا، وزارتهم أم حسن في يوم من الأيام، وتحدثت مع سيلينا وأميرة عن رغبتها في خطبة ابنها حسن لأسيل، وشجعوها كثيرًا لفعل ذلك.
وذهبت إلى منزل أسيل وتحدثت مع والديها لتطلب يدها لابنها حسن، الذي لم يخفِ إعجابه بها، ووافقوا.
وحددوا موعد الزفاف، الذي حددته أسيل ليتوافق مع موعد زفاف سيلينا، وقررا الاستعداد معًا.

انتهى العام الدراسي، وعلم حسن خلال العام أن والده قد مات، فذهب ليحضر العزاء مع أمه وكأنهم غرباء، لم يحزن حسن في الحقيقة لوفاة والده، بل حزن لأنه لم يجد والده على قيد الحياة من قبل.

*****

وجاء أخيرًا اليوم المشهود...
استيقظت سيلينا بحماسة لاستقبال هذا اليوم الذي طال انتظاره، ولم تقل عنها أسيل سعادة، وبالتأكيد أميرة وجوليا، وقد اتفقوا على إقامة زفافهما في قاعة واحدة، وشرعوا في التجهيزات.
وارتدتا فساتين زفافهما، فأصبحتا كالملاك الأبيض الجميل، واهتمت أميرة بكل تنظيمات القاعة الذي سيتم فيها الزفاف.

حتى حان الوقت، واستعدت سيلينا للخروج لمقابلة أمير، الذي بدا عليه التوتر كثيرًا، احتضنتها جوليا بسعادة غامرة وقالت:

- تبدين كالملاك اليوم يا سيلينا.

ثم ضحكت من خجل سيلينا الواضح وقالت:

- هيا لا تقلقي، كوني أكثر شجاعة كما عهدتك، أرجو لك السعادة.

قاطع حديثهم وصول أميرة، وما إن رأت سيلينا حتى احتضنتها بشدة وقالت:

- سيلينا، لم أصدق أن هذا اليوم سوف يأتي، الآن وقد غدا الحلم حقيقة، وانعقد لساني عن الحديث، أرجو لك السعادة يا صديقتي، سأشتاق إليك كثيرًا، فلتهدديه، لا يحزنك ذلك المغفل وأنا هنا.

دمعت عينا سيلينا وقالت بهمس:

- أميرة، لن أوفيك حقك في الشكر مهما شكرتك، أحبك كثيرًا، وأشعر كل لحظة بالامتنان لوجودك معي هنا.

وقاطع ذلك دخول أسيل وهي ترتدي فستان زفافها الأبيض الواسع، وكأنها لؤلؤة تخرج من وسطه، ابتسمت سيلينا عندما رأتها، واحتضنتها بشدة وقالت:

- أرجو لك السعادة يا أسيل، أشعر بالسعادة لمشاركتك معي هذه اللحظة.
- لا أعرف كيف أخبرك بمقدار امتناني لك، ساعدتني كثيرًا، لم أصدق أن صدفة تجمعني بك تغير حياتي إلى هذا الحد.

ثم نظرت لهم جميعًا، واغرورقت عيناها بالدموع وهي تقول:

- كنتم أنتم عائلتي، أرجو ألا نفترق أبدًا، بفضلكم أنا هنا الآن، لا تسعني الكلمات لشكركم، ولكن هناك دائمًا ما كنت أود قوله لكم كل يوم، كل ساعة قضيناها معًا وددت لو أخبركم أني أحبكم كثيرًا، شعرت لأول مرة أنني أستحق العيش، شعرت بلون مختلف للحياة، كأنها أزهرت دفعة واحدة، أنتم ربيع كل سنواتي، وجلسات علاجي من دونكم ما كانت لتساعدني لأقف الآن كسائر الفتيات، أودع العزوبية وأستقبل حياة زوجية هانئة... بسائر لغات العالم شكرًا لكم.

قالت سيلينا بتأثر:

- ونحن نحبك كثيرًا يا أسيل

احتضنتها أميرة وقالت:

- سأشتاق لك ولمغامراتنا معًا.

نظرت لهم جوليا بغرابة، إنها المرة الأولى التي تشعر فيها بدفء الحب، والآن علمت أن العائلة ليست بالضرورة من نسكن معهم، العائلة هم الذين يحيطون بقلوبنا دائمًا، الذين نركض إليهم لنحتضنهم عندما تضيق بنا الحياة، الذين يساعدوننا على تجاوز آلامنا، لازمونا وقت مرضنا، نشعر معهم بدفء قلوبنا، ينتهي الألم معهم، ويكونون دائمًا هنا لجعلنا أفضل، ينفطر فؤادنا لغيابهم، ونحيا من جديد برؤيتهم يبتسمون.

استعد أمير للخروج لمقابلة زوجته التي طالما حلم بها، لا يصدق أن هذا اليوم قد جاء، لا تسعه السعادة لجعله يتحكم في انفعالاته، كان يمشي مشية أشبه برقصة، ويتحدث بكلمات أشبه بسمفونية السعادة، وعيناه ملتمعتان أشبه بعاشق ينظر لحبيبته بعد فراق سنوات، حتى وصل لغرفتها وطرق الباب طرقات خفيفة.

نظرت لهم أميرة وقالت وهي تقفز من مكانها:

- إنه أمير ها قد حان الوقت -ثم امسكت بيد أسيل- هيا يا أسيل اذهبي من هنا.

حتى وصلا لغرفتها التي سيدلف منها حسن، كانت الغرفة بها ثلاثة أبواب: الباب الأول يؤدي إلى غرفة أسيل، والباب الثاني يؤدي للقاعة، والثالث يؤدي إلى غرفة سيلينا.

- انتظري حسن، سيأتي الآن، هيا يا جوليا تعالي معي سنذهب معها.

وجذبتها من يدها، ثم نظرت لسيلينا وقالت:

- وأنت يا جميلتي، أتى أمير الآن، استعدي.

شعرت سيلينا بخفقان قلبها واضطرابه وكأنه سيخرج من بين أضلعها، ووجنتاها انفجرا من الاحمرار الذي غطاهما، وذهبت أسيل لغرفتها، وقرر حسن الذهاب لها أخيرًا، كان متوترا جدًا والعرق يتصبب من على جبينه، حتى وصل لغرفة أسيل وطرق الباب برفق، فابتسمت أميرة وقالت:

- أتى الفارس الآخر، استعدي يا أسيل.

وقالت بصوتٍ عالٍ:

- ادخل.

وركضت ناحية غرفة سيلينا التي وقفت والخجل يملؤها، وقالت بصوتٍ عالٍ أيضًا:

- ادخل.

ثم خرجت مع جوليا مسرعتين إلى الباب الثالث لانتظارهم في القاعة.

تحمرت وجنتا أسيل خجلًا، وفتح حسن الباب برفق، ودخل حاملًا معه الزهور، وأخذ يتأملها، اختفى كل شيء حوله، لم يعد يرى سواها.

قدم لها الأزهار التي كانت بيده، فأخذتها وابتسمت له بحب، وتلاقت عيونهما وغابا عما يحيط بهما.

وفتح أمير الباب فرأى سيلينا التي تقف منكسة الرأس، مزيج من البهجة والحياء يغطيها، اقترب منها أمير، ثم رفعت رأسها والتقت عيناهما، وابتسم ولم يستطع أن يحول نظره بعيدًا عنها، وهاما ببعضهما البعض في لحظات طغت لغة العيون على الكلمات للتعبير عنها، وأمسك بيديها برفق ووضعها على خده وقال:

- لا تسعني الكلمات لوصفك، ولا لوصف سعادتي بهذا اليوم الذي حلمت به سنوات وسنوات، لكنها ربما تسعني للقول دائمًا أني أحبك يا سيلينا، عسى أن تكفيني عن صراع الكلمات في رأسي...

تمت بحمد الله

شكر خاص لـ (د. إيناس فوزي) كاتبة كتاب "الذكاء العاطفي في التربية"، والذي كان له دور مهم في مساعدتي لكتابة هذه الرواية.

الكتابة تجمعنا
للنشر والتوزيع

الناشر:

الكتابة تجمعنا للنشر والتوزيع

رقم الهاتف:

01066476589

فيسبوك:

/https://www.facebook.com/Wriiiter

المدير العام:

حسن محمد حسن

ربيع ديسمبر

(عزيزتي سيلينا)

أنت لا تعلمين من أنا وأعلم أنه من الجهد الكبير أن تبحثي في ذاكرتك عني وستبوء كل محاولاتك بالفشل لذلك أعلم أن هذه الأسئلة قد نهشت خلايا مخك الصغيرة بلا جدوى كم هو متعب ما تعيشين فيه أعلم أنك لطالما تساءلتِ عن هويتي ولماذا أفعل ذلك بالضبط ولكن سأعطيك مفاجأة أخرى هناك الكثير من الأسئلة التي كان من المفترض أن تسأليها ولكن لا أظن أنها تحيرك الآن حسنا سأختصر الحديث هنا فهناك الكثير لأخبرك به في حال قبلتي دعوتي هل تودين معرفة إجابات الأسئلة التي تسألينها باستمرار والتي لم يخطر ببالك السؤال عنها رغم أنها تستحق السؤال إذا عليك المجيء إلى المكان الذي سأترك لك عنوانه بالأسفل بعد خمسة أيام من الآن في السادسة صباحا وعليك المجيئ وحدك أو أنك ستفوتين فرصتك الوحيدة لمعرفة الحقيقة (حقيقة كل شيء)

تصميم الغلاف:
Reem Hussein
Graphic Designer

الكتابة تجمعنا
للنشر والتوزيع